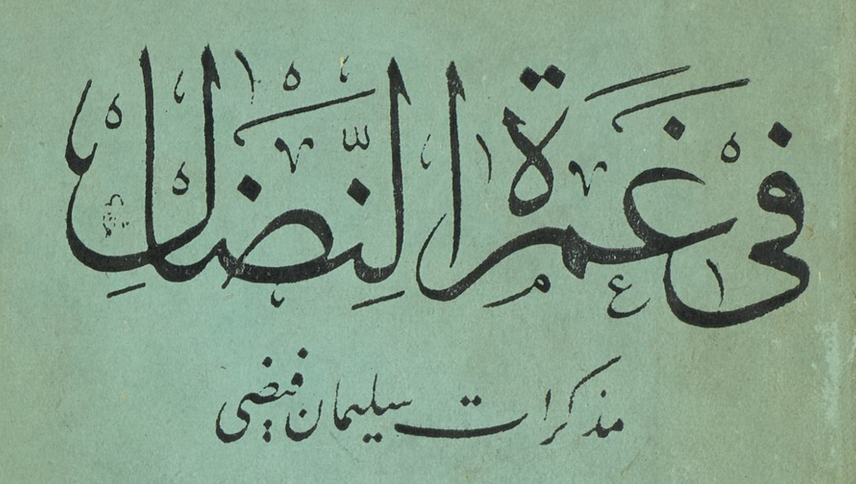
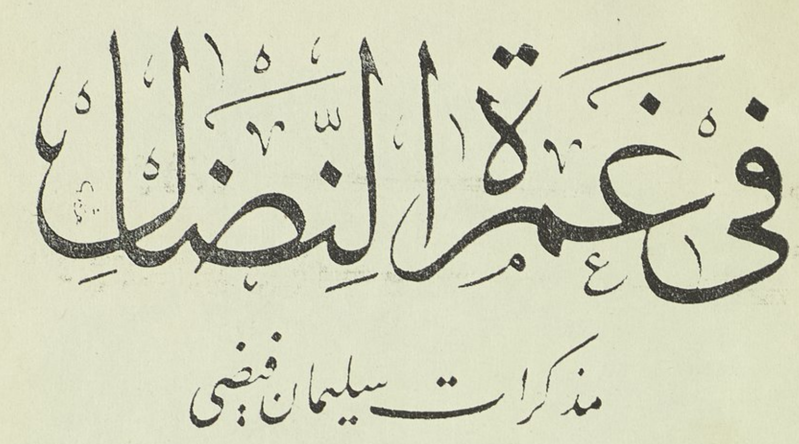


مذكرات سليمان فيضي



مذكرات سليمان فيضي

(In the Midst of political Struggle).
Faidhi, Sulaiman.
It is a history of Iraq since 1900.
Presented to the Columbia University
Library by the daughter of the author.
Laila Faidhi
New York University.
Oct. 1953.

بغداد

١٩٥٢

طبع

شركة التجارة والطباعة المحدودة
شارع الملك فيصل الاول - الكرخ - بغداد

الإهداء

فى كل ثورة للانعتاق ، وفى كل جهاد للتحرر ، جنود مجهولون .. يؤثرون الصمت على التهريج .. مكانهم فى الطليعة أبداً ، لا يثنيهم عن عزمهم ضر ولا بأساء . فهم بين الشهداء الأوائل ، ونصيبهم من الغرم وافر .

وإذا ما كتب للثورة النصر .. وتهالك الناس على المغانم ... انصرفوا هم عنها زهداً وترفعاً . حسبهم من الفوز ما يصيب الشعب من خير ، وما تجنيه الأمة من عز .

فإلى أولئك الجنود ..

الأموات منهم والأحياء

أهدى هذا الكتاب .

سليمان فيضى





المُقدّمة

شاءت قدرة البارى عز وجل ، أن أبتلى بداء عضال يلزمنى فراشى لا أفارقه الا لأعود اليه ملزماً مجبراً . وشاءت قدرته تعالى أن يكون فى هذا المرض فرصة ، لعلها الوحيدة ، لاخراج هذه المذكرات الى حيز الوجود وتقديمها فى كتاب الى القارىء الكريم .

ولقد وجدت فى العمل على جمع ما تبعثر من هذه المذكرات وما تفرق من مستنداتها وما عفا من وثائقها وأخبارها ، أقول وجدت فى ذلك العمل لذة لا تعدلها لذة . فكان سلوتي فى وطأة المرض ، وشفاء لسقامي المضنى ، وبلسماً لآلامى المتمادية . وكنت اذا استرسلت فيه وقضيت الساعات الطوال منكباً على الاوراق التى علاها الغبار ونسج بينها العنكبوت شباكه ، لامنى أهل بيتى وأطبائى ، وأهابوا بى أن أخلد الى الراحة والسكينة . فاذا انصعت اليهم يوماً أو بعض يوم استبد بى اليأس والقنوط وغلبتنى الهموم . فكانوا يشفقون عليّ من هم ثقيل ويأس مرير ، ولا يرون حينذاك مناصاً من التصريح لى بممارسة التأليف . فأندفع ثانية الى فردوسي ، ما بين الاوراق والاضابير ، أنشد فيه السلوى والتسلية : فأستغرق فى تأملات لذيذة عن الايام الخوالى ، وأفنى فى الذكريات البعيدة ، وأواكب العهود السعيدة .

ومرت أيام المرض ، منها الشديد ومنها الهين ، وتكدست بمرورها صفحات الكتاب الى جانب سريرى . فاذا بها كثيرة وطريفة ، أو على الاقل انها كذلك فى نظرى .

نما الكتاب وكبر حتى وقف على رجليه ، أما أنا فكنت لا أزال مسجى فى فراشى . ولكن روحى كانت تنمو مع كتابى ، فلما انتصب هو واقفاً تحاملت هى على نفسها فوقفت الى جواره معتمدة عليه . لقد ربأت بها أن تتوارى خلف جسمى الهزيل السائر فى طريق الاضمحلال ، فأودعتها صفحات الكتاب وسطوره لتحيا ما حيا ، وتعيش ما عاش . تركتها تنساب من بين أضلعى الواهية

لتكمن فى ثنايا كتابى الفتى ، تحاور قراءه وتحدثهم الاحاديث الشجية والاخبار الخفية عن الجيل الاول فى النهضة العربية الحديثة .

فروحى وهذا الكتاب صنوان لا يفترقان ، لا لأنه أحسن كتبى ، بل لأنه كتابى الأخير .. أو قل أنها رسالتى الأخيرة التى طالما وددت نشرها منذ سنين ولشد ما خشيت أن تعاجلنى المنية قبل ذلك . فها هى اليوم جاهزة مكتملة ، وها أنا اليوم لا أمل لى فى طول سلامة .. فما أسعدنى بها .. وما أهنأنى اذ تمت فصولاً .

ولما بلغ التردى فى صحتى مبلغاً عظيماً اشتدت حاجتى الى من يعيننى فى تهيئة الكتاب وفى نسج فصوله . وهكذا وجدت فى ولدى عبدالحميد وابنتى ليلى ذلك المعين . فلولاهما لما تمت الرسالة ، ولولاهما لكنت بذلت من الجهد ما يطيح بقواى المتداعية فى أمد قصير .

كانت ليلى تكتب ما أملى ، وتجمع لى المصادر ، وتستنسخ الوثائق والرسائل . ولم أكن أعنى فى تنميق الحديث حين ألقى به اليها ، بل كنت أمليه فى لغة مبسطة وعلى شكل مقالات مستقلة ، اذ لم يكن ذهنى المكدود ليتحمل عبء تزويق الحديث وصناعة الكلام .

ثم يأتى دور عبدالحميد ، فكان ، بعد فراغه من عمله اليومى ، ينكب على تلك المقالات يهذب ألفاظها ويصوغ عباراتها ويحكم ربط أوصالها بعضها ، فيقدم أو يؤخر ، ليسكبها فى قالب قصصى متسلسل . وكان ينفق فى عمله هذا معظم ساعات الليل دون أن يعتوره الضجر أو أن تفتر همته ، ثم يعيد الى الفصول التى أنجزها ، فأمر عليها للمرة الأخيرة ، منقحاً ، ولا أدعها جانباً حتى تروق لعينى .

وهكذا تظافرت جهودنا ـ نحن الثلاثة ـ لاتمام هذا الكتاب ، فكنا نعمل فى تناسق ونظام كما يعمل أفراد فريق الكرة لاصابة الهدف . وانى لفخور اذ أعترف بجهودهما العظيمة هذه . كما ان القارىء الكريم سيجد فى هذا

الاعتراف تعليلاً شافياً لما سوف يلمسه من اختلاف بين الاسلوب الذى كتبت به هذه المذكرات والاسلوب الذى طبعت به مؤلفاتى السابقة . وأعتقد أن لى من مرضى عذراً مقبولاً لديه .

ولقد توخيت الصدق والصراحة فى كل حرف من هذا الكتاب ، ولكننى تحاشيت ذكر ما يثير الخواطر ويبلبل الافكار . فمررت على بعض الحوادث المثيرة مر الكرام ، لا خوفاً ولا تهيّباً ، انما حرصاً على المصلحة العامة ودفعاً للشقاق .

واذا لمس منى شخص ، أو طائفة معينة ، أو أهل مدينة بعض التقريع والانتقاد فى أحد فصول الكتاب فليحملوه محمل حسن القصد ، وصفاء النية ، وسلامة الطوية . فما كنت لأرتضى لنفسى خدش شعور الآخرين ، بل كنت أسعد لو انى استطعت أن أقيل عثرات الناس أجمعين .

هذا والله أسأل أن يهب المخلصين بأساً وعزماً ، وأن يهدى المخطئين الى سواء السبيل ، وان يحفظ البلاد من نوائب الدهر ويلبسها رداء العز ، انه سميع مجيب .

سليمان فيضى

كتب ببغداد فى ١٦ كانون الثانى ١٩٥١



« هذه رسالتي الاخيرة التي طالما وددت نشرها منذ سنين ، ولشد ما خشيت أن تعاجلني المنية قبل ذلك . »

هذا ما قاله أبي في مقدمة الكتاب وهو ما كان يردده كلما تحدث عن آماله وأمانيه ... مدللاً على شدة تعلقه بمذكراته واعتزازه بها . أما آماله وأمانيه فكانت تلتقي دائما في نهاية واحدة ... في هذا الكتاب .

أتراه أدرك دنو أجله فلم يتعلل بالبعيد من الآمال .. أم تراه برم بالحياة فلم يوغل في القصي من الاحلام .

قال مرة أنه ليتوق الى انجاز طباعة هذا الكتاب في الربيع . ثم أطرق . تلك الاطراقة .. كانت تحز في نفسي ، الا اني لم أشأ أن أعكر صفوها عليه ، بل تركته غارقاً في تأملاته ..

في الربيع .. حين تتفتح الزهور .. يجلس ، حيث كان في سريره قبالة النافذة ، يستقبل النسائم الدافئة .. بصحة موفورة .. حاملاً بيديه كتابه العزيز ..

يا له من حلم لذيذ .. وأشرق وجهه بالرضى وارتسمت على محياه الحبيب تباشير البهجة والسرور ، ثم قال جذلاً :ـ

« أجل في الربيع .. بحول الله وقوته »

....

ثم ... بعد ثلاثة أيام ... حين كانت أنفاسه تقترب من الهمود ، وشعلة الحياة فيه تخبو الى العدم .. راح يجيل الطرف بين أهله وذويه ، وهم وقوف حوله ، يشجعهم ببسمات مغتصبة ـ كأنه يريد أن يهون عليهم المصاب ـ وما درى أن بسماته تلك أطلقت فيضاً من الدموع الحبيسة والأنين المكتوم .

وحانت منه التفاتة الى أوراق الكتاب المكدسة بجواره فأطرق .. لكن اطراقته ـ هذه المرة ـ قوطعت بنشيج أليم .. وزفرات مكلومة ..

....

ثم فاضت روحه الطاهرة الى بارئها الكريم ...

كان ذلك فى التاسع عشر من شهر كانون الثانى عام ١٩٥١ .

....

فهذا الكتاب دين فى عنقى ، نشرته بأمانة ، وحرصت على أن لا يتبدل فيه حرف مما يغير القصد أو يفسد المعنى .

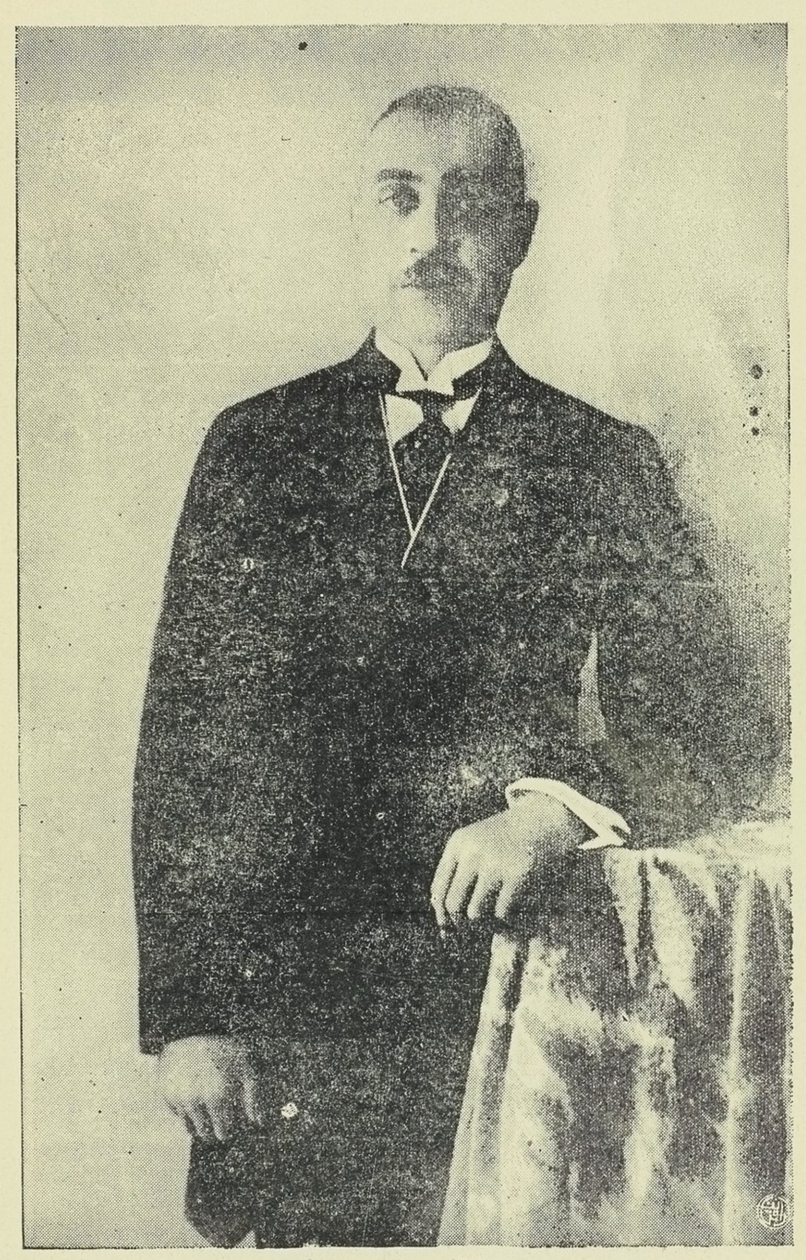
وانى بنشره أبتغى مرضاة أبى .. فى قبره .

وانى بنشره أسعى الى هناء روحه .. الخالدة فى نفسي خلود نزعة الخير فى سيرته ..

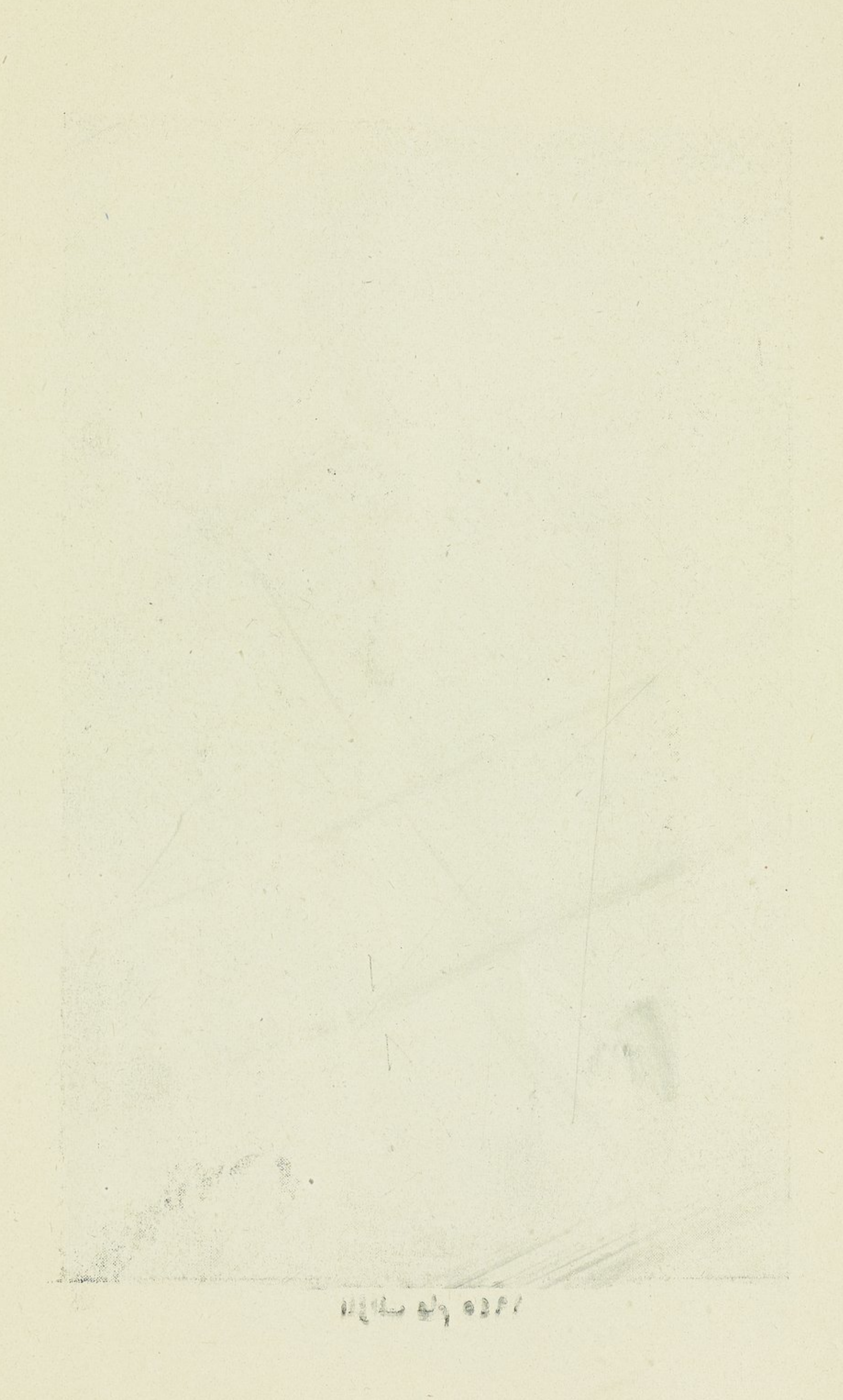
وعندما يتم طبع الكتاب .. فى الربيع .. حين تتفتح الزهور .. سيسعد أبى .. ويكمل هناؤه .

عبد الحميد سليمان فيضي

٦ كانون الثانى ١٩٥٢



المؤلف عام ١٩٤٥



بداية البداية

١٠

الموصـــــل عـــام ١٨٨٥ م

عندما آذنت الشمس بالمغيب وزحف الظلام رويداً على المدينة ، فاكتنف أزقتها الضيقة ومبانيها الحجرية الداكنة بجلبابه القاتم ، أحاط جمع من النسوة بأمي يرتقبن الحادث السعيد . بينما جلس أبى الحاج داود بن الشيخ سليمان القصاب العوادى (١) ، الامام فى مسجد الامام ابراهيم فى الموصل ، فى الغرفة المجاورة يخفى قلقه بالتسبيح فى انتظار ولادة ابنه الاكبر سليمان .

ولم يطل انتظاره طويلا ، فقد زفت اليه البشرى بولادتى بعد ساعة . وحين اجتاز فناء الدار لتقر عينه برؤيتى كان البدر قد اعتلى كبـــد السماء الصافيـــة ، فغمر بنوره المدينـــة النائمة . حدث ذلك فى الموصل ، فى الرابع عشر من شـوال عام ١٣٠٢ الهجرى المصادف لليوم السادس من تموز عـــام ١٨٨٥ الميلادى .

كان أبى ، شأن أهل ذلك العصر ، يتيمن بالمولود الذكر . فلا غرو أن تبدو هيأته بعد ذلك اليوم طافحة بالبهجة والاستقرار . امتدت الحال هـــذه بالأسرة الصغيرة تسعة أشهر فقط ، اذ أصيبت أمى بحمى طارئة . واشتدت عليها وطأة المرض ، ولم تكن فى ميســور أهل ذلك العصر وســـائل الطب الحديث ، فتوفيت تاركة وراءها زوجاً مكلوماً ورضيعاً يتيماً .

استبد الحزن بأبى أشهراً واستحال استقراره قلقاً وبهجته كمداً ، اذ كان يفكر فىّ كثيراً ، أنا البرىء الذى نال من العقاب أشـده . أما أنا فلم أع ، بالطبع ، شيئاً مما جرى حولى ، ولو أن وفاة أمى كانت نقطة تحول حاسـمة فى مجرى حياتى . فقد كفلتنى جدتى وحنت علىّ حنو الأم على طفلها العزيز . وتزوج أبى بعد أمد ، ونشأت أنا فى غير بيت أبى ، وترعرعت فى أحضـان الجدة الشفوقة . وسعدت بطفولتى بعض الشىء ، وكنت فى أعماق نفسى أكن لأبى الاحترام ولجدتى الحب .

---

(١) نسبة الى جدنا الأعلى عواد العشائرى المتصل نسبه بالسـيد أحمد الرفاعى .

مرت السنون فاذا بى صبى هادىء الطبع صلب العود • لقد أثر تيتمى فى طباعى كثيراً ، فلم أعد بالمدلل المترف شأن بعض أترابى الذين أفسدتهم أساليب التربية فى ذلك العصر •

كنت ألجأ الى نفسى كلما جدت لى مشكلة ، فجدتى المسنة لم تكن قادرة على تفهم نفسية طفل صغير • وهكذا نشأت عصامياً منذ نعومة أظفارى ، ولطالما خلوت الى نفسى أفكر فيها وأستعرض آمال الطفولة وأحلامها • شعرت برغبة أكيدة فى تعلم الاشياء ، رغبة أشبه بالفضول • كنت أتوق الى المدرسة والى الانخراط فيهـا • ولكنى أطعت والدى حين أدخلنى كتّاب الحى ، فحفظت القرآن الكريم ، وأذكر من رفاقى فيه السـيد عبدالغنى النقيب ومصطفى الصابونچى • وتعلمت بعد ذلك شيئاً من أوليات الفقه والتجويد من والدى ، والاجرومية فى مدرسة جمشيد الوقفية • وحلا لأبى أن أواصل الدراسة الدينية فى مدارس الاوقاف على أن أزاول حرفة يختارها لى هو بعد أوقات الدرس ، شأن أكثرية طلاب العلم آنذاك • اذ لم تكن ساعات الدرس التى تبدأ قبل طلوع الشمس لتعيق التلميذ عن طلب الرزق • ثم ان أبى ، كسائر الآباء يومئذ ، كان يرى فى أىّ دراسة أخرى عدا الدينية هذه الحادا • ولا غرو فهو الرجل الذى عرف بالتقوى والزهد •



الحاج داود القصاب

فكرت فى اقتراح والدى طويلا فشـعرت بالخيبـة والخذلان • ان الطريق التى رسمها لى أبى فى الحيـاة لم تكـن لتقضى على آمـالى الغاليـة فحسب بل انهـا

أساءت الى شعورى اساءة بالغة ، أنا الذى أفقدتنى الظروف أمى العزيزة يوم كنت فى المهد ، وها هى الآن تجبرنى على السير فى ركاب الأجيال السابقة . وتجسمت لى الحياة الرتيبة التى كنت سأحياها لو استمعت الى نصح أبى ، وهالنى السير فى دائرة مفرغة لا أول لهـا ولا آخر . وازداد ايمانى بنفسى وتمسكى بمطاليبى ، فطرقت كل باب لاقناع أبى . ولجأت الى آباء أترابى وأقربائى أسألهم العون ، حتى انصاع والدى أخيراً لهذا الاصرار .

وهكذا دخلت المدرسة الاعدادية الاميرية فى شوال عام ١٣١٢ هـ الموافق لشهر تشرين الاول عام ١٨٩٥ م تغمرنى الغبطة والثقة بالفوز .

فى المدرسة الاعدادية الملكية

كانت المدرسة الاعدادية قد أنشئت بدلاً من المدرسة الرشدية الملكية ، وهى ذات خمسة صفوف . دخلت الصف الاول وأنا فى العاشرة من عمرى ، وبسرعة عجيبة تآلفت قلوب الصغار القلائل فى الصف ، والذين أذكر منهم : مولود مخلص ، عارف العارف ، ناظم العمرى ، اسماعيل شنشل ، داود الحيدرى ، قاسم الشعار ، وأكرم العمرى .

وبغلق أبواب المدرسة الرشدية الملكيـة ذات الصفوف الثلاثة ، انضم خريجوهـا الى الصف الرابع من مدرستنا لاكمـال تحصيلهم فيها . وأذكر منهم :ـ

داود الچلبى ، محمد رؤوف العطار ، داود سليم ، على جودت ، قاسم محمد على ، محمد على مصطفى ، صديق الدملوجى ، فاروق الدملوجى ، وأمجد العمرى وغيرهم .

اكتمل عقد الطلاب وسارت الدراسة فى المدرسة سيراً حثيثاً . وكانت العلوم كلها تدرس بالتركية ، حتى اللغة العربية وقواعد النحو والصرف ، ولما كنت أجهل حتى مبادىء هذه اللغة فقد وجدت فى دراستها بادىء الامر

مشقة كبرى • وأنست فى زملائى سعياً وجداً فلم أشأ أن أتخلف عنهم ، فكنت فى الطليعة دائماً • وأقبل الاساتذة على التدريس بشوق حين لمسوا فى طلابهم النباهة • وكانوا على جانب كبير من الفضل ودماثة الخلق • فمديرنا توفيق بك استانبولى كان الى جانب شدته وصلابته رفيقاً حليماً • وكان ابراهيم أفندى معلم العقائد الدينية واللغة العربية عالماً فاضلاً • بينما كان الحاج أحمد أفندى الجوادى تقياً ورعاً ، وأحمد أفندى آل قاسم أغا معلم التركية أديباً بليغاً •

ولم تكن الحياة فى المدرسة لتخلو من الهزل والمرح ، فكثيراً ما نظم أساتذتنا السفرات فى البرارى المحيطة بالمدينة ، حيث كنا ننعم بالطبيعة الخلابة ونرقب النهر وهو ينساب برفق بين التلال المكسوة بالشقائق والازهار • وكان يحلو لنا مشاهدة الموصل عن بعد وقد بانت مآذنها الشاهقة وتناثرت قبب المساجد هنا وهناك •

وكانت العادة الجارية يومذاك أن يهتف الطلاب ثلاثاً بحياة السلطان كلما حان وقت الانصراف : (پاد شاهم چوق يشا) ؟ ولبثت أياماً أردد الهتاف بصورة مغلوطة ، كالببغاء التى تقول ما لا تفهم : (باطشان قاطشان) • ولشد ما سرنى بعد ذلك أن أحدا لم يكتشف خطأى الفاحش فأنال بسببه العقاب •• اذ كيف لا يدعو طالب صغير للسلطان بقلبه ولسانه !•

وان أنس لا أنسَ يوم شربت الشاى لاول مرة فى حياتى • كان ذلك فى صباح يوم دافىء من أيام الربيع ، وبينما كنت فى طريقى الى المدرسة، دلفت الى دار صديقى محمد زين‌العابدين ليصحبنى ، فاذا بى أمام منظر غريب • كان أهله واخوته الجالسون فى فناء الدار يحيطون بشىء شديد اللمعان خلاب المظهر ، وكانوا يفتحون حنفيته الجانبية ليملأوا أقداحهم الزجاجية الأنيقة بسائل أحمر اللون يتصاعد منه البخار ، ثم يعبون فى أجوافهم بلذة ذلك السائل الغريب •• ولما لاحظ أهل البيت دهشتى ، دعونى الى مشاركتهم • فتناولت الكأس وشربته بنهم • لم يكن هذا السائل الغريب سوى الشاى ••

والجهاز اللامع لم يكن الا السماور .. أما الاقداح فكانت الاستكانات . كل هذه الاشياء كانت قد جلبت من ايران ، اذ لم يكن أحد من أهل البلد ليعرف الشاي أو ليشربه . ولم تكد تمر بضع سنوات على الحادث حتى صار تناول الشاي عادة شائعة ، يقدم فى المقاهى والاندية ويشربه الغنى والفقير .

مرت الأيام سراعاً فاذا بى أتم السنة الرابعة من دراستى . وفى ذات يوم همس أحدهم : لماذا لا نذهب الى بغداد لننخرط فى المدرسة العسكرية ؟ . وسرت الهمسة بيننا مسرى النار فى الهشيم . من منا لا يحلم بملابس الضباط الأنيقة ، وبسيوفهم المهيبة .. وبتلك الأنجم اللامعة على الأكتاف والأزرار المذهبة التى تخطف الابصار . وتبلورت لدينا الفكرة فأزمعنا على الرحيل .

حزمت أمتعتى البسيطة وأنا جذلان ، وقابلت اعتراضات أبى وأهلى بعناد واصرار . فلم يروا بداً من الرضوخ . وأزف يوم السفر فكان وداعاً حاراً وكانت دموعاً سخينة . وهناك على شاطىء دجلة اجتمع حشد صغير من الاهل والاقرباء والاصحاب لتوديعنا ، وكانت (الاكلاك) فى الانتظار . أما رفاقى فى السفر فهم :

على جودت ، وداود سليم ، وقاسم محمد على ، ومولود مخلص ، وتوفيق فكرت ، ومحمد شيت ، ومحمد على مصطفى الامام ، وشهاب الدين ، وسليمان حكمت .

بغداد عام ١٨٩٩ م

انسابت الأكلاك مع التيار المنحدر فلبثت صامتاً أرقب المدينة الجميلة وهى تبتعد رويداً رويداً . وشعرت بالوحدة للمرة الاولى كأن نشوة الفرح بالرحيل قد انقشعت فجأة . ولكن وحشتى لم تدم طويلاً ، فقد شغلت بعد حين بالمناظر الجميلة على ضفتى النهر وبمراقبة أعواد الكلك وقربه وهى تترنح مع الامواج كلما هب النسيم . كان ركوب الكلك اعتيادياً آنذاك ، الا انه فى حد ذاته مغامرة طريفة . فحين تشتد الريح يخرج الركاب من عششهم ليرقبوا الربان

ومساعديه وهم يدفعون الشاطىء الصخرى بعصيهم الطويلة خشية الاصطدام به • مرت خمسة أيام ونحن على هذا المنوال ، حتى استقبلتنا بغداد بمآذنها العديدة وقصورها الرابضة على ضفتى النهر • وكان التعب قد أخذ منا مأخذه ، فاستغرقنا فى سبات عميق وأصبنا من الراحة قسطاً وافراً •

وبكرنا فى صباح اليوم التالى بمراجعة المدرسة الرشدية العسكرية ، فلم نلق الترحيب الذى كنا ننتظره ، بل أقيمت فى وجهنا العراقيل • ولم يتم قبولنا فى المدرسة المذكورة الا بعد مخابرات طويلة مع وزارة الحربية فى استانبول •

لم تكن بغداد فى ذلك الحين بالمدينة الكبيرة • فالعمران فيها يكاد ينحصر بين باب المعظم شمالاً وبين منطقة السيد سلطان على جنوباً • وما عـدا ذلك فبساتين تفرقت بينها دور القنصليات المشادة على ضفة النهر • ولم يكن فى المدينة حتى ولا شارع واحد بل مجموعة من الازقة الضيقة الملتوية التى يشاهد مثلها الكثير فى الاحياء القديمة اليوم •

لم يكن ليسمح لنا بالخروج من المدرسة الا فى أيام الجمع والعطلات الرسمية • وكان الواحد منا يحار فى قضاء هـذه الاوقات على قصرها بسبب انعدام وسائل التسلية آنذاك • كنت أفضل الذهاب الى جامع السيد سلطان على لمشاهدة حلقات الذكر التى كان يحييها المرحوم الشيخ ابراهيم الراوى عصر كل يوم جمعة ، أو نذهب زمراً للتفرج على الوحوش الكاسرة التى كان محمد باشا الداغستانى يحتفظ بها فى اصطبلاته فى باب المعظم • وكنا اذا أضر بنـا الجوع أسرعنا الى الصابونجية حيث الكباب المشهور • ولم يكن أحدنا ليجرأ على التنزه فى البساتين المتاخمة للمدينة خوفاً من السلب فى وضح النهار •

فى المدرسـة الاعـدادية العسـكرية

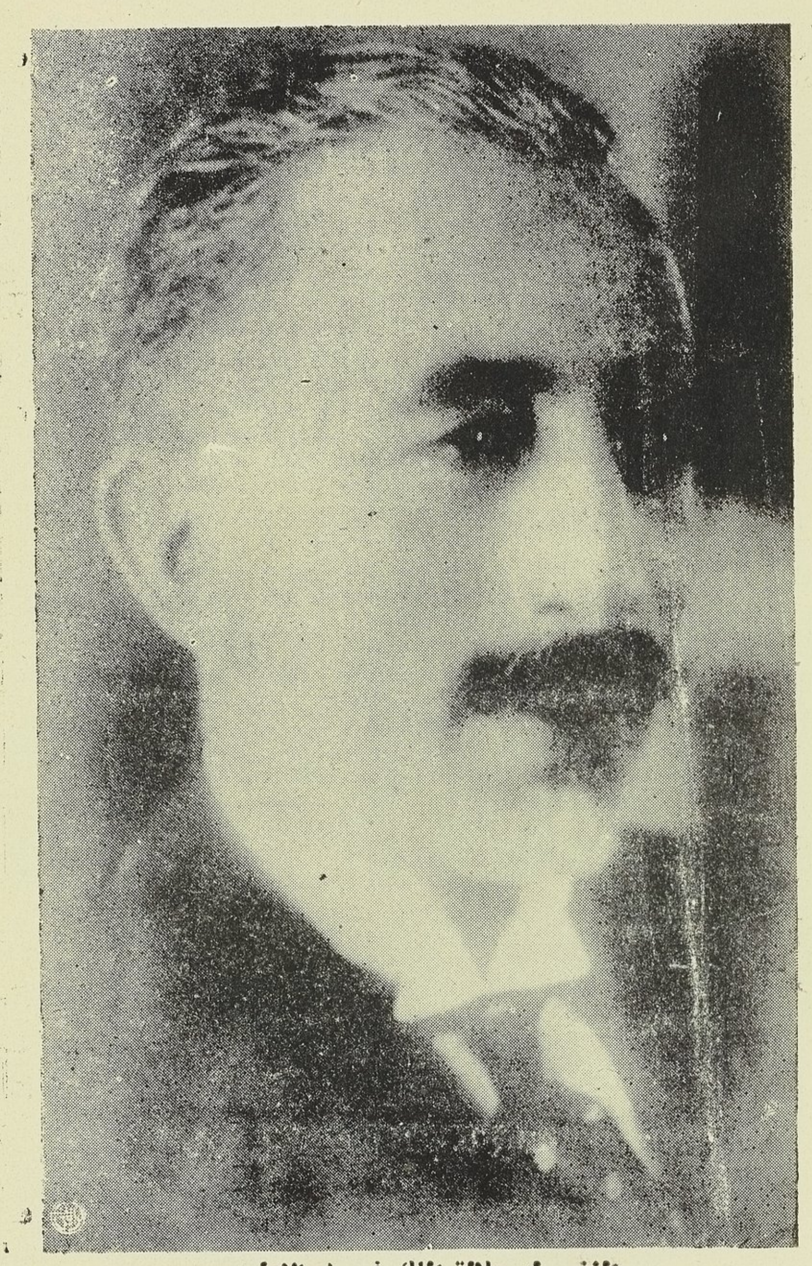
استقر بنا المقام فى القسم الداخلى من المدرسة الاعدادية ، ونسبت الادارة التحاقنا بالصف الثالث الرشدى • وكانت أبنية المدرسة الرشدية تشغل الحيّز الذى تشغله الثانوية المركزية فى الوقت الحاضر ، بينما كانت الاعـدادية العسكرية تشغل بناية دار المحاكم القائمة حتى اليوم •

وفى اليوم الاول بعد افتتاحها تلا المعلم أسماء الطلاب الجدد ، فلما ورد اسم سليمان الموصلى أجاب طالبان فى وقت واحد بالحضور ، اذ كان لى زميل موصلى اسمه سليمان . فرأى مجلس المدرسين ، منعاً للالتباس ، أن يختار كل منا لقباً يضاف الى اسمه . فاختار صديقى لقب حكمت وصار يدعى سليمان حكمت ، أما أنا فقد ارتأى مدير الاعدادية تسميتى بسليمان فيضى ، تيمناً بأسم المشير العثمانى أحمد فيضى باشا . ومنذ ذلك الحين عرفت بهذا الاسم .

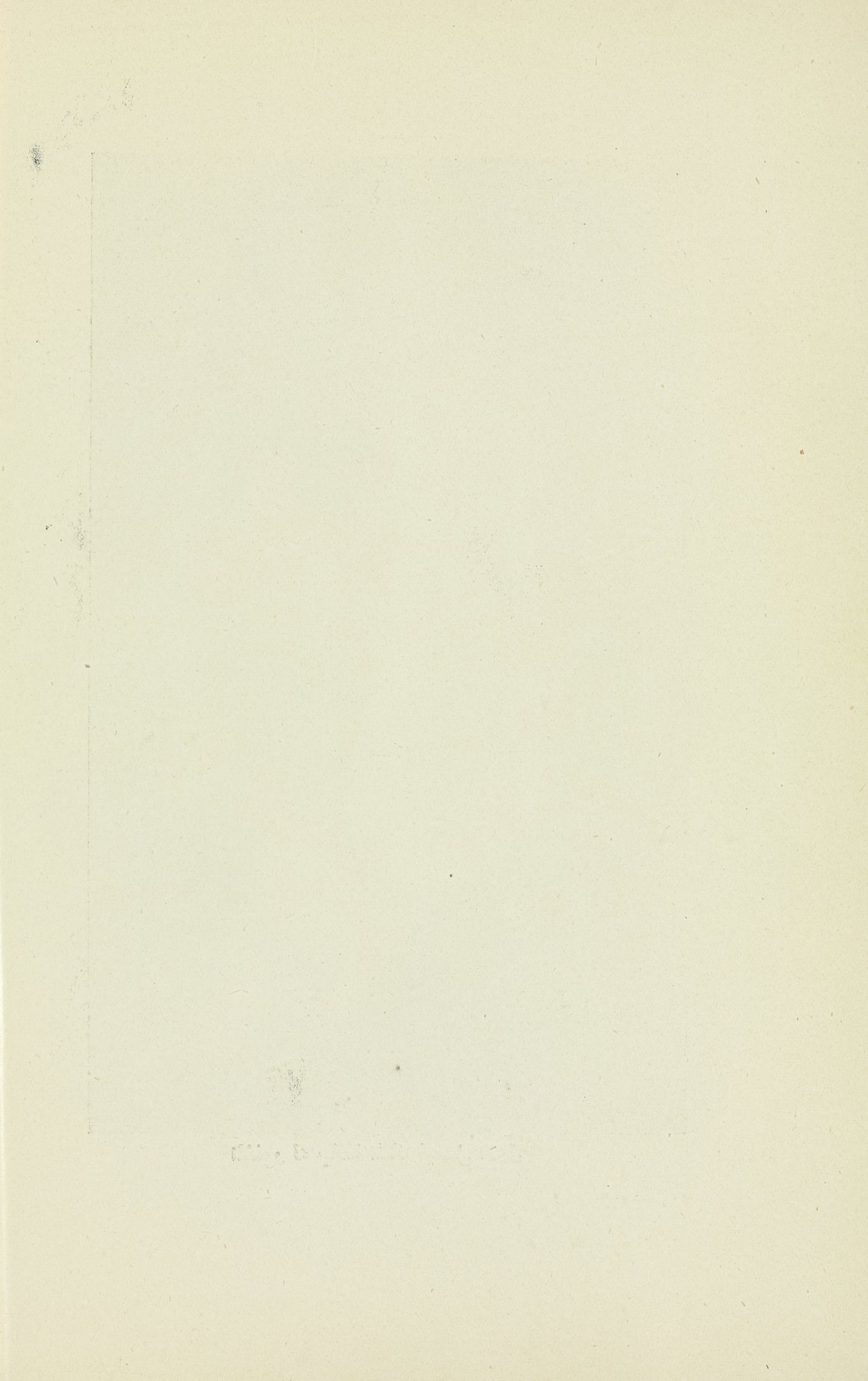
كانت الدروس فى الرشدية العسكرية تنقسم الى المحاضرات النظرية ، والتدريب العملى ، مع الاهتمام البالغ بالرياضة البدنية ، حتى كنت ترى ساحة المدرسة مليئة بالأجهزة والأدوات الرياضية . وكنا نقضى الساعات الطوال فى مذاكرة دروسنا فى الأمسيات . وكنت أسرف فى المطالعة لعلمى بما سيصيبنى من انتكاس لو قدر لى الفشل . وأثرت هذه المجهودات المضنية تأثيراً سيئاً فى صحتى ، يضاف الى ذلك تبدل المناخ عليّ وضعف بنيتى فى الأصل ، حتى أصبت ذات يوم بدوار شديد الجأني الى الفراش . ومنذ ذاك والدوار يتكرر بين حين وآخر وهو يزداد شدة عن ذى قبل ، حتى جاء اليوم الذى فقدت فيه وعيى ، ثم وجدت نفسى مسجى على سرير فى المستشفى محاطاً بزملائى . وكان المستشفى الوحيد فى بغداد فى ذلك الحين ويشغل القسم المخصص لدار التمريض من المستشفى الملكى القائم اليوم .

لبثت فى المستشفى بضعة أيام . وكان للراحة التى أصبتها هناك فعل السحر فى استرداد صحتى ونشاطى ، فعاودت الدراسة . وحالفنى النجاح فى السنة الاولى والثانية من الرشدية العسكرية ، فانتقلت وأترابي الى الاعدادية العسكرية ، وتدرجت الى الصف المنتهى من المدرسة المذكورة .

لقد وثقت هذه السنين الخمس بين أبناء صفنا أواصر الأخوة والمودة ، وأزالت الفوارق الاقليمية بين الطلاب القادمين من شتى أنحاء القطر . فكان من زملائى فى الصف عدا الموصليّين : نورى السعيد ، عبداللطيف نورى ، طه الهاشمى ، عبدالحميد الشالچى ، نظيف الشاوى ، أحمد رشدى ، رؤوف الكيسى ، خليل زكى ، وخالد الزهاوى .



المغفور له جلالة الملك فيصل الاول



واقتربت الامتحانات النهائية فازداد بأقترابها سعينا واجتهادنا • كنا نتوق الى جنى ثمار الأتعاب الطويلة التى بذلناها فى هذه المدرسة • وأوشكت آمالنا بالسفر الى استانبول ، للالتحاق بالكلية الحربية ان تتحقق بعد أيام قلائل ، لولا أن حدث ما لم يكن فى الحسبان • فقد حدثت مشادة كلامية بين اثنين من زملائى ، ثم تطور النزاع الى الضرب ، وحين أمعن أحدهما بضرب الآخر ضرباً مبرحاً لم يسع رفاق هذا الا مناصرته ، فخف زملاء الاول أيضاً الى مؤازرته وتوسعت شقة النزاع •

انتهى النزاع بتدخل المسؤولين ، وقدم الطلاب الثمانية المتخاصمون المذكورة أسماؤهم أدناه الى مجلس المدرسين لمحاكمتهم :ـ

مولود مخلص (الموصل : تخرج ضابطاً وارتقى الى رتبة أمير لواء وهو الآن عضو فى مجلس الاعيان •) شاكر وفى (الموصل : تاجر أثاث) مصطفى عزيز (استانبول : مهندس ميكانيكى) سليمان فيضى (الموصل : المؤلف) سعيد سارة (بغداد : مزارع) عبدالرزاق حلمى (بغداد : موظف أوقاف متقاعد) اسماعيل حقى (بغداد : الأخ الأكبر للمرحوم ابراهيم كمال وزير المالية الأسبق) فؤاد نظيف (الشام : موظف متقاعد) •

أحال مجلس المدرسين أوراق التحقيق الى نظارة الحربية فى استانبول فأصدرت حكمها بفصل الطلاب المذكورين فصلاً نهائياً من المدرسة ، على أن يلحق من هم فى السن القانونية للجندية بالخدمة الفعلية فوراً ، ويؤجل من لم يبلغها حتى بلوغه السن المذكورة بعد ربطه بكفالة •

لم يكن أحدنا لينتظر مثل هذا الحكم القاسى بسبب تهمة تافهة • ان قرار الفصل المذكور لم يكن الا مثالاً واحداً لآلاف المظالم التى كان يرتكبها المسؤولون يومذاك بحق المواطنين • لقد كانت الصدمة عنيفة ، شعرت بوطأتها حين التفت حولى فوجدتنى وحيداً فى خضم الحياة القاسية • فقدت آمالى بالتخرج ضابطاً ، وضاعت أتعابى دفعة واحدة ، وتلاشت أحلامى كما تتلاشى ذرات الملح فى قطرات الماء • ولم يفت فى عضدى شىء كما فتّ فيها خوفى

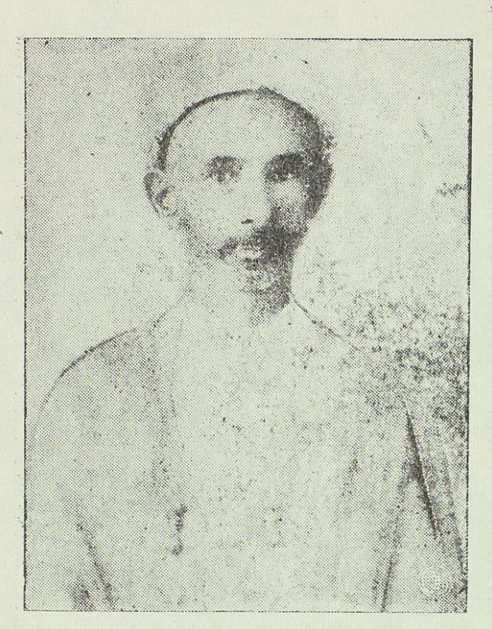
من الانخراط فى الخدمة العسكرية • وساعدنى على تأجيل الخدمة المذكورة كون ولادتي كانت مسجلة بدفتر النفوس عام ١٨٨٨ • فلجأت الى المرحوم الحاج عبدالله التوحلا التاجر الموصلى المعروف سائلاً عونه ، فأبدى الرجل من الشهامة ما هدأ خاطرى ، ووقع الكفالة على الفور وأنقذنى من ورطتى •

كانت الخدمة العسكرية لامثالنا تسمى (الزجرى) •• وهى ست سنوات متوالية غير قابلة للتخفيف بالبدل النقدى •• ولا ينجو من شرها أحد الا بارادة سنية من السلطان !• فكيف السبيل الى ذلك • أعملت الفكر أياماً فهدانى الى طريقة ربما أفادت • وهى ان أسعى الى وساطة الامير عبدالعزيز الرشيد ، أمير نجد فى ذلك الحين ، الذى كان ذا حظوة لدى السلطان • فعزمت على الرحيل الى نجد والدخالة عليه •

فى الطريق الى نجـــد

راحت البـاخرة النهرية تتهـادى فى دجلة وقد ازدحمت سـطوحها وغرفاتها بالمسافرين • واستغرقت الرحلة الشيقة ستة أيام ، وحين أشرفنا على القرنة بانت على الجانبين غابات النخيل الكثيفة ، وامتدت هذه الكتل النباتية الخضراء حتى وصلنا البصرة •

رست الباخرة فى العشار فأنزلت أمتعتى ودخلت المدينـــة ، وبادرت بالسؤال عن خان أضع فيه أمتعتى ، اذ لم تكن الفنادق لتوجد فى ذلك الحين • فاذا بالصدف تسوق الىّ الحاج طه الموصلى الذى كان يعرفنى من قبل وكان صديقاً لوالدى ، وهو الذى أقام فى البصرة واشتهر فيها بتجارته الواسـعة وشمائله الطيبة وكرمه الحاتمى ، حتى أن داره كانت محط رحـــال الغادين والرائحين • فدعاني بالحاح لا يقبل الجدل للاقامة فى داره ، فلم أر مناصاً من قبول دعوته • لم أطل المكوث فى البصرة ، اذ كان جل همى الوصول الى نجـد بالسرعة الممكنة ، فرحلت عنها فى شوال سنة ١٣٢١ هـ المصادف كانون ثانى سنة ١٩٠٤ م مع أول قافلة للحجاج •



الحاج طه الموصلي

غادرت القافلة الزبير مع طلوع الشمس . وكان الوقت شتاء وقد تدثرنا بالالبسة الصوفية اتقاء البرد ، فاستقبلتنا نسائم الصحراء النقية المنعشة . وسارت الابل فى نسق بديع وهى تلقى بأخفافها على الرمل فتطبع عليه صورا متشابهة ، وكان لوقوعها حفيف بديع ... انصت اليه فاذا بي أعود الى أعماق الماضى السحيق . ان هذه الالحان الرتيبة لم تخفت يوما منذ ان وجدت الابل فى الصحراء ، أنها توقع اللحن ذاته فى ذهابها وايابها منذ آلاف السنين . وهذه التلال الرملية المتموجة التى لم تمتد اليها يد انسان منذ الأزل كانت تذكرني بأمواج النهر المتلاطمة .. لله ما أروع الطبيعة .. انها لم تعدم حتى هذه الرمال المقفرة الجمال والبهاء .

وأوغلت القافلة فى ذلك الخضم اللا نهائى من الرمال البيضاء وهى تحث الخطى لتبلغ نبعاً قبل حلول الظلام ، والدليل البدوى يسوسها بدراية الخبير الواثق . فكان يبدل الوجهة كأنه يتبع آثاراً وعلائم خفت عن عيوننا .

وصلنا البئر أخيراً ، فحطت القافلة الرحال ، وأسرعنا الى البئر ندلى بدلائنا فيها . وكانت مبنية بالحجر بناءً محكماً ويقال أنها ، وكل الآبار الاخرى فى طريق الحج ، حفرت فى زمن العباسيين . وانقسم المسافرون زمراً ، فكنت ترى الكل فى شغل شاغل بين محطب ، وموقد للنار ، وطاه ، وخباز ، ومورد للابل ، وناصب للخيام .

رأيت فى تلك الليلة أشياء طريفة من جملتها الطريقة التى يحضر بها البدو خبزهم . فالعجين يلقى على قطعة من الجلد المدبوغ يدعى النطع ، وتحفر فى الارض حفرة مستديرة يوضع فيها النطع لكى يأخذ العجين شكل قرص سميك . وعلى جانب من الحفرة توقد النار ويلقى القرص برفق عليها . ثم يهال الحطب فوقه ويوقد أيضاً . وهكذا تعمل النار فى وجهى القرص وعند نضوجه يكون قد استحال الى قطعة سوداء لاختلاطه بالرماد والفحم ... حينئذٍ يضرب بالعصى لتنفض عنـه تلك الشوائب .

قضينا ليلة هادئة ، وكان الرجال يتناوبون الحراسة حتى الصبح . وقبل بزوغ الشمس استأنفت القافلة سيرها ، حتى اذا ما جن الليل خلدت الى الراحة حول بئر أخرى . وفى الايام التالية رأينا من أعاجيب الصحراء الشىء الكثير ، فتارة نشق طريقنا بين الرمال الحمراء ، وأخرى بين رمال بيضاء كالدقيق ، ثم اذا بنا نجتاز أرضاً مشبعة بالحصى أو مغطاة بأشـواك الشـيح ، والرمث ، وأدغال القيصوم .

مررنا بواحات خصيبة كثيرة الخضرة حلوة المياه ، وبمضارب للبـــدو الرحل فى جوف الصحراء ، ونزلنا بقرى صغيرة يعيش فيها الناس كما عاش أجدادهم قبل آلاف السنين ، وشاهدنا أسراب الظباء تورد من مياه المطر .

وبعد مرور أربعة عشر يوماً قضيناها فى سير حثيث لاحت لنا مشارف حائل فهلل القوم بشراً وسروراً . دخلنا المدينة فاذا بها عامرة تكتظ أسواقها بشتى أصناف البضائع ، وفيها مساجد ومدارس ، دورها كثيرة وجلها مشيد بالطين . تحيط بها النخيل وأشجار الفواكه المثمرة . ويتاخم المدينة جبلا (طى) و(أجا وسلمى) وعند الاول كان يقيم حاتم طى الجواد الشـهير (جد أولادى لأمهم) . وفى حائل علمت ان الامير عبدالعزيز الرشيد كان قد غادرها على رأس جيشه الى جهة مجهولة لملاقاة جيش الامام عبدالعزيز السعود الذى كان قد دخل الرياض فاتحاً واندفع بجيش الوهابيين جنوباً للسيطرة على ما تبقى من نجـــد .

ولدى سماعى النبأ تجسمت لى المصاعب التى ستعترض سبيلى • اذ لم تكن مقابلة أمير نجد فى ذلك الظرف العصيب وتلك الحرب الضروس بالأمر الهين • الا أن شبح (الزجرى) كان أبداً يلاحقنى ويهيب بى أن أنجز ما بدأت به ، فعولت على مواصلة السير • وبينما تابعت القافلة الكبرى سيرها الى مكة المكرمة ، توجهت أنا فى قافلة ، تتألف مني ومن أثنين آخرين فى صحبتى ، الى عنيزة • وأوغلنا أياماً فى القفار المنبسطة شمالاً ، فوصلناها بعد أن مررنا فى طريقنا ببريدة •

وعنيزة هذه مدينة ليست بالصغيرة • هواؤها عليل ومياهها غزيرة ، تكتنفها الاشجار من كل صوب ، وتحيط بها قرى صغيرة • يمتهن أهلها الزراعة حيث تتوفر الآبار وعيون الماء •

نزلت ضيفاً على الحاج عبدالله البسام ، اذ كنت أحمل اليه رسالة من ابنه الحاج ابراهيم فى البصرة • ولقيت منه ومن أنجاله الثلاثة على وفهد ومحمد اكراماً عظيماً وترحيباً فائقاً •

اقمت فى عنيزة ثمانية أيام أنست فيها بصحبة مضيفيى الكرام • وكنت أصحب أنجالهم الى العرضات حيث يرقص الرجال بالسيوف والبنادق على قرع الطبول ، وكانت هذه العرضات تكاد لا تنقطع ليل نهار ، اذ هى بمثابة الدعوة الى النفير العام • فجيش ابن السعود كان يزحف جنوباً كما ذكرت ، وكانت مدن نجد الجنوبية التى لا تزال تحت أمرة آل الرشيد تتهيأ للدفاع عن نفسها •

بعد لأى علمنا على وجه التحقيق الارض التى نزل بها الامير وجيشه ، فاستأجرت ذلولاً وصاحبها وغادرت عنيزة برفقة أربعة من أهاليها ، أحدهم الشيخ سليمان الرشيد أحد مشاهير العلماء فى نجد ، وكانوا يقصدون الامير أيضاً • وحين ودعت آل البسام زودني الحاج عبدالله بكتاب شخصى الى الامير لتسهيل مهمتى •

تحركت بنا القافلة فى صباح يوم عرفة ، فلما حلّ يوم العيد الأضحى

الاول وصلنا قرية (حنيظل) ، واذا بالاهازيج والعرضات على أشدها • ورحب بنا القوم وأصروا على مشاركتنا أياهم فى غذاء العيد فاستجبنا دعوتهم • ثم حتى اذا كان المساء مررنا بقرية (أبى الدود) وتناولنا عشاء العيد مع أهاليها نزولاً عند رغبتهم • ان المرء ليعجب من كرم أهل نجد ، فهذا الشعب الفقير كان يبدى من اكرام الضيف أمثلة رائعة •

وبعد صلاة العشاء استأنفنا السير ، وكان الهواء عليلاً يبشر بطلائع الربيع ، وكنا نسرى عن أنفسنا بتبادل الاحاديث الطلية والمطاردة بالأبيات الشعرية • وكثيراً ما حدثنا رفقاؤنا من البدو عن مغامرات وحوادث طريفة وقعت لهم • وانك اذ تستمع اليهم يحدثونك عن أسرار هذا الخضم الرملى الكبير يتسرب حبه الى قلبك ، وتود لو انك عشت عمرك فى هذا الجو الذى يتميز بالبساطة والطهر •

كانت قرية (أبى الدود) آخر معالم الحضارة فى وجهتنا الجديدة • اذ مرت علينا خمسة أيام فى سير متواصل لم نر فيها بشراً أو طيراً • وفى صباح اليوم السادس ، بينما كانت الجمال تسرع الخطى بين الاشواك ، لاح لناظرنا شبح رجل ساجد بين الاعشاب • فلما اقتربنا منه الفيناه فى الرمق الأخير ، فأسعفناه بجرع صغيرة من الماء ، ثم عصرنا له التمر بالماء وسقيناه من العصير جرعاً صغيرة • فتفتحت عيناه وحاول الاعتدال فى جلسته فأعنّاه ، وأومأ بيده يطلب المزيد فأعطيناه شيئاً قليلاً • وتحسنت حاله بعد حين ، ولكنه لم يكن قادراً على النطق بعد ، فرأينا أن نحمله معنا الى من نصادف فى طريقنا من أهل البادية • وأركبناه ناقة ، فاعتدل على ظهرها ببعض النشاط وأمسك بزمامها ، ثم طلب تمراً فأعطيناه • وبعد أن أكل بضع تمرات سقط من ظهر الناقة ميتاً لا حراك به • وأريناه التراب واستأنفت القافلة سيرها المعتاد • ورحت أعجب من أمر هذا الرجل الذى كتب له أن يبقى حياً حتى يستوفى رزقه من الماء والتمر قبل أن يموت • وبعد مسير يوم كامل لقينا بعض الاعراب فاذا بهم أهله ، وقالوا انه فقد من القافلة قبل خمسة عشر يوماً • وحين بلغهم نبأ موته لم يبكوا ولم يولولوا ،

فتلك سنة الصحراء •• والموت لابد مصيب كل من يضل سبيله • أما أنا فقد عاودنى التفكير فيه •• كيف عاش الرجل خمسة عشر يوماً فى ذلك المكان ؟ لابد أنه كان يقتات على الاعشاب ويشرب من مياه الامطار • ترى كم قاسى من الآلام : الجوع ، والعطش ، والوحدة القاتلة ، والأمل المفقود ••

مع ابن الرشيد

فى صباح اليوم الرابع عشر بعد مغادرتنا عنيزة لاحت لنا فى الأفق البعيد نقاط بيضاء يتخللها السراب ، حتى ليتوهم الناظر انه مخطىء فيما يرى • ولكن ها هى ذى النقاط تكبر شيئاً فشيئاً •• انها بلا شك خيام ابن الرشيد • اذن فقد وصلنا أخيراً •• يا للفرحة الكبرى • ها هى ذى الآمال تتحقق ، وسيساعد على تحقيقها خلود الامير الى الراحة وتفرغه الى أمور الرعية بالاضافة الى أمور الجيش المرابط •

كان المعسكر المترامى الاطراف ينبىء ناظره بضخامة جيش ابن الرشيد• وقد قضينا وقتاً ليس باليسير فى طريقنا بين الخيام المتناثرة الى مقر القيادة الواقع فى قلب المعسكر • وهناك جرى استجوابنا من قبل رجال الجيش عن هوياتنا وأغراضنا من القدوم • ثم أنزلنا فى خيمتين هيئت لنا فيهما الافرشة اللازمة • ولما أتى أحد كتاب الامير ليسجل أسماءنا ومقاصدنا أعطيته كتاب البسام • وعاد بعد ساعة وأخبرنى بأن الامير سوف يقابلنى عصر ذلك اليوم •

وفى تمام الساعة الرابعة حضر الكاتب ورافقنى الى خيمة الامير • كان عبدالعزيز الرشيد يجلس مع بعض وزرائه ومقربيه على الارض المكسوة بالسجاد ، وقد اتكأ على شداد ذلول مغطى بجلد الماعز الابيض المسمى (جاعد)• سلمت على الامير فرد السلام مرحباً وأشار الىّ بالجلوس فجلست • وعندما زال الاضطراب الذى أصابنى حين ولجت الخيمة ، تطلعت جيداً فى وجهه فراعنى ما هو عليه من قوة الشخصية •

كان شاباً فى الخامسة والثلاثين ، أسمر الوجه ، ذا هيبة ووقار وعينين قاسيتين ونظرات نفاذة ، معتدل القوام صلب البنية ، تتوسم فيه الاقدام والجرأة

لأول وهلة . اذا جلس وضع السيف فى حجره ، واذا مشى حمله بيده .



الامير عبدالعزيز الرشيد وفخرى باشا القائد العام للجيوش العثمانيــة فى العراق

وبعد أن هنأنى على سلامة الوصول واستوضح عن تفاصيل الحادث الذى وقع لى فى المدرسة أطرق قليلاً ثم قال :ـ

(ابشر بنجاح مطلوبك ان شاء الله ، استرح عندنا يا سليمان لحين ما نتكرب من السماوة ونيتّل[1] لهم باللي تريده) .

---

(١) نبرق .

فشكرته كثيرا • ثم سألني عن الواسطة التي حملتني اليه ، فأخبرته بأنها ذلول مستأجرة فقال : (رخص الذلول يا ولدنا وحنا نعطيك وحدة) •

وأمر باحضار الكاتب المدعو عبدالله الحمود ، فأوصاه بانزالي في خيمة مناسبة مع من أشاء من رفاقي ، وبالعناية بطعامي ، وبتخصص ذلول تكون في امرتي مع رجل يعنى بها • فأستأذنته وانصرفت وانا اكاد اطير من شدة الفرح •

لقد تبدلت الحياة في نظري بعد تلك المقابلة من العتمة الى الاشراق ، وشعرت كأن كابوسا ثقيلا قد أزيح عن كاهلي •

وفي اليوم التالي ودعني صاحب الذلول بعد ان زوده مأمور التموين بما يكفيه من السمن والدقيق والرز •

كان ركب الأمير يسير أربع ساعات كل يوم • وكان منظر زحف ذلك الجيش اللجب ، الذي يتجاوز مدى البصر شرقا وغربا ، مثيرا في حد ذاته • أما الغبار المتصاعد من حوافر الركائب فكان يرتفع الى عنان السماء ، وكنت تسمع صوتا ، كدوي النحل لا ينقطع ، ما هو الا مزيج من أوامر القادة وأحاديث الرجال وحديهم وصهيل الخيل ورغاء الابل •

وفي الليلة الثالثة جاءني الكاتب عبدالله الحمود وطلب مني مرافقته الى مقر الأمير • وجدت الأمير جالسا في العراء مع بعض وزرائه ، وبيده ثلاث برقيات مطولة تعسر على كتّابه قراءتها ، اذ كانت مكتوبة بخط رديء ، وطلب مني قراءتها • كانت احداها من تحسين بك رئيس ديوان السلطان ، والثانية من وزير الحربية ، والثالثة من احمد فيضي باشا مشير بغداد • فلما أمعنت فيها النظر انجلت لي معمياتها ، فنال ذلك من الأمير غاية الاستحسان ، وعرض عليّ البقاء في معيته ، فشكرته واعتذرت واستأذنته بالانصراف •

وفي يوم ١٦ محرم عام ١٣٢٢ ـ ٣ نيسان عام ١٩٠٤ قابلت الأمير ، وكنا قد اقتربنا من السماوة ، فأطلعته على رغبتي في السفر اليها على جناح السرعة لارسال البرقية العتيدة ، فاستصوب رأيي وأمر بحضور أحد كتابه ، فلما حضر أملى عليه نص البرقية التالية :

(باش كتابة ما بين همايون تحسين بك • استانبول

ادام الله وجود افندينا المعظم سليمان فيضى الموصلى كان بمكتب بغداد صنف ثالث اعدادى عسكرى واخرجوه من المكتب ونظامـا الذى يخرجوه من المكتب يعملوه عسكر زجرى والمذكور طب علينا وترجا منا تعريفكم برفع الزجري عنه وتعملون له معاش ودمتم سـالمين •

٢٢ مارت سنة ١٣٢٠ رومى عبدالعزيز الرشيد)

ثم ختمها وناولنى اياها وقال :ـ

لا أقصد من تسليم البرقية اليك معنى الايذان بالسفر ، انما انت مخير بالبقاء معنا ريثما يرد الجواب • فلما رجحت السفر الى البصرة ، أشار عليّ بمراجعة معتمده فيها خالد باشا العون شيخ الزبير للاستفسار منه عن جواب البرقية عند ورودها • فشكرته وانصرفت •

كان هذا آخر عهدى بالأمير عبدالعزيز الرشـيد • اذ لم تسـمح لى الظروف بملاقاته ثانية كما سيأتى ذكره فى الفصل التالى • لقد قال المؤرخون عنه أشياء كثيرة ، ورأوا فيه آراء شتى • اما انا فقد رويت قصتى معه بأمانة ، تلك القصة التى تؤكد شهامة الرجل وكرمه •

العـــودة الى العـــراق

أخذت مكانى على ظهر الذلول وشمس اليوم التالى لم تبزغ بعد • ووليت وجهى شـطر السماوة ، ورحت أتسلى بالحديث مع الرجلين اللذين ارسلهما الأمير لمرافقتى الى هناك • كان ذلك فى صباح يوم ١٧ محرم سنة ١٣٢٤ هـ المصادف يوم ٤ نيسان ١٩٠٤ م • وصلنا السماوة بعـد يومين كاملين ، فأذنت للرجلين بالعودة ، وزودتهما بكتاب شكر للأمير • وأسرعت الى دائرة البرق فأرسلت البرقية • ولبثت فى المدينة يومين ريثما تهيأت لى سفينة شراعية ميممة شطر البصرة • فانحدرت بنا المهيلة[1] منسابة بين الأهوار المكتظة بالقصب

(١) اسم يطلقه أهل الجنوب على السفينة الشراعية •

والبردى . وكانت اذا عاكستنا الريح نزل الملاحون الى البر وجروها بالحبال .
كنت أرقب القرى المتناثرة فى عرض الهور ، وأكواخها المشيدة بالقصب والبوارى ، حيث يحيا الانسان والبهائم حياة واحدة تحت سقف واحد . وكانت الزوارق المطلية بالقار (المشاحيف) تقوم بين القرى مقام القطر والسيارات ... وكانت تلذ لي مراقبة المعدان[١] فى صيدهم بالفالة[٢] التى قلما تخطىء سمكة مهما ضأل حجمها .

استغرقت الرحلة أحد عشر يوما ، فوصلت البصرة متعبا . وفور وصولى قابلت الشيخ خالد باشا العون شيخ الزبير ورويت له الحكاية وبلغته توصية الأمير فوعدنى باعلامى بالنتيجة حال وصولها .

لبثت فى البصرة ستة أشهر وجواب البرقية لم يصل بعد .. يا له من انتظار شاق . وكنت أقيم كل هذه المدة فى دار الحاج طه چلبى الموصلى ، وأعمل مترجما بالوكالة فى القنصلية الايرانية نظرا لالمامى بالفارسية واتقانى التركية . ولم استحسن مراجعة خالد باشا لعلمى بالظرف العصيب الذى يحيط بالأمير ابن الرشيد وبالحروب الطاحنة التى كانت تدور رحاها آنذاك مما يشغله عن برقيتى . وصادف يوماً أن قدم البصرة الشيخ سليمان الرشيد ، رفيقى فى معسكر ابن الرشيد ، فبشرنى بورود جواب البرقية ، وقال انه بعد حوالى العشرة أيام على مغادرتى المعسكر ، وبينما كان هو جالسا فى مجلس الأمير ، اذ وردت عدة برقيات كان مضمون احداها أن (افدينا السلطان أطال الله عمره) .. قد استثنانى من الخدمة العسكرية وخصص لى راتبا شهريا قدره ثلاث ليرات .

سرتنى هذه البشرى كثيرا ، وشعرت بالاطمئنان بعد طول قلق . وأصبح من الضرورى أن أضع الأسس لمستقبلى بعد كل ذلك التبلبل . وكانت الخطوة الاولى هى الحصول على صورة خطية للأمر الاستثنائى . لذا سافرت

---

(١) سكان الاهوار .

(٢) قصبة ذات اسنان حديد .

الى بغداد ، وبذلت فيها جهودا مضنية لم أفز منها بطائل ، بسبب اشغال المشيرية بأمر الحرب فى نجد • فعوّلت على السفر الى السماوة ثانية ، لعلى أوفق للحصول على صورة البرقية الجوابية • وفعلا سافرت ، ولكن جهودى فيها ذهبت أدراج الرياح ؛ فقد اعتبرت دائرة البرق هناك جميع المراسلات بين ابن الرشيد واستانبول اسرارا حربية لا يسمح بالاطلاع عليها • الا أن احد الموظفين العاملين فى الدائرة المذكورة قال انه يذكر ورود برقية بهذا المعنى •

عدت الى البصرة وفضلت التريث • ثم أعدت الكرة ثانية بعد شهرين ، وشددت الرحال الى بغداد فحالفنى التوفيق هذه المرة • وقرأ علىّ احد موظفى دائرة الأركان ، المدعو محمد افندى ممش اغا ، الشرح التالى الذى وجده على هامش عريضتى :

«بناء على التذكرة الواردة الى وزارة الحربية – سر عسكر – من رئاسة كتابة المابين الهمايونى المتضمنة صدور الارادة السنية ذات الشرف الاسمى من لدن مقام الخلافة العظمى المتقضى بموجب منطوقها المنيف استثناء سليمان فيضى الموصلى – المتخرج من الصنف الثالث من المكتب الاعدادى العسكرى فى بغداد – من العسكرية • فقد وردت من الوزارة المشار اليها الى مقام المشيرية برقية بتاريخ ٨ نيسان سنة ١٣٢٠ رومى الموافق ليوم ٣ صفر ١٣٢٢ هجرى ويوم ٢٠ نيسان ١٩٠٤ ميلادى تنبىء بتنفيذ مقتضى الارادة السنية المنوه بها واعلام الوزارة بقيد قرعته وكنيته • ولدى السؤال من المكتب الاعدادى المذكور ورد الجواب بتفصيل كنيته المستخرجة من سجلاتها • ولما كان المرقوم من مواليد سنة ١٣٠٤ رومى لذا أجل تجنيده • وقد اخبر مقام المشيرية الوزارة المشار اليها بذلك برقيا فى ١٧ مايس سنة ١٣٢٠ رومى واستنادا الى بيان دائرة الأركان الحربية صدر الأمر الى شعبة التجنيد بتدوين شرح الاستثناء على قيد المرقوم» •

ولأول مرة منذ سنة التفت ورائي فلم أجد أثرا لشبح الزجرى ••• فتنفست الصعداء وحمدت الله على حسن المآل ••• أما الراتب فلست بسائل عنه •

الغاء قرار الفصل

بعد أن حدث الانقلاب المشهور فى البلاد العثمانية ، ودخل الجيش استانبول معلنا الدستور الجديد الذى ارغم السلطان عبدالحميد على تنفيذه فى العاشر من تموز عام ١٣٢٤ رومى ، أدرك الزملاء الذين سبق أن فصلوا معى من المدرسة العسكرية ، أدركوا ان الفرصة قد واتتهم لنقض قرار الفصل بفضل تبدل السياسة العليا فى استانبول • فتقدم مولود مخلص بعريضة الى وزارة الحربية يتظلم فيها من القرار المجحف ويطلب رفع الحيف عنه وعن زملائه السبعة • وفعلا أعيد النظر فى القضية من قبل مجلس عسكرى برئاسة وزير الحربية على ضوء ما جاء فى الاضبارة من الوقائع • فلما ظهر للمجلس تفاهة الحادث ، أصدر حكمه بالغاء قرار الفصل ، وباعطاء الخيار للمستدعى ورفاقه باكمال دراستهم فى المدرسة الحربية ، على أن يعوضوا عن تأخيرهم هذا بمنحهم حق القدم عند التخرج • وهكذا التحق مولود مخلص بالمدرسة الحربية • وبعد اكماله الدراسة عيّن بنفس الرتبة التى وصل اليها زملاؤه من غير المفصولين فى الاعدادية العسكرية •

ويوم علمت بنبأ القرار المذكور ، كان آخر خيط يربطنى بالعسكرية والجيش قد انقطع منذ أمد بعيد • فمهنة المحاماة كانت تدر عليّ أرباحا طيبة ، كما اننى كنت أصدر جريدة (الايقاظ) ، وأدير مدرسة (تذكار الحرية) التى أسستها فى البصرة •

ليسمح لى القارىء الكريم اذا استوقفته عند هذه النقطة ، لأعرج به على موضوع آخر ليس فى صلب مذكراتى وانما على هامش تلك المذكرات • ذلك هو موضوع الدعوة الوهابية والحروب الرهيبة التى أعقبتها • وانى لم أكن لأتطرق الى هذا الموضوع لو لا ان تاريخ نجد الحديث يكاد يكون مبهما

وغامضا لدى الكثيرين ، كما ان القليل من القراء يعرفون عن جغرافيـة نجد معلومات صحيحة ، ويعلمون ان فى الصحراء العربية الكثير من المدن الآهلة بالسكان والقرى الخصبة .

وبعد فلا شك فى أن القارىء الكريم سيجد فى الاطلاع على هذا الفصل بعض المتعة واللذة .

رملُ ودم

أما الرمل فرمل الجزيرة العربية وأما الدم فدم ابنائها .

بقيت الصحراء العربية مسرحا لحروب طاحنة مدة قرن ونصف . ، ولم تكن الحرب لتنهى حتى لتنشب أخرى ، ولم تكن الدموع لتكفكف والجراح لتبرأ حتى تذرف دموع جديدة وتثخن جراح أخرى .

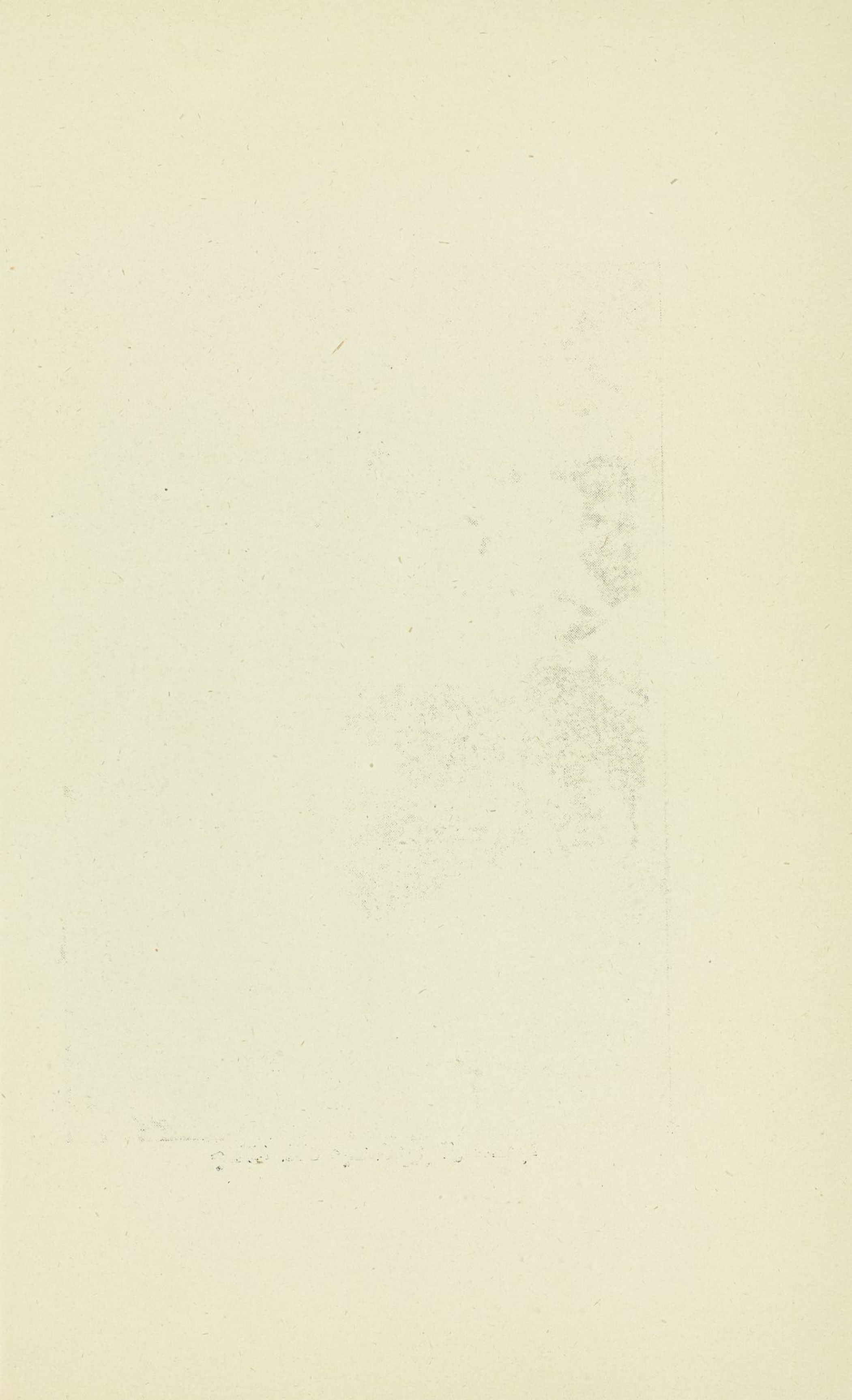
دارت كل تلك الحروب من أجل السيطرة على الجزيرة العربية واخضاع اماراتها . وكان للدسائس التى حاكها الاستعمار ، والرغبة الجامحة لدى بعض الامراء فى الاستئثار بالحكم عن طريق الاغتيالات السياسية ، ولاساليب الحكم البدائية التى اتبعها الحكام المختلفون ، اقول كان لذلك كله آثار بعيدة فى عدم الاستقرار والبلبلة المتمادية فى الوضع السياسى . واستمرت الاحداث الجسيمة فى عنفها مائة وخمسين عاما تبادلت خلالها العوائل القوية الحكم مرات عديدة .

الدعـوة الوهابيـة

كانت نجد منقسمة الى امارات صغيرة تتمتع كل منها بقسط من الاستقلال الداخلى وتخضع كلها اسميا للامبراطورية العثمانية . وكان أبرز هذه الامارات واحة الدرعية ونواحيها وقد كانت تحت حكم آل سعود ، والرياض تحت حكم آل دواس ، وبريدة وقراها تحت أمرة آل مهنا ، وعنيزة وملحقاتها بأمرة آل سليم ، والاحساء تحت حكم آل خالد . وتكاد تكون امارة الدرعية أكثر هذه الامارات سكانا ومساحة ، ويكاد يكون أميرها آنذاك محمد السعود أكثر أمراء البادية المعاصرين له حزما وعزما وأوسعهم اطماعا وآمالا . فلا غرو أن يحدو به طموحه الى غزو الامارات الاخرى وتوحيد البلاد العربية فى دولة قوية تتنكر للسلطنة العثمانية وتنفض عنها رداء الخنوع الذى أخنى عليها الدهر به منذ قرون . فأخذ يعد العدة لهذا الغزو سرا . وصادف ان جاءه ذات يوم الامام محمد بن عبدالوهاب صاحب الدعوة الوهابية مستجيرا من اضطهاد أهل (حريملة) ، مسقط رأسه ، بسبب اعلانه لمبادئه الدينية . فرحب به محمد السعود وأكرم مثواه ، ولم يلبث أن اعتنق مبدأه ، وتعاهدا على بث



جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود



الدعوة بكل ما أوتيا من قوة ... محمد بن عبدالوهاب بنفوذه الدينى ، ومحمد ابن السعود بجيشه وخيله .

اشعل محمد السعود نار الحرب ، فزحفت جموع الوهابيين المتحمسين بقلوب مستميتة وهمم عالية ، ودحروا المدافعين عن المدن والقرى . فانهارت أمامهم مقاومة الامراء الواحد تلو الآخر ، حتى انبسط حكم آل سعود على نجد بكاملها . وانتشرت الدعوة الوهابية بين الاعراب ، فلاقت هوى فى نفوسهم لما كانت تبشر من زهد وتقشف يلائمان طباعهم وأسلوب حياتهم .

ولما بلغ السلطنة العثمانية نبأ هذه الانتصارات أوجست خيفة وخامرتها الهواجس من أن يتفق محمد السعود مع أمير الحجاز فينازع السلطان العثمانى الخلافة . فأصدر السلطان محمود أمره الى سليمان باشا الكبير والى بغداد بتجهيز حملة كبيرة من الجيش والقبائل لمحاربة ابن السعود وتحطيم قواته . نظم سليمان باشا الحملة ، وقادها بنفسه الى نجد ، وهناك التقى بجيش محمد السعود . وبعد معارك دامية اندحر الوهابيون ، فراح سليمان باشا يتعقب فلولهم حتى وصل الاحساء ، حيث التجأ اليها ابن السعود وأعوانه وتحصن فيها . طال الحصار واستمات المدافعون فى القتال ، بينما نفدت ذخائر جيش سليمان باشا وسأم جنوده الانتظار ، فعاد أدراجه الى بغداد . واستغل محمد السعود هذا الانسحاب ، فأسرع بجمع جيوشه وتوجه بها الى العراق واحتل كربلاء ، فخرج اليه سليمان باشا لملاقاته بجيشه النظامى وبعض القبائل العراقية ، ولكن الغلبة هذه المرة كانت لابن السعود ، وتراجع الجيش الى بغداد . ولم يشأ ابن السعود أن يندفع نحو قلب العراق بل فضل العودة الى نجد .

بعد عودة محمد السعود الى نجد استتب له الأمر وخشيت الامارات المجاورة سطوته . وحدث فى تلك الآونة ان اختلف الشريف غالب وأخوه الشريف عبدالمعين على امارة الحجاز ، فاستعان الشريف غالب بمحمد السعود على أخيه . وسار ابن السعود على رأس جيشه فاحتل مكة المكرمة ، ثم المدينة

المنورة ، ونصب الشريف غالباً أميرا على الحجاز ، بينما لاذ الشريف عبدالمعين بالفرار .

وباحتلال الحجاز دانت الجزيرة العربية لابن السعود . وهنا تساءل السلطان : أين ستقف اطماع محمد السعود .. ؟ . بقى هذا السؤال يقض مضجعه ، واعتقد ان مخاوفه وهواجسه ستحقق لا محالة اذا استمر هذا الفاتح العربى فى غزواته الموفقة . فأعمل الفكر وشاور أعوانه ووزراءه وخرج بالحل ... وكان لعمرى حلا صائبا ..

لا يفل الحديد الا الحديد

يوم كانت الدعوة الوهابية فى عنفوانها ، والفتوحات السعودية فى شدتها ، لم تكن هذه الدعوة لتقلق السلطان وحده ، بل شاركه قلقه محمد على باشا الكبير حاكم مصر يومذاك . فمحمد على كان يحلم هو الآخر بتوسيع رقعة سلطانه . فلا بدع فى أن تتعارض الفتوحات الوهابية مع رغباته . وكان السلطان فى ذات الوقت يرقب استفحال أمر محمد على فى مصر ويتمنى لو استطاع أن يقضى على هذين الخطرين اللذين يهددان ملكه ، ابن السعود .. ومحمد على . فرأى أن يحرض محمد على باشا على مقاتلة ابن السعود ، ويكون بهذا قد قضى على احد الخصمين وأضعف الآخر . تلقى محمد على أمر السلطان بسرور وارتياح ، وجهز حملة عظيمة سارت الى نجد بقيادة ابنه ابراهيم باشا . وقبل أن تغادر هذه الحملة أرض مصر ، جاءت الاخبار من نجد تنبىء باغتيال الامير محمد السعود أثناء الصلاة على يد رجل فارسى . فخلفه ابنه الأمير سعود ، وأقسم أن لا يتوانى عن تنفيذ خطة أبيه فى الفتح ونشر الدعوة الوهابية . وعقد النية على أن يبدأ هذه المرة بغزو العراق .. وما كاد يفعل حتى بلغه خبر وصول الحملة المصرية الى ينبع ، فأسرع بتوجيه جيشه نحو الشمال ، ولاقى المصريين فى الحجاز . وبدأت سلسلة من المعارك الدامية انسحب على أثرها الوهابيون الى نجد واستأنفوا الدفاع عنها . وفى تلك الاثناء وافت المنية الأمير سعود ، فخلفه الأمير عبدالله ، وقاد

السعوديين ببسالة • وجرت فى بقاع نجد أهول المعارك ، انتصر فيها المصريون فتم لهم احتلال الحجاز ونجد بكاملها ، ووقع الأمير عبدالله وأفراد أسرة آل السعود أسرى بيد المصريين •

جاءت أوامر السلطان تقضى باعدام عبدالله السعود ، وبسجن أفراد الأسرة السعودية وعوائلهم سجنا مؤبدا • وأمام حشد من الناس فى أحد ميادين استانبول تدلت جثة الأمير عبدالله السعود بحبل المشنقة ، بينما قضى أفراد الأسرة نحبهم فى سجنهم بمصر • وبأمر من محمد على باشا الكبير أعمل الجنود المصريون الهدم والتخريب فى مدينة الدرعية عاصمة آل السعود ، لاستبسالها فى الدفاع ومقاومتها الرائعة للجيش المصرى ، حتى لم يبق فيها حجر فوق حجر ولا شجرة قائمة •

صفا الجو لأمراء نجد بعد القضاء على آل السعود ، فاستأثر بالحكم فيها عبدالله بن ثنيان ، الذى توهم ان آل سعود لن تقوم لهم قائمة بعد الذى جرى لهم على يد الجيش المصرى • الا أن الانباء سرعان ما وافت بفرار الأمير فيصل بن تركى السعود من معتقله فى مصر • وبين عشية وضحاها دعا فيصل هذا أهل نجد الى النضال من أجل استرجاع المجد المسلوب ، فلبى الناس دعوته ، وسار على رأس جيش كبير لمقاتلة عبدالله بن ثنيان وغلبه • وهكذا عادت نجد ثانية فى قبضة آل سعود كأن الحرب لم تكن •

لقد عاصرت الدعوة الوهابية فتوحات محمد على الكبير الرائعة على يد الجيش المصرى فى فلسطين وسوريا ولبنان • وقد قال الوهابيون انهم انما حاربوا لكى ينقذوا البلاد العربية من نفوذ الاتراك ، ولينقذوا الدين الاسلامى من الشوائب التى أفسدته ، اذن فالدعوة الوهابية كانت تهدف الى اقامة دولة واسعة تشمل الاقطار العربية الخاضعة للنفوذ العثمانى • وبالقضاء عليها قضى على أهم حركة عربية فى التاريخ الحديث •

وقال ابراهيم باشا أن أباه ما حارب وفتح الا ليضم شتات العرب ـ المنكوبين بالاستعمار التركى ـ فى امبراطورية عربية عظيمة ، وانه لو لا تدخل

الدول الاوربية واجباره على سحب الجيوش المصرية من سوريا وفلسطين لشهدنا قيام دولة عربية حديثة موحدة • وبفشل محمد على فى تحقيق اهدافه هذه ، تكون الحركة العربيـة المهمة الثانيـة فى التاريخ الحديث قد قبرت فى مهدهـا •

نجـــد فى ظـل آل رشـــيد

بعد أن استقرت الأمور فى نجد نصب آل سعود حكاماً فى المدن المختلفة حسب العادة الجارية • فعينوا آل رشيد أمراء على جبل شمر ، أى على حائل وملحقاتها وأمراء للحج ؛ وآل مهنا على بريدة ؛ وآل السليم أمراء على عنيزة ، وغيرهم على الامارات الاخرى • واستقامت الصلات الودية مدة طويلة بين آل سعود وعمالهم • الا انه فى سنة ١٢٩٣ هـ ــ ١٨٧٥ م ثار أمراء القصيم على آل سعود فاستقل حسن المهنـا ببريدة ، وزامل السليم بعنيزة ، ومحمد الرشيد بحائل •

كان محمد الرشيد جبارا عادلا ، أحسن السيرة مع الناس وأكرمهم ، ومالأ الدولة العثمانية وأبدى لها الطاعة والاخلاص ، حتى توثقت بينه وبين السلطان عبدالحميد أواصر المودة • فكان ابن الرشيد يقدم الى السلطان الخيول العربية الأصيلة ، والسلطان يغدق عليه الذهب والسلاح ، ويحرضه على العصيان على ابن السعود عدو السلطنة اللدود •

وفى سنة ١٣٠٨ هـ ــ ١٨٩١ م ، فى عهد الامـام عبدالرحمن الفيصل السعود ، زحف محمد الرشيد على رأس جيشـه ، فاستولى على القصيم والرياض والزلفى وغيرهـا ، حتى دانت له جميع نجد ، واضطر الامام الى الالتجاء الى الكويت عام ١٣١٠ هـ ــ ١٨٩٣ م •

ولما توفى محمد الرشيد سنة ١٣١٥ هـ ــ ١٨٩٨ م ، خلفه ابن أخيه الأمير عبدالعزيز متعب الرشيد ، مقتفيا أثر عمه فى مهادنة العثمانيين • وزاد حب السلطان عبدالحميد لآل الرشيد بعد أن رفعوا عنه كابوس آل سعود ،

فأكثر من عطاياه لهم ، وزودهم بما يحتاجون اليه من سلاح ، ورحب بفكرة تعيين معتمد لهم فى استانبول يقوم بمثابة سفير لديه ٠

أما الامام عبدالرحمن السعود ، فأقام فى الكويت مع اولاده ، وخصص له السلطان عبدالحميد راتبا ضئيلا لتأمين معيشته ٠ حدث ذلك فى عهد الشيخ مبارك الصباح أمير الكويت ، الذى كان يضمر لآل الرشيد الشر ، للعداء القديم المستحكم بين آل صباح وآل رشيد ٠

لم يستطع مبارك كتم نقمته طويلا ، فجهز حملة فى عام ١٣١٨ هـ ـ ١٩٠٠ م من اهل الكويت ، وسار بها الى نجد لمقاتلة عبدالعزيز الرشيد ٠ وفى البقعة ما بين الصريفة والطرفية ، تلاقى جيش ابن الصباح بجيش ابن الرشيد فى معركة طاحنة انهزم فيها الشيخ مبارك وذووه تاركين جيشهم بين قتيل وجريح وأسير ٠ فلما أسكرت نشوة الانتصار الأمير عبدالعزيز الرشيد بهزيمة أعدائه ، أمر جيشه بتعقيب فلول الكويتين وأعمال السيف فيهم ، وفى الأسرى والجرحى ، فكانت مجزرة بشرية هائلة استهجنها عقلاء نجد وولدت فى نفوسهم نفرة من آل رشيد ٠

لقد أطفأ عبدالعزيز الرشيد ظمأه الى الدماء بذبح الجيش المغلوب على أمره ، الا انه بذر فى نفوس أهل نجد بذور كرههم ومقتهم له ٠ وسوف نرى عما قريب كيف نمت هذه البذور ٠٠ فاذا بها أشواك تملأ طريق الأمير الظالم ٠

العودة الى الحرب

ضاقت الدنيا ، على رحبها ، بعين الامام عبدالعزيز العبدالرحمن السعود ٠ ورأى ان اقامته فى الكويت ملتجئا مذلة له ، فأزمع على التحرك من سكونه وصمته ٠ وجهز حملة سرية مؤلفة من ذويه ، وأصحابه ، وعبيده ، وسار الى نجد ٠ فدخل الرياض متنكرا فى ليلة ظلماء ، واختفى مع أصحابه فى دار امرأة من اقربائه ٠ حتى اذا ما انبلج الصبح تربص لأمير الرياض فى طريقه الى دار الحكومة وقتله ، ثم أتم احتلال المدينة دون مقاومة تذكر ، وذلك لميل



الأمير عبدالعزيز السعود والشيخ مبارك الصباح ـ الكويت عام ١٩٠٩

اهلها الى آل سعود ومقتهم لآل رشيد ، فالتفوا حوله وعقدوا لنصرته الخناصر • وكان اول ما عمله بناء سور متين للرياض يقيها غارات الأعداء • وجاءته من الشيخ مبارك بعض المساعدات المالية ، فتحصن داخل الأسوار ، واستعد لصد العدوان المنتظر • حدث ذلك فى عام ١٣١٩ هـ ـ ١٩٠١ م • ووقعت الغارة المنتظرة ، اذ أحاط جيش عبدالعزيز الرشيد بالرياض وراح يهاجمها بقوة • فدافع الامام وأعوانه دفاعا رائعا عن المدينة من خلف أسوارها المنيعة ، حتى ارتد جيش ابن الرشيد خاسرا ، تاركا اشلاء القتلى مكدسة تحت أسوار المدينة العتيدة •

ثارت ثائرة ابن الرشيد لهذا الفشل ، وتجسم له الخطر الكامن وراء أسوار الرياض ، فالتجأ الى السلطان عبدالحميد مستنجدا به • وسرعان ما أجاب السلطان طلبه ، ووعده بارسال حملة كبيرة للقضاء على العدو المشترك • أوعز ابن الرشيد الى حكام المدن والقرى بالاستعداد للحرب ، وما العرضات التى

شهدتها فى عنيزة وقراها الا من مظاهر هذا الاستعداد • ولما كانت المخابرات تجرى بين نجد واستانبول بالمراسلة البريدية ، مما يؤخر قدوم النجدة ، توجه عبدالعزيز الرشيد بجيشه الى قرب السماوة ، كما سبق ذكره فى الفصل السابق ، ليتسنى له الاتصال البرقى بالسلطان • وبغيابه عن نجد سنحت الفرصة لابن السعود باحتلال مدنها وقراها من دون كبير عناء • حتى انه أتم احتلال البلاد كلها ، باستثناء حائل ، والنجدة العثمانية لما تأت بعد •

وفى مايس عام ١٩٠٤ م وصلت الى السماوة الحملة العثمانية بقيادة الحاج شكرى بك • وهى تتألف من أربعة أفواج بكامل عدتها ترافقها بطرية من مدافع الصحراء • وكان الطابور (الفوج) يتراوح بين الثمانمائة والالف رجل ، جلهم من أبناء العراق ، فاستقبلهم ابن الرشيد استقبالا حافلا •

استأنفت هذه الطوابير تقدمها داخل نجد ، بصحبة جيش ابن الرشيد ، على الجمال التى كان قد هيأها لهذا الغرض • وكان جيش ابن السعود متهيئا لنزالها •• فالتحم الفريقان فى اليوم التاسع من شهر تموز عام ١٩٠٤ ، واحتدم القتال من طلوع الشمس حتى غروبها ، فأسفر عن مقتل القائد شكرى بك واثنين من أمراء افواجه ، ونفاد عتاد بعض المدافع ، وتشتت الجيش العثمانى • وقد زاد الطين بلة تدخل ابن الرشيد فى قيادة الجيش تدخلا أرتجاليا أفقده ما تبقى له من الضبط والانتظام •

تفرقت فلول الجيش المنهزم فى الصحراء تبحث عن سبيل للنجاة ، ولما نفدت مؤونتهم أكلوا بذور الحنظل ، ولحوم الدواب الميتة ، وفتك الموت بهم فتكا ذريعا •

وان أنس لا أنس يوم وصلت هذه الفلول مدينة البصرة ، فى حالة يرثى لها من الجوع والعرى والمرض • لقد عم الحزن البصرة يومذاك ، وأبدى اهلها فى مؤاساتهم أبلغ الكرم •

حنق ابن الرشيد لهذه الخيبة ، وراح يؤكد للسلطان ضرورة ارسال حملة كبيرة أخرى • فأمر السلطان بتجهيز حملة كبيرة بقيادة المشير احمد

فيضى باشا الذى ورد ذكره فى الفصل السابق • وتألفت الحملة هذه المرة من ثمانية أفواج مشاة ، وبطريتين من المدفعية ، وسرية خيالة تقدمتها فرقة موسيقية كبيرة • لقد كانت الحملة كبيرة حقا ••• الا ان احدا من ضباطها وجنودها لم يكن ليرحب بالاشتراك فى حرب لا ناقة له فيها ولا جمل •• وحتى المشير أحمد فيضى باشا نفسه ، لم يكن متحمسا لهذه الحرب ، بل انه على العكس ، حاول مرارا أن يثنى السلطان عن عزمه بذكر المصاعب التى ستعترض سبيله : من نفاد المؤونة ، وقلة الماء ، وبعد خط المواصلات ، وضعف عزائم الجيش العثمانى • ولكن السلطان لم يكن ليصغى لنصائحه ، بل أصر على استمرار الحملة فى زحفها • فلما وصل الجيش قرب القصيم نفدت معظم مؤونته ، فاضطر المشير الى تخفيض ارزاق الجنود الى النصف ، مما أثار حنق الجنود وسخطهم على ابن الرشيد الذى اعتبروه المسبب لهذه المتاعب •

وفى المقابلة الوحيدة التى جرت بين ابن الرشيد والمشير فيضى باشا ، نصحه الثانى بالحذر من الجنود وعدم الاقتراب منهم لأنهم ناقمون عليه • فوضح لابن الرشيد عدم رغبة الجيش العثمانى فى التعاون معه ، وغدا الانسجام بين الجيشين مستحيلا • فسار الجيش العثمانى بمفرده الى عنيزة ، واحتلها دون مقاومة ، ورفع الراية العثمانية على قلعتها ونصب أميرها قائممقاما • ثم تقدم الى بريدة ، واحتلها بنفس السهولة • ثم أبرق المشير الى السلطان ينبئه باحتلال القصيم ، ويقترح عودة الجيش الى العراق • فكان جواب السلطان أن نقله الى اليمن ، فغادر نجد تاركا القيادة الى صدقى باشا •

وفى هذه الفترة اصاب الجيش العثمانى من المصائب والمحن ما أصاب الحملة السابقة •

وصل القائد الجديد سامى باشا العمرى والفى الوضع السىء الذى صار اليه الجيش ، فأصدر أوامره بمنتهى الجرأة الى الافواج العراقية بالعودة الى العراق ، تحت قيادة مظهر بك ؟ واستصحب معه الافواج السورية الى المدينة المنورة • ولما كان النقل فى البادية متعسرا بدون الجمال ، طلب المعونة من ابن

السعود لمده بما يلزم من الابل ، فأجاب هـذا طلبـه • وهكذا غادر الجيش العثمانى البلاد النجدية •• فكان ايذانا بتخلى العثمانيين عن حليفهم ابن الرشيد •

تأثر ابن الرشيد غاية التأثر لهذه الطعنة ، والتفت يمنة وشمالاً ، فالفى نفسه وحيدا بعد أن تخلى عنه حلفاؤه • واندفع اهل نجد فى التطوع بجيش الامام ابن السعود تشفيا من ابن الرشيد ، الذى أبدى فى أكثر من مناسـبة الظلم والقساوة ، فأدرك هذا ان الساعة قد دنت ليطلق آخر سهم فى كنانته •

النصر الحاسـم

فى ليلة ١٩ صفر ١٣٢٤ هـ ـ ١٩٠٦ م ، وفى الارض المسماة (روضة مهنا) الواقعـة بالقرب من قرية (البكيرية) ، التحم جيش ابن السعود وجيش ابن الرشيد فى معركة طاحنة لم تشهد لها الصحراء مثيلا منذ قرون • واستبسل الفريقان فى الكر والفر ، لعلم كل منهما بانهـا المعركة الحاسمة التى ستقرر مصير نجد بأكملهـا •

ورجحت كفة السعوديين ، وتضعضع جيش ابن الرشيد ، فاقتحم الفرسان السعوديون صفوف العدو ، وألقى الامير عبدالعزيز بن الرشـيد نفسه بين كوكبة من الفرسان المهاجمين ، فدافع دفاع الابطال حتى استشهد ، وحلت الهزيمة بجيشه فتشتت شمله •

عندما أطلت الشمس بنورها كان كل شىء هادئاً فى الصحراء العربية : جثث مضرجة تكسو وجه البسيطة ، ورمال امتزجت بالدماء •• فأرتوت منها بعد طول ظمأ •• ولم يكن ليعكر صفو السكون غير أنين الجرحى الخافت •

أسلفنا ان حائل كانت توالى آل رشيد فى حروبهم وتواسيهم فى محنهم • فحين التجأ اليها أبناء عبدالعزيز الرشيد الكبار : متعب ، ومشعل ، ومحمد ، مع بعض ذويهم آوتهم عن طيب خاطر ، وتولى متعب امارة حائل وتوابعها • ولكن المتاعب ظلت تلاحق آل الرشـيد ابدا • فقد كانت المؤامرات تحاك فى السر للفتك بهم ، وكان المتآمرون هم ابناء خالهم حمود العبيد السبهان وهم :

سلطان ، وفيصل ، وسعود ، واخوانهم ، وضارى الفهيد • وفى اليوم الثانى عشر من ذى القعدة عام ١٣٢٤ هـ المصادف للثالث من كانون الثانى سنة ١٩٠٧ م ، دعا المتآمرون الامير متعب الرشيد وأخاه مشعل ووزيره طلال النايف الى نزهة صيد ، فلما انفردوا بهم فى الصحراء قتلوهم غيلة • فلما صار الحكم بأيديهم نصبوا سعود بن حمود اميرا على حائل • ولبثوا يتربصون لثالث أبناء عبدالعزيز الرشيد محمد ، حتى قتلوه بعد شهرين •

لم يبق من أبناء عبدالعزيز الرشيد غير سعود ، وهو صبى فى الثامنة من عمره • فخاف عليه خالاه حمود العبيد السبهان ، الذى كان حانقا على تصرفات اولاده ، وزامل العبيد السبهان من غدر اولئك السفاكين ، فأخرجاه وأمه من حائل خلسة وأوصلاهما الى المدينة المنورة •

أثارت هذه الجرائم المنكرة غضب أهل حائل ، وودوا لو استطاعوا وضع حد لهذه المجزرة • فكاتبوا بعض شيوخ شمر الذين تربطهم بآل رشيد صلة العمومة ، وحرضوهم على الثأر للدم المسفوك ، فقدمت جمهرة منهم الى حائل ، عاضدها أهل المدينة على الامير الغاصب ، فألقوا به فى السجن •

وهناك فى المدينة المنورة ترعرع سعود العبدالعزيز الرشيد وترعرع معه الظمأ الى الانتقام لاخوانه • فعاد الى حائل فى أواخر سنة ١٩٢٥ هـ - ١٩٠٨ م ودخلها بمعونة شيوخ شمر • وكان اول عمل قام به الأمر بقتل سعود الحمود ، فلقى هذا حتفه بضربة لازب •• وعلى الباغى تدور الدوائر •••

هذا ما كان من أمر آل رشيد بعد خذلانهم • اما آل سعود ، فقد استقامت لهم الامور ، وهيمنوا على نجد والاحساء ، ثم على الحجاز وعسير ، واستمر حكمهم فيها حتى اليوم كما يعلم الجميع • وقد تولى الملك بعد أبيه الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن السعود أمد الله بحياته •

في عهد السلطان عبد الحميد

٤٤

مهنـــــــة حرة

انتهينا فى الفصل الأول الى اشتغالى فى القنصلية الايرانيـة فى البصرة مترجما بالوكالة . وقد أفدت منها الشيء الكثير باطلاعى على معاملات الدولة الرسمية ومكاتباتها ، وبتعرفى على كثير من الموظفين المحليين . وبالتحاق المترجم الأصيل بدائرته انفككت انا عنها ، ورأيت ان اعمل فى بعض دوائر الولاية لمجرد اكتساب الخبرة فى شؤون الادارة والمحـاكم . فداومت اياما فى قلم محكمة الجزاء ، وفى قلم محكمة الحقوق ، ثم فى قلم المدعى العام ، وأبديت من النشاط ما أثار اعجاب رؤسائى ، فعرض عليّ رئيس كتاب محكمة التجارة معاونته فى اشغاله فلم أرفض . وبعد ايام قلائل فزت بثقة رئيس المحكمة ، فصار يعتمد عليّ فى الامور الدقيقـة ، والتى تحتـاج الى معرفة جيـدة باللغة التركية ، وكافأنى على خدماتى بأن حصر الوكالات المسخرة عن الغائبين فى عهدتى بعد ان كانت توزع على المحامين ، فأصبح ذلك لى موردا لا بأس به . والتف حولى المحامون من الذين يجهلون التركية أترجم لوائحهم الاستئنافية والتمييزية ، فكان هذا موردا آخرا .

ومنذ ذلك الحين نشأت لديّ الرغبة فى درس القوانين وشروحها تمهيدا لمزاولة مهنة المحاماة ، اذ كان تعاطى هـذه المهنـة فى العراق وسـوريا حرا لا يحتاج الى شهادة مدرسية . فجمعت القوانين الحقوقية والجزائية وغيرها ، وانكببت على دراستها ليل نهار ، وكنت أستعين بالقدامي من المحامين والحكام لشرح ما يتعسر عليّ فهمه . وكان أكثرهم تحمسا لمساعدتى فى هذا المضمار المغفور له ناجى السـويدى الذى كان رئيسـا لمحكمة التجـارة فى البـصـرة عـام ١٩٠٨ م .

وفى عام ١٩٠٥ م عرض عليّ السيد احمد الاوقاتى الاشتراك معه فى المحاماة على أن تكون حصتى ثلث الايراد فوافقت . ولم يكن السيد احمد يتقن التركيـة ، فاستفاد من مشاركتي كثيرا ، وأصبحت حصتي فى نهاية سنة ١٩٠٦ م النصف . وفى عام ١٩٠٧ م فسخنا هـذه الشركة ، رغبة منى

فى الاشتغال بمفردى • وصادف أن طرأ هبوط فاحش فى اسعار الاموال المستوردة فى سنتى ١٩٠٦ و١٩٠٧ ، مما أدى الى اشهار افلاس عدد غير قليل من التجار ، ولما كانت امانتى فى العمل قد اشتهرت فى الاوساط التجارية ، انتخبنى الدائنون سنديكا فى أكثر المعاملات الافلاسية ، وبهذا رسخت قدماي فى مهنتى الجديدة • وكنت بين حين وآخر أشعر بحاجة الى اتقان قواعد اللغة العربية اذ كنت ، كسائر أبناء جيلى ، اجهل من هذه القواعد حتى اولياتها ، لانها لم تكن لتدرس فى المدارس الحكومية آنذاك • فبادرت الى دراستها على العالم الفاضل المرحوم السيد عبدالعزيز التكريتى الناصرى فى المدرسة الحللية للاوقاف • فكنت أؤم حلقة الدرس قبل طلوع الشمس ، حتى اذا ما آنت ساعة الدوام فى دوائر الحكومة سعيت اليها للقيام بمهام المحاماة • ولبثت على هذا المنوال منذ اوائل عام ١٩٠٦ م حتى اواخر عام ١٩٠٨ حصلت بعدها على شهادة من العالم الجليل •

قد يود القارىء الكريم أن أسرد له وصفا للأوضاع السائدة فى ذلك الزمن • كما انى اعتقد أن اطلاعه على تلك الاوضاع يعينه كثيرا على المطالعة بانسجام تام مع الحوادث التى سيأتى ذكرها فى الفصول القادمة •

الجبار الظالم

ان الله ليمن على بعض الحكام والملوك بالحزم والدهاء والاقدام ، فمنهم من يسخر هذه المواهب لخدمة الصالح العام واعلاء شأن البلاد ، ومنهم من يستغلها لاشباع اطماعه وتحقيق اغراضه الشخصية • وان الله ليفتح باب السلطة والحكم لبعضهم ، فمنهم من يرقى اليها على جماجم الاحرار واشلاء الضحايا ، ومنهم من يدخلها وسواعد الشعب ترفعه وقلوبهم ترعاه •

لقد قال المؤرخون فى السلطان عبدالحميد انه كان من دهاة الملوك ، بل هو أدهى معاصريه • وقد قال فيه الشعب انه ظالم متجبر ، خنق الحريات ، وأزهق الاحرار ، وأنفق مال الدولة على بطانته الفاسقة • لقد عشق الحكم وتمسك بالعرش ، فحكم البلاد حكما فاسدا مدة ثلاث وثلاثين سنة ، ذاقت فيها

الامرين فعمها الخراب ، وقضى المخلصون نحبهم فى أعماق السجون .. والمنافى .. وعلى أعواد المشانق . كان السلطان وحاشيته ينعمون بالترف فى قصور استانبول .. وكان الشعب يرسف فى قيود الذل والعبودية .. أما أصوات الغوث والاستنجاد فلم تكن لتطرق سمع السلطان ، اذ حال بينه وبين المستغيثين ستار منيع من رجال البلاط والجواسيس ، ممن أجزل لهم السلطان العطاء ، وأغدق عليهم من نعمه وآلائه ، وترك حبل الحكم لهم على غاربه .. فحالوا بين الرعية والراعى ، ووسوسوا له بالخوف من مطاليب الأمة ، وارتكبوا باسمه المنكرات والموبقات . وهو رغم كل هذا يريد من الناس أن يقدسوه ويسبحوا بحمده على ما أسبغ عليهم من نقم الجور والاستبداد . حتى ليصح فيهم قول الرصافى :ـ

عجبت لقوم يخضعون لدولة ... يسوسهم بالموبقات عميدها
وأعجب من ذا انهم يرهبونها ... وأموالها منهم ومنهم جنودها

بطانة السلطان

قلت ان السلطان عبدالحميد لم يكن ليعوزه الذكاء والدهاء . وقد أدرك ان ارضاء الشعوب والأقوام المختلفة التى تستظل بالراية العثمانية تدبير حكيم ، وانه فى اليوم الذى تنفض هذه الشعوب عنها سطوة العثمانيين سيكون هلاكه وانهيار عرشه . لذلك حرص على أن يضم الى بطانته وحاشيته عناصر من هذه الشعوب المختلفة جمعاء . وأصبحت المناصب الكبرى مشاعا للجميع بصرف النظر عن القومية والدين . والى القارىء الكريم الامثلة التالية :

الصدر الأعظم ـ (رئيس الوزراء) ـ فريد باشا ـ البانى .
وزير النافعة ـ (الاشغال) ـ نجيب ملحمة باشا ـ عربى مسيحى .
وزير الغابات والمعادن ـ سليم ملحمة باشا ـ عربى مسيحى .
مدير الأمن العام ـ شفيق باشا الكورانى ـ حلبى .
السكرتير الثانى للسلطان ـ عزت باشا العابد ـ شامى .
ناظر الخزينة الخاصة ـ أوخانس باشا ـ أرمنى .

وكان أقرب المقربين الى السلطان الشيخ محمد أبو الهدى افندى الصيادى وهو حلبى • وبهذه المناسبة أود أن أروى قصة الشيخ ابى الهدى الطريفة :ـ

فالشيخ المذكور الرفاعى النسب والرفاعى الطريقة كان أحد مشايخ الطرق المحترمين فى حلب • شد الرحال الى استانبول مع ثلاثة من مريديه ، فلما وصلها اتخذ له مسكنا ، وأعلن عن قيامه بحلقة للذكر وبعض الاعمال الرفاعية فى ليالى الجمع • فاجتمع الناس حوله وراحوا يعجبون للأعمال الخارقة التى يأتيها من لعب بالنار ، وضرب بالسيوف والخناجر • فاشتهر أمره وذاع صيته • ولم تكد ليلة الجمعة التالية تزف حتى كان جل زائريه من العظماء والوزراء ، يتزاحمون لمشاهدة الاعيبه المدهشة • فلما بلغ السلطان أمره رغب فى مشاهدته • وفى حفل عظيم فى القصر السلطانى ، وعلى قرع الطبول ونقر الدفوف ، أتى الشيخ أبو الهدى من الخوارق ما أدهش الحاضرين • فقد ادخل فى اجسام مريديه سيوفا وخناجر من أسلحة رجال القصر ، وأخرجها دون أن تترك أثرا ، ولعب وتلامذته بالصاج الذى استحال جمرا من شدة الحرارة ، وغير ذلك من الحركات المثيرة ، حتى ضج القوم بالتكبير ••• ناسين وجود السلطان بينهم • وهنا اعتقد السلطان ان هذه الاعمال ما هى الا من كرامات الأولياء ، وان الشيخ أبا الهدى لا محالة من أولياء الله الصالحين • فأمر له بقصر فخم ، ولمريديه برواتب ضخمة ، وقربه اليه وصار يستشيره فى فى أموره ومشاكله ، ولم يكن ليرد له طلبا أو رجاء • ومنذ تلك الليلة ودار أبى الهدى منتدى للوزراء والكبراء ، ومحجا لأبناء العرب الذين يقصدون استانبول للدراسة أو لقضاء الحاجات • وقد كان الشيخ ، حقا ، ذا عقل ناضج ودراية ولباقة عظيمتين • دأب على مساعدة الملتجئين اليه من بنى قومه ، وعلى أغداق النعم من رواتب ، وأوسمة ، وألقاب ، ومناصب على الرفاعيين فى سوريا والعراق والبلاد العربية الاخرى • وسارت الامور على هذا المنوال حتى حدوث الانقلاب العثمانى سنة ١٩٠٨ ، اذ ألقى الاتحاديون القبض على الشيخ ، وسجنوه مع من سجنوا من وزراء عبدالحميد الذين لم يستطيعوا الهروب •

٤٨

خنـــق الحـــريات

الحرية ، هذا الاسم الحبيب الى قلوب النـاس ... ذلك السور الذى تحتمى به الأكثرية المغلوبة على أمرها من ظلم الأقلية الغالبة ... وتلك الثروة التى ان ملكها الجائعون أحسوا بالشبع ، وان تدثر بها العراة أحســوا بالدفء ... وذلك الاكســير الذى بدونه تصبح الحياة جحيماً لا يطاق . أقول ان الحرية كانت عدوة السلطان وأعوان السلطان. اسمها محرم لفظه ، وممارســـتها جريمة لا تغتفر ، والحر الأبي فى نظره غول مخيف ، والعبد الذليل فى اعتقـــاده مواطن صالح . فالحريات بأنواعهـــا المختلفـــة لم تــكن لتباح فى ذلك العهد : كحرية الكلام ، وحرية النشر ، والصحافة ، والتأليف ، وحرية العمــل الحــزبى .. الخ .. حتى بلغ بالمسـؤولين التطرف فى كتبهـا ان حرموا ذكر الكلمات التالية لفظا أو تحريرا :ـ



السلطان عبدالحميد خان الثانى

الحرية ، الدستور ، القانون الاساسى ، جمهورية ، خلع ، ثورة ، انصاف ، ظلم ، الخلافة ، استبداد ، الحكم المطلق ، برلمان ، نواب الامة ، سلطة الامة ، العدل أساس الملك ، الظلم مرتعه وخيم، وغير ذلك من الكلمات والتعابير المماثلة .

ومن طريف ما يذكر بهـذا الصـدد ان الاسمـاء التاليـة حرم اطلاقهـا على الاشخاص : سلطان ، خليفة ، عبدالحميد . فمن كان أسمه سلطان وجب

عليه أن يبدل الطاء بالتاء فيدعى سلتان ، ومن كان أسمه عبدالحميد حوره الى حامد أو حميد ، ومن كان اسمه خليفة اضطر الى استبداله باسم آخر .

وكان الخوف من وشايات الجواسيس قد كمّ الافواه ، واضطر الناس الى أن يقولوا بالسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، وان يتقبلوا الجور والارهاب بصبر واستكانة خشية أن يساقوا الى المنافى والسجون . وكانت هناك فئة من الناس اعتادت النفاق والملق ، وتمرغت على اعتاب الحاكمين حبا فى الجاه وتطمينا للمنافع الذاتية ، حتى أصبح هذا النفاق وذلك التمرغ طبيعة متأصلة فى نفوسها ، زاولته حتى بعد انقضاء عهد الاستبداد وفى دور الحكم الوطنى . وقد وردت فى كتاب (عبرة وذكرى) لمؤلفه سليمان البستانى الرواية التالية التى تكشف النقاب عن الاعمال الانتهازية التى يرتكبها بعض من بيدهم مقاليد الأمور .

قيل أن مدحت باشا حين قدم بغداد والياً جمع مجلس الادارة ، واقترح على أعضائه أن يكتبوا الى الباب العالى استئذاناً بزيادة الضرائب للقيام ببعض الاصلاحات . فوافقوه على اقتراحه ، وكتبوا المحضر وختموه بأختامهم . وبعد أيام عاد المجلس الى الاجتماع ، فاذا بمدحت باشا يقول انه وجد الضرائب الحالية ثقيلة على أبناء الشعب ، وانه ليس من الانصاف ارهاقهم بضرائب جديدة ، واقترح أن يكتبوا قراراً آخر يبينون فيه للباب العالى تسرعهم فى اصدار قراراهم الاول . فوافقوه على اقتراحه وختموا المحضر بأختامهم . وهنا اخرج مدحت من جيبه القرار الاول الذي تعمد عدم ارساله ، لعلمه باجحافه ، ومزق القرارين أمام الحاضرين ... ثم القى عليهم درساً فى الكرامة والوطنية !..

أما حرية الصحافة فقد أصابها من الخنق والاضطهاد أوفر نصيب . كانت هناك صحيفة واحدة فى مركز كل ولاية ، يديرها موظف حكومى مسؤول ، تشغل معظم صفحاتها بمديح السلطان والدعاء له . وكانت الصفحات الاولى من هذه الصحف تبدأ بالدعاء الروتينى : (أطال الله عمر مولانا أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين خادم الحرمين الشريفين وخاقان البرين والبحرين السلطان بن السلطان والخاقان بن الخاقان عبدالحميد خان أدام الله عزه وأعز جنده وأسعد عهده ونشر على بلاد الاعداء راية نصره ... الخ).

ولم تكن الحكومة لتمنح امتيازاً لأية صحيفة أخرى مهما كان نوعها • غير انه كانت تصدر فى بيروت جريدة الاقبال لصاحبها عبدالباسط الانسى ، ولعلها كانت الصحيفة الاهلية الوحيدة التى تصدر فى سوريا والعراق • وقد استطاع صاحبها أن يحتفظ بامتيازها بكثرة دعائه للسلطان والاشادة بذكره • أما الجرائد الاجنبية والمصرية فقد حرم دخولها الى العراق وسوريا ، سواء كانت معارضة أم مؤيدة ، وكان عقاب من يطالعها أو يقتنيها السجن أو النفي • وقد حدث مرة للشيخ مبارك الصباح أمير الكويت ، وكان مشتركا فى جريدة « الخلافة » التى يصدرها فى لندن بعض أحرار الترك ، ان كلف معتمده فى البصرة عبدالعزيز السالم البدر بتحويل بدل الاشتراك الى ادارة الجريدة المذكورة بواسطة البريد وتسجيله فى دفتر حسابات الشيخ • وبناء على وشاية جاسوس ، تحرت الحكومة دار السيد عبدالعزيز وعثرت على المخابرات بشأن الاشتراك المذكور ، فأوقفته ، ثم حكمت عليه بالنفى الى دياربكر عشر سنوات • فبذل اصدقاؤه بعض الجهود لابدال المنفى المذكور بغيره • واستغرقت المخابرات بين الولاية والصدارة أربع سنوات قضاها المسكين فى الموقف • ثم حدث أن وصلت فلول الجيش العثمانى الفارة من نجد الى الكويت ، فأبدى أمير الكويت تماهلا فى تجهيزها بالمؤونة ، فكان لابد للحكومة العثمانية من اقناع الأمير بالعدول عن موقفه هذا • حينئذ نسب والى البصرة مخلص باشا أن يطلق سراح عبدالعزيز السالم ، لكى يذهب الى الكويت للتأثير على الأمير • فسافر اليها ، وهيأ أسباب سفر الجنود الى البصرة ، ولكنه لم يعد خوفا من نفيه ثانية •• بل بقى فى الكويت حتى اعلان الدستور العثمانى •

هذا ما كان من أمر الصحافة • أما التأليف ، فكان على ندرته محفوفا بالمخاطر • فكانت المؤلفات تعرض قبل طبعها على مجلس المعارف الأعلى ، وويل للمؤلف أو الطابع ان تغير فى الكتاب حرف أو زيدت كلمة ، وويل له اذا أقلل من الدعاء للسلطان والتسبيح بحمده !••

٥١

فقـــــدان الأمن

كان من نتائج سوء الادارة ان فقد الأمن فى ربوع البلاد ، وأصبح اللصوص وقطاع الطرق فى مأمن من العقاب ، يرتكبون جرائمهم فى وضح النهار دون خوف أو وجل • وكانت الحـال فى المدن الكبرى ، مثل بغـداد والموصل ، أهون شرا منها فى النواحى البعيدة ، اذ لم تكن الاعمال اللصوصية فيها لتتعدى السرقات الفردية فى جنح الظلام • ولكنها فى البصرة بلغت حدا خطيرا ، حتى ساد فيها قانوب الغاب ، وأصبح هم الناس أن يحرسوا ممتلكاتهم بأنفسهم ، وأن يدافعوا عن حياتهم بسلاحهم ، كأن لم تكن حكومة وكأن لم يكن قانون • وانى لا أزال أذكر جيدا تلك الحوادث المؤلمة التى كانت تروع سكان المدينة الآمنـة بين حين وآخر • أذكر كيف كان بعض الرجـال المدججين بالسلاح يدخلون السوق الرئيسية فى وضح النهار ، فينهبون أموال الصيرفيين ، ويفتكون بهم ، ثم يخرجون آمنين • وأذكر ايضا تلك الأمسيات القاتمة ، عندما تهاجم عصابة من أربعين أو خمسين رجلا مسكن أحد الاثرياء أو مخزنا تجاريا كبيرا ، فيقلعون الابواب والنوافذ ويدخلون الدار عنوة ، ويفتكون بساكنيها ، لا فرق عندهـم بين كبير أو صغير •• ثم يحملون ما استطاعوا حمله من مال ورياش فى حين يقوم أعوانهم بحراسة مداخل الطرق المؤدية الى تلك الدار • فاذا ما انتهى الغزو ، حملوا المسروقات الى البساتين المتاخمة للمدينـة لاقتسام الغنائم •• وهم يرددون الاهازيج •• ويطلقون الرصاص اعتباطاً • كل هذا والحكومة ساهرة على الأمن وأعز الله السلطان !!••

وأذكر يوم اغتيل الحاج منصور جلبى السلمان ، عميد أسرة السلمان المعروفة فى البصرة ، بينمـا كان جالسـا فى مقهى النجـار المكتظة بالوجوه والاعيـان • وكيف سـار الشقيان الهوينى بعـد اقتراف جريمتهما المنكرة ، وتواريا عن الانظار آمنين • وبصورة مماثلة أغتيل خالد باشا العون شيخ الزبير آنذاك فى عرض الشارع المؤدى الى جامع (ذى المنارتين) فى البصرة •

بقى الأمن فى البصرة مزعزعا زمنـا طويلا ، حتى قدمهـا فخرى باشا الوالى الجديد ، الذى كان قائدا عاما للجيوش العثمانية فى العراق قبل ذاك •

فلما استلم مهام منصبه راعه وضع الأمن ، وهالته الجرائم التى سكت عنها اسلافه . فعمد الى كسر شوكة الشقاة وقطع دابرهم . ولم تكد تمر ليلتان على وصوله حتى هاجم ، صحبة فريق من جنوده ، مباءة اللصوص وفتح عليهم نارا حامية ، فقتل منهم ستة وجرح خمسة وفر الباقون .

وفى صبيحة اليوم التالى صحا الناس على صوت مناد يدعوهم للتفرج على الجثث المكدسة فى احد الميادين ... فاستبشروا وزايلهم بعض خوفهم . ثم دعا المختارين فى المدينة وقراها وهددهم بالسجن ان لم يفضوا اليه بأسماء المجرمين . فلم يكد يمر النهار حتى توفرت لديه قائمة طويلة ، فسعى جنوده الى القبض عليهم ، فاستسلم الكثيرون وأودعوا السجن ، وقتل كل من حاول الفرار منهم . وحين بلغه أن بعض الفارين التجأوا الى المحمرة ، كتب الى أميرها الشيخ خزعل راجيا اعادتهم ، فأعيدوا الى البصرة مقيدين بالسلاسل . وبنتيجة هذه الحملة بلغ عدد القتلى من اللصوص واحدا وعشرين ، وضعت جثثهم داخل أكياس (كوانى) وألقيت فى النهر .. فظلت عائمة فيه .. ترتفع مع المد وتنخفض بالجزر ، فكان منظرها عبرة وعظة . ومن يومها وأهل البصرة ينعمون بالنوم اللذيذ بعد طول سهاد وقلق ، وهم يلهجون بالدعاء للوالى الجديد (أبو الكوانى) ..

وحين استتب الأمن عهد فخرى باشا الى المقدم وهبى بك بتولى أعمال الادارة . وكان هذا ذكيا ، حازما ، شجاعا ونزيها ، أصلح ما أفسده الدهر من شؤون الولاية وكشف عن تلاعب بعض الموظفين والحكام ، فزاول الحكم بنفسه فى القضايا الجزائية والحقوقية حتى شلت يد المحاكم تقريبا . وقد خلف فخرى باشا الوالى مخلص باشا ، الذى تمت على يده اصلاحات كثيرة . فبنى مخافر للشرطة فى المدينة وضواحيها ، وأنشأ ثكنة للجيش فى العشار لا تزال قائمة حتى اليوم ، وشق الطرق الواسعة ، وأقام فى منعطفات الأزقة أكشاكا خشبية للحراسة لا يزال بعضها قائما ، وأختتم أعماله الجليلة فى صيانة الأمن بقتل الشقي المشهور عامر الذى كان عبدا مملوكا للسيد أحمد باشا النقيب ، وبمقتله انتهت آخر الاعمال اللصوصية المنظمة فى البصرة .

ان قصة الوالى فخرى باشا وخلفه الوالى مخلص باشا لهى قصة الاصلاح الذى يستطيع النزيه المخلص أن يقوم به فى كل مكان وزمان • أما الاعذار الواهية التى يبرر بها بعض المسؤولين قعودهم عن الاصلاح وتخاذلهم فى الحق •• فتمويه وتزوير • وللحاكم أن يختار لنفسه فى الحياة أحد سبيلين : النور ، أو الظلام •• والرجال اذا عاهدووا الله على خدمة الأمة صنعوا المعجزات ، وهم ان أرادوا التقاعس ففى الزوايا متسع للمتقاعسين ••• انما الضمائر ليست سواسية ، والنفوس الكبار قلة •

الحالة الصحية والعمرانية والمواصلات

اذا كانت حالة الأمن كما أسلفنا ، فمن الطبيعى أن تكون الحالة الصحية أسوأ بكثير • والحقيقة ان احدا لم يكن يفكر بالصحة ، فهى موضوع غير ذى بال فى دولة دب التفسخ فى كل أوصالها • والوقاية الصحية كلمة لا يفهم معناها أصحاب الشأن آنذاك • أما الاطباء فيندر أن يوجد منهم أكثر من واحد فى مركز الولاية • وحين انتشر وباء الطاعون والهيضة وفتكا بعشرات الالوف من الناس ، لم يكن أحد ليفكر فى وسيلة للوقاية غير الهرب ، ولكن الى أين •• فأينما يولى المرء وجهه فأنين المرض يتبعه وروائح الجثث المتفسخة تملأ أنفه •

ولم يكن يوجد فى العراق كله غير مستشفى المجيدية الصغير فى بغداد الذى كان مخصصا للجيش ، ومستشفى ملكى صغير فى الكرخ • وقد أنشأ مدحت باشا هذين المستشفيين بضمن ما قام به من اصلاحات واسعة • كما انه لم توجد مشاريع اسالة الماء ، بل يشرب الناس من مياه الانهار ، وينقلونه منها الى بيوتهم بالقرب • وكان الاغنياء من أهل البصرة يشربون من مياه شط العرب ، ويشرب الفقراء الماء الآسن من نهر العشار نظرا لقلة تكاليفه !••

ولم تكن الشوارع مبلطة ، فهى فى الصيف مصدر دائم للغبار ، وهى فى الشتاء برك وأوحال • وكثيرا ما يغدو المشى متعذرا ، وليس من سبيل الى

اجتياز الطرق غير امتطاء ظهور الحمالين .. وكانت الأزقة تضاء في الليل بالفوانيس الخافتة فيصعب تمييز الطريق على المارين ، وكم من عابر سبيل قضى ليلته وسط (خمرة) أو في قعر (بالوعة) ..

أما وسائط النقل الحديثة فلم تكن معروفة في ذلك الحين ، وكانت الوسائط الشائعة هي تلك التي استعملها أسلافنا في وادي الرافدين منذ آلاف السنين : الدواب والسفن الشراعية .

وحين قدم مدحت باشا أسس مصلحة للبواخر النهرية بين بغداد والبصرة ، وأجاز لشركة لنج العمل في الخط نفسه . كما أنشأ خط الترام بين بغداد والكاظمية . وقد آلت تلك البواخر الى السلطان عبدالحميد الذي تملكها لنفسه عنوة كما تملك الكثير من الاراضي الزراعية الخصبة وأطلق عليها اسم الاملاك السنية .

القضاء والادارة والتجنيد

كانت المحاكم على ثلاث درجات : بدائية ، واستئنافية ، وتمييزية . فالمحاكم البدائية توجد في مركز كل ولاية ، وتتألف من : حاكم الجزاء ، وحاكم التحقيق ، ورئيس محكمة التجارة ، والمدعي العام . وهؤلاء يعينون بارادة سنية . وتعين الوزارة نائبي حاكمين لكل محكمة . اما هيئة المحاكم فتتألف من اربعة اعضاء من الوجوه والاعيان (مسلمين ، ومسيحي ، ويهودي) تنتخبهم لجنة التفريق ويصادق على انتخابهم الوالي .

ومحكمة الاستئناف ، التي مقرها بغداد ، تنظر في القضايا المستأنفة من انحاء العراق المختلفة . وهي تتألف من حكام معينين بارادة سنية ، ومن هيئة من الأهلين ايضا . وفي حالة استئناف قضية تجارية فتحال الى محكمة الاستئناف التجارية العليا في استانبول مباشرة . أما محكمة التمييز فمقرها استانبول .

لم يكن راتب العضو الاهلي في المحكمة ليتجاوز الليرتين ونصف ، ولكن الوجوه كانوا يتنافسون على هذا المنصب ويبذلون الرشوات بسخاء للحصول عليه . ومن الطبيعي أن يكون رأي هؤلاء صوريا بالنسبة الى رأي الرئيس ،

فهم موافقون دائما على قرارات الحكام مهما شطت عن السبيل السوى •

واذا أردت وصف الادارة فلست واجدا فيها محاسن تذكر ، وسأقصر همى على ذكر مساوئها العديدة • فالمناصب والوظائف كانت تمنح لغير مستحقيها ، وكان القانون يتضاءل امام رغبات المتنفذين ، وكانت المحسوبية والوساطة هما أمضى سلاح للتقدم • أما الرشوة فكانت طابعا ملازما لكثير من الموظفين ••• بدونها لا تنجز مهمة ولا تنتهى قضية • بالرشوة كان الأميّ يعين فى المناصب الكبرى ، والشرير فى دوائر الشرطة ، والجاهل فى الوظائف القضائية والثقافية • وبالرشوة كان الظالم يكسب دعواه الباطلة فى المحاكم ، والكسالى يحصلون على رتب الباشوية والأوسمة ، والرئيس يتغاظى عن تلاعبات مرؤوسيه وسرقاتهم • ولا يظنن القارىء الكريم ان الحكومة كانت خالية من الموظفين الأخيار والحكام النزيهين والولاة المنصفين ، كلا ، بل كان هنالك الكثيرون منهم • ولكن الوضع كان ينطبق على المثل العامى : بسعر اليابس يحترق الأخضر •

وكان اذا عرف احد الوجوه بالشغب واثارة المشاكل ، ولم يرغب السلطان فى ايذائه بسبب نفوذه ، عيّنه عضوا فى مجلس شورى الدولة(١) ، حتى لو كان أميا ، فيوفر له حياة مترفة فى استانبول ••• بعيدا عن الشغب والمشاكل •

ويروى فى الرشوة طرائف كثيرة • منها ان قاضى الشطرة ، الذى انتهت مدته ، رغب فى اعادة تعيينه فى سوق الشيوخ أو الحى • فأبرق البرقية التالية الى قاضى بغداد يلتمس منه ترشيحه لأحد هذين المنصبين الشاغرين :ـ

« ان سقتم الشيخ الى السوق فممنون بخمسين ، وان أودعتم الميت الى الحي فممنون بستين » •

وأخيرا عيّن فى الحى بعد دفع الستين ليرة !••

وصادف يوما ان شكا أحد المراجعين قاضى البصرة ، وكان سوريا ، الى

---

(١) ديوان التدوين القانونى •

واليها مخلص باشا ، قائلا ان القاضى تعمّد تأخير قضيته أشهراً كى يضطره الى دفع الأتاوة المعتادة • فما كان من الوالى الا أن أخرج خمس ليرات ذهبية وأشّر على حوافها بالحبر الأحمر ، وأمر المراجع باعطائها للقاضى كرشوة • وبعد هنيهة دعا الوالى القاضى الى غرفتـه وطلب منه أخراج كيس نقوده ، فوجد بينها الليرات المؤشرة ، فلما همّ بضربه خرج القاضى راكضا وهو يتمتم : يخـرب بيتو منقّطها !•••

كانت الحكومة تعامل النـاس بقسوة وفظاظة ، وهى تنظر الى المفكرين والأدباء بعين الحيطة والحذر ، فلم يكن أهون عليهـا من نفيهم أو سجنهم • ولو شاء جاسوس أن يوشى بأمرىء لما بات ليـلته فى داره • وقد بلغ عـدد الجواسيس فى أواخر عهد عبدالحميد رقما خياليا ، حتى ان الاتحاديين قد روا رواتبهم بخمسة ملايين ليرة ذهبية سنويا • ولما ضاق الأحرار ذرعا بهذا الضغط على حرياتهم ، فرّ بعضهم الى مناطق الأمان ، ومنهم الكاتب الحر عبدالرحمن الكواكبى الحلبى الذى التجأ الى مصر وألّف فيها كتابيه المشهورين (أم القرى) و(طبائع الاستبداد) اللذين حض فيهما العرب على مقاومة الحـكم العثمانى ، واعلان الاستقلال ، وتأليف الجمعيات السرية ، ونزع الخلافة من السلطان •

وبتهمة العطف على ابن السعود نفت الحكومة الحـاج محمد الشعيبى وعبدالله العويد ومحمد الشبل ، من تجار البصرة ، الى قونية • ونفت كذلك من اشراف بغداد : العلامة الشيخ محمود شكرى الآلوسى ، والعسافى الى دياربكر • الا انهما حين مرا بالموصل ، فى طريقهما الى المنفى ، أبرق علمـاء المدينـة وأعيانهـا الى السـلطان يسترحمون ابقاءهمـا فى الموصل ، فأجابهم الى طلبهـم •

أما سياسة التجنيد فى الدولة العثمانية فلم تكن واضحة المعالم • ففى الوقت الذى كان المجندون من أبناء العرب يرسلون الى سوح الحرب فى طليعة الجيوش العثمانية ، كنا نرى ان الاعفاء من الخدمة كان يشمل طبقات عديدة ومناطق واسعة من البلدان العربيـة • ويظهر ان خشية الحكومة من ارتفاع

نسبة العرب بين الجنود هى السبب فى التساهل فى تجنيدهم • وكان الاعفاء يشمل أهل نجد ، ومصر ، ولبنان ، والاحساء ، والكويت ، والحجاز ، وكربلاء ، والنجف ، والزبير ، وأبناء العشائر السورية والعراقية ، وطلاب العلم ، والعلماء المجازين ، ومشايخ الطرق ، والسادة الرفاعيين • وكان الجندى العربى فى أسوأ حال • فهو فى زمن السلم مهان ومعرّض لشتى أنواع العقوبات ، وهو فى الحرب فدائيٌ يرسل الى جبهات القتال البعيدة • وليست حرب القفقاس التى استشهد فيها مالا يقل عن ثمانين بالمائة من الجنود العراقيين بعيدة عن الأذهان •

الثقافة والتعليم

كان للجهود التى بذلها محمد على باشا الكبير فى نشر التعليم فى مصر وارسال البعثات العلمية الى اوربا أثر بالغ فى رفع مستوى الثقافة وفى خلق طبقة من العلماء والساسة فى ذلك البلد • وفى لبنان عملت المؤسسات الثقافية الأهلية والاجنبية على تعليم أبناء الشعب ، فارتفع فيها مستوى الثقافة والتعليم الى حد بعيد • وتأثرت سوريا ، لقربها من لبنان ، بالنهضة الثقافية فجارت أختها الى حد ما • أما العراق السىء الحظ فظل يتعثر فى دياجير الجهل ، واقتصرت الحركة التعليمية فيه على مدارس الحكومة الاولية والاعدادية القليلة الموجودة فى المدن الكبرى فقط ، بينما حرمت القرى والأرياف من التعليم حرمانا تاما • وكانت مناهج الدراسة فى هذه المدارس بتراء لا تفى بالقصد ، ويكفيك ان قواعد اللغة العربية فيها كانت تدرس باللغة التركية • وقد جاء اهتمام السكان بتعليم ابنائهم متأخرا ، فكانت الأقلية من الطبقات الموسرة هى التى تعنى بتدريس ابنائها • وقد يكون لهم فى عزوفهم عن الدراسة سبب معقول ، ذلك ان الكليات والدراسات العليا كانت مركزة كلها فى استانبول • ولا يخفى ما تتطلبه الدراسة هناك من نفقات باهظة واغتراب طويل • وهكذا ترى ان الذين تلقوا علومهم فى استانبول من أهل المدن العراقية قليلون جدا ، أذكر منهم :ـ انجال المرحوم يوسف السويدى الخمسة : ناجى ، وعارف ، وثابت ، وتوفيق ، وشاكر • وانجال المرحوم شوكت باشا : صائب ، وسامى ،

وناجی • وحکمت سلیمان ، داود سمرة ، نشأت السنوی ، موسی الباجه‌جی ، مصطفی التکرلی ، عاصم الجلبی ، نعیم زلخة ، حمدی الباجه‌جی ، داود الحیدری ، وداود الدبونی • ومن الاطباء : هاشم الوتری ، جلال العزاوی ، اسماعیل الصفار ، وفائق شاکر وغیرهم • ومن الاطباء فی الموصل : عبدالکریم قلیان ، داود الجلبی ، یحی نزهت ، وعبدالله الدملوجی • ومن البصرة : المرحوم عبدالعزیز المطیر ، الذی درس القانون فی کلیة الحقوق فی قونیة علی أثر تأسیسها •

أما الذین أتموا دراستهم العسکریة فی استانبول فکثیرون ، بسبب توفر الأقسام الداخلیة فی الکلیة الحربیة •

وقد تمکنت من الحصول علی احصاء رسمی للمدارس الحکومیة فی العراق عام ١٩٠٥ أورده باختصار :ـ

فی بغداد

اعدادیة ملکیة ذات سبعة صفوف • واعدادیة عسکریة ذات ثلاثة صفوف • ورشدیة عسکریة ذات أربعة صفوف • وأربع مدارس أولیة • ومدرسة واحدة للاناث •

وفی أقضیة بغداد الاحدی عشر ونواحیها : احدی عشرة مدرسة رشدیة ذات ثلاثة صفوف ، واحدی وعشرون مدرسة أولیة •

فی لوائی کربلاء والدیوانیة التابعین لبغداد وأقضیتهما الستة : ثمانی مدارس رشدیة ، وخمس عشرة مدرسة أولیة •

فی الموصل

أعدادیة ملکیة ذات خمسة صفوف ، ومدرستان أولیتان • وفی أقضیة الموصل الخمسة ونواحیها : خمس مدارس رشدیة ، واثنتا عشرة مدرسة أولیة •

وفی لوائی کرکوك والسلیمانیة التابعین للموصل وأقضیتهما التسعة :

تسع مدارس رشدية ، ست عشرة أولية ، ومدرسة رشدية عسكرية ذات أربعة صفوف فى السليمانية تهيء خريجيها للدخول فى المدرسة الاعدادية العسكرية فى بغداد •

فى البصرة

فى البصرة وقضائيها : مدرستان رشديتان ملكيتان ، واثنتا عشرة مدرسة أولية • وفى لوائى العمارة والناصرية التابعين للبصرة وأقضيتهما السبعة ونواحيهما : خمس مدارس رشدية ، وخمس عشرة مدرسة أولية •

وكان ملاك المدرسة الأولية معلما واحدا ويندر أن يكون اثنين •

ويبلغ المجموع الكلى لعدد الطلاب فى هذه المدارس ، بما فيها العسكرية والملكية ٤٢١٠ طالبا و٢٦٣ معلما فقط •

أما المدارس الأهلية فى العراق فهى المدارس الاسرائيلية والمسيحية فى المدن الرئيسية الثلاث ، وطلابها كثيرون ، والدراسة فيها أحسن حالا من المدارس الحكومية •

مدحت باشا

مدحت أبو الأحرار ، ومدحت المصلح ، ومدحت الشهيد •

فهو المصلح الكبير ، الذى تولى الولاية فى بغداد فى أوائل عام ١٨٦٩ م ، فى عهد الظلم البغيض ، فأنجز من الاعمال الجليلة ما لا زالت آثارها باقية حتى اليوم • ان أمد حكمه القصير فى بغداد ، الذى لم يزد على السنتين ونصف ، كان مليئا بالمشاريع المفيدة والاصلاحات العظيمة • فقد قضى على الاعمال اللصوصية ، وأعاد الأمن الى نصابه ، ونظّم المحاكم بعد تسيب ، وأصلح جهاز الادارة بعد فساد ، وأنشأ مبانٍ ضخمة لدوائر الحكومة ، ونظّم ماليتها ، ودفع المتراكم من رواتب الموظفين ، وأزال ظلم البوليس وجوره ، وأسس مطبعة الحكومة ، وأصدر جريدة رسمية ، وأسس مدرسة صناعية واستورد لها الأدوات اللازمة ، ومدارس عسكرية وملكية أعدادية ،

ونظّم أعمال شركة البواخر النهرية ، وقام بتأسيس معمل لاصلاح تلك البواخر ، وأنشأ العبخانة التى كانت تقوم بنسج البسة الجنود وبطانياتهم ، وفتح الطرق ، وأسس مستشفى المجيدية ، وحوّل مجرى دجلة لاختصار طريق البواخر فى محل يسمى (القصة) ، ووضع مشروعات للرى والزراعة بلائحته المشهورة (لائحة مدحت باشا) ، وربط ضريبة نخيل البصرة برسم الجريب المقطوع ، وأسس نظام العقر فى بعض المدن ، ووضع أصولا لتوزيع الاراضى الاميرية على المزارعين بطريقة الملكية الصغيرة ، وألّف شركة تراموای الكاظمية ـ بغداد ، وغير ذلك من المشاريع والاعمال المفيدة ..

وهو أبو الأحرار ، لان الدستور الذى أعلن فى عام ١٨٧٧ م لم يقم الا بمساعيه ومساعى رفقائه . فهم الذين حملوا السلطان على اعلان ذلك الدستور وعلى فتح مجلس الأمة . الا أن ذلك لم يرق لبطانة السلطان والملتفين حوله ، فصوروا له المخاطر التى سينجم عنها اشتراك الأُمة فى الحكم ، وحببوا اليه الاستئثار بالحكم ، فتأثر بأقوالهم وحل المجلس وشتت شمل أعضائه ، وألغى الدستور ، وأمر بنفى مدحت باشا الى الطائف .

وهو الشهيد لأنه مات خنقا بيد رجال السلطان ، الذى كان بقاء مدحت باشا فى قيد الحياة يؤرقه ويسهده ... وقد سر السلطان حين بلغه نعى مدحت ، فأمر بترفيع القتلة وهم :

المقدم بكر بك الجركسى الى رتبة أمير لواء ، الملازم ابراهيم الجركسى الى رتبة عقيد ، العريف ميمش اغا الى رتبة مقدم ، العريف الزنجى على الى رتبة رئيس ، والعريف محمود جاووش الى رتبة رئيس اول .

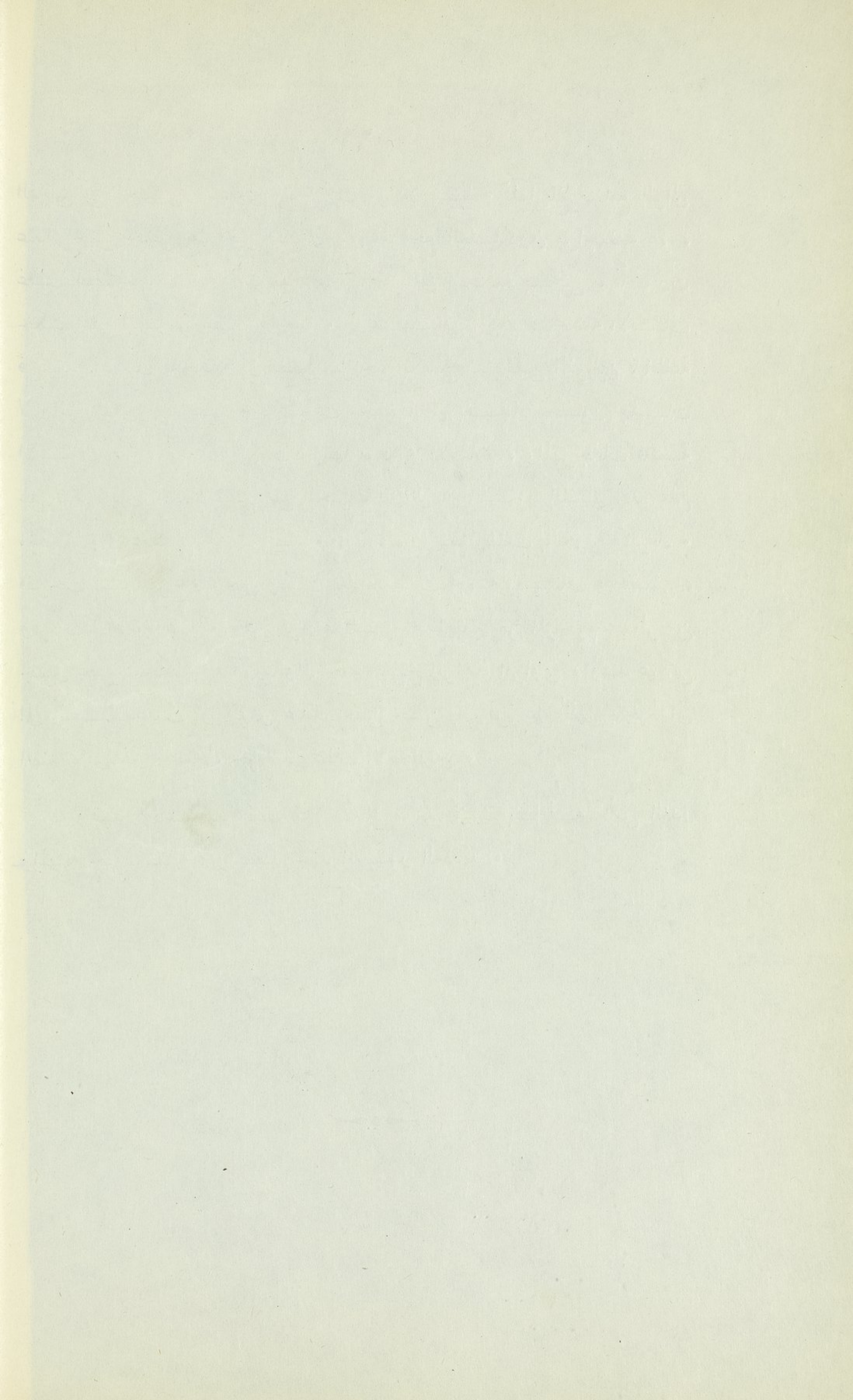
وبمقتل مدحت باشا طويت الصفحة الأخيرة من صفحات البطولة والاخلاص فى حياة هذا الرجل .

ثمالة الكأس

فى أواخر عهد الاستبداد ، وقبل إعلان الدستور العثمانى بخمسة عشر يوما ، أرسلت الى المشيخة الاسلامية فى استانبول برقية أشكو اليها تعسف

القاضى فى احدى الدعاوى التى كنت موكلا فيها . فلما بلغ مسامع الوالى عبدالرحمن حسن بك خبر شكواى الى المراجع العليا دون مراجعته هو ، غضب غضبا شديدا وأمر بتوقيفى ، ثم أوعز الى المحكمة بسجنى ، فأصدرت حكمها عليّ بالسجن شهراً واحداً . ورغم استئنافى الحكم فى محكمة الاستئناف فى بغداد ، أبت المحكمة أن تطلق سراحى بكفالة كما تقضى القوانين ، اطاعة لأوامر الوالى الغاضب . فأرسلت مخفورا الى بغداد لحضور جلسات الاستئناف . ولما وصلت الكوت رأيتها مزدانة بالأعلام ، والمهرجانات قائمة على قدم وساق . فلما سألت عن الخبر ، قيل لى ان الدستور العثمانى قد أعلن مؤذنا بزوال عهد الارهاب والظلم ... ولسوف ينعم الشعب بالحرية والرفاه . ففرحت أشد الفرح . وحين وصلت بغداد نظرت محكمة الاستئناف فى قضيتى ، وقررت الافراج عنى . وكان قرارها السريع هذا بتأثير من المرحوم عبدالرحمن جميل عضو المحكمة المذكورة والمرحوم الشيخ ابراهيم الراوى . وعند عودتى الى البصرة علمت أن الوالى عبدالرحمن حسن بك فرّ على ظهر باخرة الى الهند ، الى غير رجعة ، خوفا من عقاب الاتحاديين .

وهكذا ودعنا عهد الظلم والاستبداد ، بعد أن شربنا فيه كأس الغدر والمهانة حتى الثمالة ، واستقبلنا عهد الدستور الجديد .



في عهد جمعية الاتحاد والترقي

فى عهد جمعية الاتحاد والترقى

١٩٠٨ — ١٩١٥

نحن الآن فى مستهل عام ١٩٠٨ . وقد بلغت الاحوال فى الامبراطورية المتداعية الدرك الأسفل ، وتمزقت اوصالها بفعل الغارات الاجنبية عليها . فاحتلت روسيا مقاطعة القارص وباطوم وأردهان . واستولت النمسا على البوسنة والهرسك . وسطت اليونان على تساليا وبيره . وانزلت بريطانية جيوشها فى قبرص ومصر فسيطرت عليهما . واستقلت كل من رومانيا ، والصرب ، والجبل الاسود ، وبلغاريا ، وكريت . وتدفق الجنود الفرنسيون على تونس فطردوا منها العثمانيون .

أما الوضع فى الداخل فقد كان سيئا جدا ، وقد عم الخراب المملكة وهام أحرار البلاد على وجوههم خوفا من بطش الحكومة كما أسلفنا . ولكن هذا الخوف لم يمنع الاهلين من ابداء تذمرهم فى السر ، خاصة بعد أن سرت همسة فى ارجاء البلاد عن وجود جمعية سرية فى مقاطعة الروملى بسلانيك تناوىء الحكومة القائمة وتبشر « بالحرية » و « والمساواة » و « العدالة » .

نشوء جمعية الاتحاد والترقى واستيلاؤها على الحكم

قامت هذه الجمعية على أكتاف الضباط بادى الأمر ، فكان اعضاؤها يعملون فى الخفاء على بث مبادئها وللحصول على تأييد بعض القواد العسكريين وكبار الموظفين من المطالبين بالاصلاح . وقد ساهم فيها الاتراك والعرب والاكراد وأبناء الاقوام الاخرى على حد سواء ، فظفروا بتأييد الفريق هادى باشا العمرى ومحمود شوكت باشا وطلعت بك وجاويد بك وصلاح الدين جيمجوز وكثيرين غيرهم . أعلن نيازى بك العصيان فى منطقة سلانيك ، وتبعه انور بك وعاطف بك . وبهذا انتقل كفاح الجمعية من التبشير بمبادئها سراً الى الثورة . ووجهت الجمعية انذاراً الى السلطان باحتلال استانبول ان هو لم يعلن الدستور .

مادت استانبول لأنباء الثورة ، وتحركت فرقة من الجيش بقيادة شمسى

باشا نحو سلانيك لاخماد العصيان • ولدى وصولها المدينة المذكورة تقدم عاطف بك ، فدائياً متطوعاً ، وقتل بيده شمسى باشا قائد الحملة ، فأسقط فى يد ضباطه وجنوده ، وتبلبلت آراؤهم فلم يروا حلاً خير من الانضمام الى جيش الثورة •

وهكذا زحفت قوات انور ونيازى الى استانبول واحتلتها فى ٢٣ تموز سنة ١٩٠٨ ، والقت القبض على الوزراء ورجال البلاط والمتنفذين • وتشكلت الوزارة الجديدة برئاسة كامل باشا ، فأعلنت الدستور ، وأصدرت عفوا عاما عن المسجونين السياسيين والمنفيين • عمت البشرى جميع البلدان وأقيمت معالم الزينة والمهرجانات فى كل مكان •

انتقل مركز الجمعية الى استانبول ، وفتحت فروعا لها فى المدن العثمانية ، فانضم اليها المواطنون جماعات وافرادا ، آملين قيامها بالاصلاح المنشود وقضائها على الأوضاع الشاذة • وحين افتتح فرع الجمعية فى بغداد كنت قد قدمتها لاستئناف قضيتى ، كما أسلفت فى الفصل السابق ، فانتميت اليها بواسطة رشيد الخوجة رئيس أركان الجيش فى بغداد ورئيس فرع الجمعية فيها • وواظبت على حضور اجتماعاتها ، وكشفت لأعضائها عن تصرفات والى البصرة عبدالرحمن حسن بك واختلاساته ، فقررت الجمعية ارسال بعض الضباط لالقاء القبض عليه وسجنه • وقبل أن تغادر هذه البعثة بغداد ورد نبأ هرب الوالى المذكور الى الهند مستصحبا معه مبلغا جسيما من أموال الدولة يناهز الستة عشر الف ليرة ذهبية •

بعد عودتى الى البصرة كنت احضر اجتماعات فرع الجمعية بصورة منتظمة ، حيث ألتقى بنخبة من الضباط العراقيين وبعض الموظفين والأهلين • وحين قدم اول وال للبصرة فى العهد الجديد ، محرم بك ، كلفت بالقاء خطاب ترحيبى بمقدمه ، فألقيته باللغة التركية • وكان ملخصا للحالة السيئة التى كان يقاسيها الشعب ، ودعوة الى الاصلاح ، وقع فى نفس الوالى موقع الاحسان •

وبعد ايام عاد الى البصرة من استانبول السيد طالب بك النقيب واحمد

باشا الزهير ، اللذان كانا محجورا عليهما فى استانبول فى العهد البائد كعضوين فى مجلس شـورى الدولـة ، فتعرفت عليهما آنذاك للمرة الاولى • ثم جرت انتخابات النواب ، ففازا بنيابة البصرة وعادا الى استانبول بعد اعلان الدستور •

فاجأ نيازى بك زملاءه بالانسحاب من الجمعية ، والاستقالة من الجيش ، والعودة الى قريته ليعيش فيها كمزارع بسيط ، بالرغم من التماسات اصحابه لحمله على البقاء فى دست الحكم • فكان يجيبهم دائما بأنه أنجز واجبه نحو أمته ، وهو بعد هذا لا يريد منصبا ولا جاها • وكأنه كان على علم بما سيرتكبونه من الهفوات والخطايا التى لا تقل بحال من الاحوال عما ارتكبه اسلافهم اعوان السلطان • فلم تكد الأمور لتستتب حتى بدأ رؤساء الجمعية يساومون رجال العهد البائد لاخراجهم من السجون • وقد أخرج بالفعل عدد كبير منهم مقابل رشوات جسيمة • وركبهم الغرور ، واستبد بهم الطيش والجشع ، فخرجوا عن مبادىء الجمعية حتى قال فيهم الشاعر :ـ

كان عبدالحميد بالأمس فرداً فغدا اليوم الف عبدالحميد

أثار انحراف زعماء الجمعية عن مبادئها المرسومة امتعاضا بين الاحرار فى استانبول • فأسسوا حزباً جديدا أسموه حزب الاحرار ، مهمته انتشال الدستور والحرية من التردى والاضطهـاد على ايدى رجال جمعيـة الاتحاد والترقى • فما كان من هؤلاء الأخيرين الا أن قضوا على الحزب الجـديد ، واغتالوا أحد رؤسائه حسن فهمى بك رئيس تحرير جريدة سربستى ، ثم طلبوا من السلطان اقالة كامل باشا رئيس الوزراء لأنه لم يسايرهم فى اندفاعهم الأهوج • فلما رفض السـلطان طلبهم ، نظراً لمخالفته الدسـتور ، أوعزت الجمعية الى مجلس النواب بسحب الثقة من الوزارة ، فسقطت •

خلع عبدالحميـــد

دأب الاتحاديون منذ اسـتيلائهم على المناصب الكبيرة يجمعون المـال بالطرق المشروعة وغير المشروعة ، اذ كان معظمهم من المعدمين قبل الانقلاب ، فلما ارتقوا الى أعلى المناصب بعده ابهضتهم نفقات الحياة الجديدة ، فسعوا وراء المال حلالا أو حراما لسدها •

وكان أكثر ما يستهويهم ، تلك النفائس والمجوهرات والخزائن المكدسة في قصور يلدز ، حيث يقيم السلطان . فلا عجب أن يتآمر الاتحاديون على خلع عبدالحميد والاستئثار بكنوزه . ولكنهم كانوا يفكرون فيما سيعقب هذا الخلع من جزع واشمئزاز لدى الناس ، خاصة بعد أن أذعن السلطان لارادة الأمن وأعلن الدستور . فاحتالوا – أى الاتحاديون – بتنظيم مظاهرة دينية من الملائيين والبسطاء تنادى باحلال الأحكام الشرعية بدل بعض مواد الدستور ، واتهموا عبدالحميد بتدبيرها .

وفى يوم ١٣ نيسان سنة ١٩٠٩ ، قدم يلدز وفد الجمعية لمقابلة السلطان ، وأفهموه قرار الجمعية والشعوب العثمانية من ورائها بخلعه . ولم يشأ السلطان أن يقاوم هذا القرار حقنا للدماء ، فعاش بقية عمره سجينا فى قصره بسلانيك . وأصبحت كنوزه فى قبضة الاتحاديين .. وجىء بمحمد رشاد فنصب سلطانا على الدولة العثمانية وخليفة للمسلمين ، وكان هذا غبيا ، بليدا ، مدمنا على الخمرة لا يكاد يصحو من تأثيرها .

مدرسة تذكار الحرية

على أثر اعلان الدستور واطلاق الحريات ، قويت لدىّ الرغبة فى العمل فى خدمة الأمة العربية عن طريق الصحافة ، والتعليم ، واثارة الوعى القومى بين الناس . ولقد وجدت فى البصرة ميدانا فسيحا لهذا النشاط ، اذ كانت تفتقر الى المدارس اللازمة ، وكان أهلها غافلين عن تعليم أبنائهم وتثقيفهم . فتقدمت الى السلطات المحلية بطلب تأسيس مدرسة اعدادية اهلية ، تبدأ أولا بصفين ، ويكون أسمها (تذكار الحرية) ، يكون التدريس فيها باللغة العربية ، وتدرس فيها التركية والانجليزية والفرنسية كلغات اجنبية ، على غرار المدارس العربية الاهلية فى بيروت . ولدى مقابلتى للوالى ، قال لى انه يحب التعليم ويحبذ انشاء هذه المدرسة ، الا أن اسمها العربى وتدريسها باللغة العربية يتعارضان مع القوانين المرعية ، لذلك اقترح علىّ ان اجعل اسمها (يادكار حريت) ، وان لا أتناول بالذكر فى عريضتى موضوع اللغة ، وانه

– أى الوالى – سيغض الطرف عن هذه المخالفة فلا يبحث عنها فى كتابه الى الوزارة • وعند حصولى على الاجازة كان لابد من المال لتنفيذ المشروع ، فجمعت تبرعات بمبلغ ٨٦ ليرة ، واستأجرت دارا ، وهيأت لها الرحلات والأدوات اللازمة ، وارسلت بطلب الكتب المقررة من بيروت • وقد احتفظت بادارة المدرسة لنفسى ، وعينت الحاج احمد السالم معاونا ، وانتخبت لها المعلمين الأكفاء ، وهم :

السيد عبدالعزيز التكريتى : لقواعد اللغة العربية وللدين ، المستر مانوئيل : للغة الانجليزية ، المستر ر • اندريه : للغة الفرنسية ، ثم أخلفه الياس هرمز ، المحامى عمر فوزى : (متبرعا) للغة التركية ، نورى محمود : للخط • وقد تبرع الضباط العرب التالية اسماؤهم بتدريس بقية الدروس مجانا وهم :–

عبدالرزاق حلمى (متصرف البصرة الأسبق) ، والركن سامى الأورفهلى ، وتوفيق فكرت ، ورأفت أرضروملى ، وأحمد رشدى (آمر القوة النهرية الأسبق) •

وفى حفلة الافتتاح ، فى ٢٧ تشرين ثانى سنة ١٩٠٨ ، حضر الوالى وجمهور غفير من الموظفين والأهلين ، وارتجل الوالى كلمة أشاد فيها بمجهود المؤسسين ، وأعقبه يوسف باشا المنديل بخطاب وتبرع بعشر ليرات اضافة الى تبرعه السابق • ثم طاف المدعوون فى غرف الصفوف ، وانفض الاحتفال •

وبعد ايام قلائل من افتتاح المدرسة زارها احمد باشا الزهير وتبرع لصندوقها بمائة ليرة ذهبية • وكان اقبال الاهلين على ارسال اولادهم الى هذه المدرسة عظيما ، حتى بلغ مجموع طلابها فى السنة الثانية مائة وستين أتذكر منهم :–

احمد نورى ، شاكر النعمة ، وعبدالله ومصطفى الطه السلمان ، عبدالمجيد وعبدالحميد بديع ، ومحمد شاكر العبد السيد ، وسعدون الشاوى ، وتوفيق الحاج عذار ، ومحمد وعبدالله الصانع ، وعيسى طه ، وحبيب وعبدالجبار

الملاك ، ومحمد الخلف العبد الواحد ، وغالب توماس ، وشكرى كوركجى ، ونجيب كرومى ، وفائق عبدالرزاق منير ، ويوسف هارون يامين ، ومحمد شريف المنصور ، وعبدالعزيز المنصور ، وعبدالعزيز المنديل ، ومحمد احمد السامرائى ، ومحمود ومهدى الحاج داغر ، وكمال ونورى عمر فوزى ، واحمد غلوم .. الخ ..

ولما ضاقت الدار بالطلاب ، انتقلت المدرسة الى بناية جديدة للأوقاف فى محلة السيف (مدرسة السيف الابتدائية للبنين فى الوقت الحاضر) . وكانت المدرسة تستوفى من الطالب الغنى اربعمائة فلس شهريا ، ومن متوسط الحال مائتى فلس ، ولا تستوفى من الفقير أجرا ، بل كانت تجهزه بالكتب مجانا . ودأب بعض المحسنين على التبرع لفقرائها بين حين وآخر . وزارها الوالى محرم بك أكثر من مرة واهدى الى ادارتها تصويره ، وكان المرحوم الشيخ عبدالله باش اعيان يتفقدها بصورة منتظمة ويشارك طلابها ومدرسيها سفراتهم الربيعية .



هيئة المدرسين والتلاميذ
فى مدرسة تذكار الحرية يتوسطهم المؤلف

وبعد عام واحد راجعنى معتمد فرع جمعية الاتحاد والترقى ، واخبرنى بأن مركز الجمعية فى استانبول قد كلف الفرع بفتح مدرسة فى البصرة ، ولما كانت ماليته لا تساعده على القيام بهذا المشروع ، فقد التمس مني أن أجعل مدرستى تحت نظارة الجمعية ، فتقوم هى بادارتها ماليا ، وتحتفظ لى بشرف التأسيس مع بقائى مديرا لها براتب شهرى قدره خمس ليرات • وبعد جدل طويل لم ار بدا من القبول ، وسارت الامور بادىء الامر كالمعتاد ، غير انى فوجئت بطلب الجمعية بتبديل أسم المدرسة الى (مدرسة الاتحاد والترقى) ، وجعل التدريس فيها باللغة التركية • فلم أقبل ، واشتد النزاع بينى وبين الجمعية • وحين رأت الجمعية شدة عنادي قررت أن تخبر الوزارة بأمر التدريس باللغة العربية خلافا للقوانين ، وهذا معناه غلق أبواب المدرسة • وقد شكوت الحال الى الوالى ، سليمان نظيف اذ ذاك ، وطلبت منه أن يحكم بينى وبين الجمعية فأجابنى :ـ

انك محق فى تمسكك بالاحتفاظ بأسم المدرسة وبتدريس اللغة العربية فيها ولكن حكمي ، اذا أردته ، سيكون عليك وليس لك ، تنفيذا لرغبات استانبول • فنصيحتى أن تتفق واياهم بأى ثمن •

وهكذا اتفقت على ان اتخلى للجمعية عن المدرسة فى نهاية تلك السنة الدراسية •••وأستقيل من مديريتها وانفض يدى من المؤسسة التى بذلت فى سبيلها اتعابا جسيمة وبنيت على أبنائها آمالا كبارا ، والتى كنت أحنو عليها وأحرص على كيانها حرصى على كنز ثمين أو ولد عزيز •

ومنذ الساعة التى رأيت فيها اللافتة الجديدة على مدرستى وسمعت طلابها يرددون الدروس بالتركية ، منذ تلك الساعة أيقنت ان جمعية الاتحاد والترقى لا تضمر للعرب الا السوء والشر ، وانها سائرة الى تتريكهم ومحو عروبتهم • فقدمت استقالتى من الجمعية وناوأتها ، كما سيأتى ذكره فى الفصول القادمة •

وعندما فتحت الجمعية أبواب المدرسة فى سنتها الثالثة ، لم يؤمها غير عدد

ضئيل من الطلاب ، احتجاجا على تبديل منهاجها ولغـة التدريس فيها ، مما أضطر الجمعية الى اغلاقها وتحويل بنايتها الى ناد لاعضائها • وهكذا انمحى اثر جليل لو قدر له البقاء لساهم فى اعداد جيل ممتاز من أبناء الفيحاء •

جريدة الايقـــاظ

ان الرغبة الملحة فى القيام بأعمال وطنية مفيدة كانت تتأجج فى نفسى ، فأزمعت على اصدار صحيفة حرة تـنـادى بالاصلاح ، وتهاجم البـاطل حيثما كان ••وكيفما كان ، وتفصح عن رغبات الشعب فى تعميم اللغة العربيه فى دوائر الحكومة ومعاهد التعـليم ، وتطالب بفتـح المدارس وأنشاء المستشفيات ومجانية التعليم ، الى غير ذلك من الاصلاحات • وبعد لأي حصلت على أجازة لاصدار جريدة (الايقاظ) ، وقد صدر العددالاول منها بتاريخ ٢ مايس ١٩٠٩ ، فكانت اول صحيفة اهلية فى البصرة ، عـدا الجريدة الرسـمية التى تنشر القوانين والانظمة باللغة التركية مع تعريب مقتضب •

وقد لاقت جريدتى رواجا منقطع النظير بالنسبة الى الاوضاع السائدة فى ذلك الوقت • فبلغ عدد ما يوزع منها اسبوعيا الف نسخة ، وكانت ترسـل بانتظام الى مشتركيها خارج العراق كالهند ، والمحمرة ، والكويت ، والبحرين، وعدن ، ومسقط ، وجدة ، وسنغافورة وغيرها • ويعلم الله كم لاقيت بسبب صحيفتى هذه من المتاعب والمشاكل ، ومن تعنت المسؤولين وتجبرهم •

ان النجاح الذى اصابته جريدة الايقاظ شجع فريقـا من الادباء فى البصرة على اصدار جرائد أخرى • ففى ٣ حزيران ١٩٠٩ صدرت جريدة (التهذيب) لصاحبها الشيخ محمد أمين عالى باش أعيان • وفى تمـوز من السنة نفسهاصدرت جريدة (اظهار الحق) لصاحبها قاسم جلميران ، ومحررها عبدالقادر العبادى • ثم حذا حذوهم كثيرون كما سيأتى ذكره فى بحث خاص •

وفى تلك الاثناء قدم البصرة واليها الجديد عارف بك الماردينى ، بدلا من محرم بك ، فأقيمت حفلة كبيرة لقراءة فرمانه ، القيت فيها خطابا رحبت فيه بمقدمه ، وشكوت له سوء الاوضاع • فأجاب الوالى ، وهو عربى أشتهر

بالادب ، بكلمة مرتجلة بليغة عبّر فيها عن رغبته فى الاصلاح ، وأختتمها بقول عمر الفاروق المأثور : « أيها الناس ان رأيتم فيّ أعوجاجا فقوموه »

ولكن الايام أظهرت أن الوالى الجديد كان رجل أقوال وليس رجل أعمال ، وأنه من النوع الذي قيل فيه :ــ « يعد أياماً ويقبض راتباً »

وفى ذات يوم وردت الى صحيفتى (الايقاظ) و (اظهار الحق) نسخا من عريضة قدمها أهل العشار الى الوالى ، يلتمسون منه أدماج بلدية البصرة والعشار فى بلدية واحدة ، تقليصا لعدد الموظفين وتوفيراً لرواتبهم لغرض فتح صيدلية فى العشار .فأعتبر الوالى عمل العشاريين هذا تدخلا فى شؤون الحكومة ، وأوعز الى الصحيفة الرسمية بنشر مقال يمس كرامتهم ويهينهم . فلما صدر المقال أبرق أهل العشار الى الوالى أحتجاجا على الجريدة المذكورة . ونشرت الصحيفتان الاهليتان صورة الاحتجاج ، مما أثار غضب الوالى ، فأنذر الصحيفتين بوجوب أتباعهما نظام المطبوعات القديم . وأمر مدير مطبعة الحكومة بأجراء الرقابة على الصحف الاهلية قبل صدورها ، فكان هذا الاخير يطالع كل صحيفة بعد طبعها ويختمها بختمه . ولم يكن أيسر عليّ من الحصول على هذا المستمسك الثمين . فذهبت الى الوالى وأحرجته بكونه قد خالف القوانين الجديدة فى عهد الحرية ، وأريته الصحيفة الموقعة بتوقيع الرقيب ، فأرتبك والقى اللوم على مدير المطبعة . ولكن المدير أبرز أمر الوالى التحريرى بأجراء الرقابة ، فما كان منى ومن صاحبى الا أن أبرقنا الى الوزارة بتفصيل الحادث . وعند ورود الاستفسار من الوزارة أنكر الوالى صحة الشكوى ، فشددنا عليه النكير ، وأرسلنا برقيات أخرى نكذب فيها أدعاءه ، فعمد الى جمع مجلس الادارة ، وكلهم من أعيان البلد ... وكلفهم بتوقيع شهادة تنفى صدور الأمر من الوالى ، وتنفي حدوث الرقابة . فأصدر عبيد القوة قرارهم بجانب الوالى . فلما رأينا أن الامر يكاد ينقلب علينا ، أبرقنا الى الوزارة نطلب أرسال هيئة للتحقيق فى الحادث ، وللاطلاع على الوثائق الرسمية التى نحتفظ بها . وهنا أغلق على الوالى

وأوصد بوجهه سبيل النجاة ، فقدم استقالته من تلقاء نفسه ، وقبلت فى آخر ايلول عام ١٩٠٩ . وعين وكيلا للولاية بعده راقم بك الزهاوى منصرف العمارة الذى أشتهر بحرية الرأى والنزاهة . وهكذا عادت صحفنا الى الصدور فى أول تشرين الاول عام ١٩٠٩ بعد احتجاب دام أكثر من شهر .

ولم يدم عهد راقم بك طويلا ، اذ جاء الوالى سليمان نظيف ، الذى عاصرت ولايته فى البصرة ولاية ناظم باشا فى بغداد . وكان الاخير قد جاء الى بغداد بصلاحيات واسعة وأستصحب معه فريقا من الضباط الاشداء ، فعين أحدهم المقدم نشأت بك قائدا للجيش النظامى والرديف فى البصرة ، والمقدم شاكر بك (طابور اغاسى) معاونا لمدير الجندرمة العام .

صدر العدد الثانى والخمسين من (الايقاظ) يحمل أنتقادا لتصرفات بضعة أنفار من الجندرمة فى حادثة بسيطة ، وفى اليوم ذاته تلقيت دعوة بالحضور لدى نشأت بك . فلما حضرت وجدت بجانبه شاكر بك ففاجأنى بقوله :ــ أنك أهنت الجندرمة وعليه سوف اعاقبك بالسجن فى الثكنة العسكرية فى العشار .

ونادى اثنين من رجال الجندرمة ، وأمرهما بأقتيادى الى هناك . وعند خروجى من الغرفة أستطعت الافلات منهما بمعونة يوسف باشا المنديل والحاج عيسى الامام ، اللذين حضرا فى ذلك الوقت مصادفة ، وأسرعت الى غرفة الوالى ، فوجدت سعاد بك وكيلا عنه بسبب سفره الى الناصرية ، وكان بين الحاضرين السيد طالب بك النقيب . فلما رويت الحادث ثار ثائرهم ، وأرسل وكيل الوالى بطلب نشأت بك ، فجاء هذا مزمجرا وقابل تأنيب سعاد بك والسيد طالب بالأصرار على سجنى ، حتى أنه أمر خمسة من رجاله بأنتظارى خارج غرفة الوالى وأقتيادى قسرا الى السجن . فخرج وكيل الوالى من غرفته وأنذر الرجال الخمسة بطردهم من الخدمة اذا مسني أحدهم بسوء . ثم دعى ثلاثة من أفراد البوليس لمرافقتى ليل نهار ، وطلب من المدعى العام ، وهو من أصدقائى ، أن يرافقنى فى طريقى الى البيت . وعندما خرجت

من غرفة الوالى وجدت حشدا غفيرا من الشباب البصرى حملوا السلاح لنجدتى ، فسرت وسطهم فى شبه مظاهرة مسلحة .

وفى عصر ذلك اليوم عقد أجتماع فى دار السيد طالب أبرق فيه المجتمعون برقيات شديدة اللهجة الى ناظم باشا استنكارا للحادث المذكور ، كما أبرق وكيل الوالى برقية مماثلة . وفى الليلة ذاتها عاد الوالى سليمان نظيف من المنتفك فدعانى لمقابلته ، وأبدى أسفه الشديد لهذا الاعتداء ، وأنب نشأت بك بحضورى تأنيباً قاسياً . وكأن الظروف أنقلبت كلها على نشأت هذا ، فجاءت برقية من ناظم باشا بعزله من منصبه ، ثم تلتها برقية أخرى بعد ثلاثة أيام بعزل شاكر بك أيضا . حينئذأذنت لحراسى بالانصراف.. وكفى الله المؤمنين شر القتال ...

وفى أواخر تشرين الاول ١٩١٠ احتجبت « الايقاظ » عن الصدور بسبب سفرى الى الحجاز لاداء فريضة الحج . فكان أحتجابها هذا نهائياً .

حوادث أخرى

زواجى

فى ٢٢ تموز سنة ١٩٠٩ تم عقد قرانى على كريمة الحاج طه الموصلى فى حفل جمع المعارف والأصدقاء .

مدرسة مسائية

فى شباط سنة ١٩١٠ أسست ، بالتعاون مع المحامى عمر فوزى ، مدرسة مسائية لتدريس اللغة التركية ، استجابة لرغبة الكثيرين من موظفى الحكومة والشركات . وعينت فيها محمد رؤوف العطار معلما للرياضيات . وفى خلال أشهر قلائل تيسّر لطلابها أتقان التركية ، فأغلقناها بعد أن تم القصد من تأسيسها .

لجنة الاسطول

وفى أجتماع كبير فى ١٠ مارت سنة ١٩١٠ جرى أنتخاب لجنة الاسطول ، بطلب من وزارة الداخلية ، ففاز الذوات التالية اسماؤهم :ـ

الحاج محمود باشا العبدالواحد ، السيد هاشم بك النقيب ، الشيخ عبدالله باش أعيان ، يوسف باشا المنديل ، المؤلف ، عبدالوهاب باشا القرطاس ، محمد المعتوق ، يوسف عبدالأحد ، يعقوب نواح •

وأنتخب الأعضاء من بينهم الحاج محمود باشا رئيساً أولا ، ويوسف باشا المنديل رئيساً ثانياً ، ومؤلف الكتاب محاسباً ، ويوسف عبدالأحد أميناً للصندوق •

وكان من واجبات اللجنة اسداء المعونة المالية للاسطول العثمانى •

المدرسة الصناعية

فكرت فى تأسيس مدرسة صناعية على شكل شركة مساهمة للمنسوجات ، على غرار شركةالمنسوجات التى كانت قائمة فى بغداد يومذاك ، يكون رأسمالها مبدأيا الف ليرة عثمانية ، ويعمل فيها الايتام واولاد الفقراء بأجور قليلة مقابل ايوائهم وتعليمهم القراءة والكتابة • فيعود المشروع بالنفع على طلابها وعلى الشركة ، التى كانت فى الحقيقة نواة لصناعة المنسوجات فى البصرة على نطاق واسع • وبالفعل نشرت مقالا عن هذه المدرسة فى صحيفتى ، أبنت منافعها ، وحددت يوم ٨ تشرين الاول سنة ١٩٠٩ موعدا للاجتماع فى مدرسة (يادكار حريت) • جرى الاجتماع فخطبت فى القوم داعيا للمشروع ، وعرضت عليهم نماذج من منسوجات شركة بغداد • ثم نهض السيد طالب النقيب وحضهم على مؤازرته وأفتتح الاكتتاب ، فحذا حذوه الحاضرون حتى بلغ مجموعه فى تلك الجلسة ٤٤٠ ليرة •

وبينما كنت منهمكا فى وضع نظام المدرسة والشركة ، اذ قدم البصرة الوالى سليمان نظيف ، فأفاد بأنه سوف يطلب من الوزارة تأسيس مدرسة صنائع مجهزة بكافة الوسائل اللازمة • فلما بلغنى وبلغ الناس وعد الوالى فترت همتنا ونبذنا التفكير بالمشروع • وقد علمت بعد ذلك أن الوالى كتب بهذا الشأن الى المراجع المختصة فلم تجبه الى طلبه •

الجمعية العلمية الأدبية

أقنعت فريقاً من أدباء البصرة وعلمائها لتأسيس جمعية تخدم الأدب والعلم . وكان المؤسسون يجتمعون فى بناية مدرستى لوضع نظامها الداخلى . وبعد الحصول على موافقة الحكومة بتأسيسها عقدنا أجتماعا كبيرا ، فى ٨ نيسان ١٩١٠ ، فى ساحة المدرسة ، حيث جرى أنتخاب الهيئة الادارية ، فأسفر عن أنتخاب : الشيخ عبدالله باش أعيان للرئاسة ، وصبرى أفندى أميناً للصندوق ، ويوسف المنديل ، ويوسف ذياب ، والمؤلف ، وعمر فوزى ، وعبدالملك الشواف ، وعبدالعزيز التكريتى ، والقس وانيس أعضاء .

وقد نظمت الجمعية اجتماعات أسبوعية تلقى فيها المحاضرات العلمية والمناظرات الأدبية ، حضرها الكثير من الاهلين والطلاب . وقد انحلت الجمعية عندما أغلق الاتحاديون أبواب المدرسة .

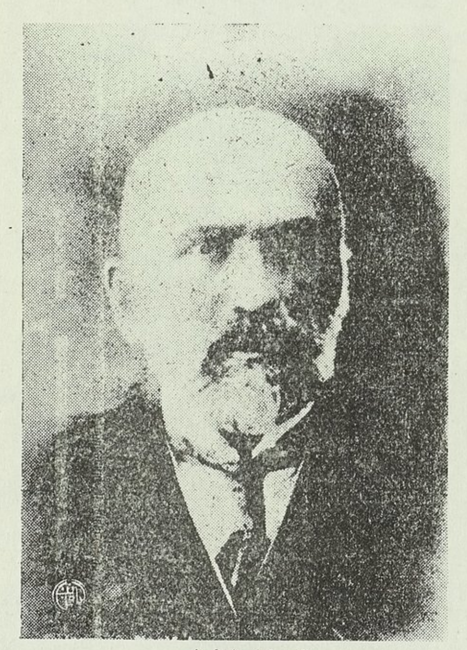
عضوية المحاكم

وفى ٣ شباط سنة ١٩١٠ انتخبت عضوا فى هيئة محكمة الحقوق ، ثم أسندت الي رئاسة المحكمة المذكورة ، بالوكالة ، كما سيأتى ذكره فى البحث القادم

الوالى سليمان نظيف

دخل البصرة فى اليوم الاول من تشرين الثانى عام ١٩٠٩ ، بعد حجره أربعة عشر يوما فى المحجر الصحى . وفى طريقه بالعربة من رصيف الباخرة الى مقر الولاية أوعز الى رئيس البلدية الجالس برفقته بهدم دار البهرة ودار المنديل ... وبالفعل تمّ الهدم وعدّل الشارع ، رغم توسط القنصل البريطانى لايقاف الهدم فى دار البهرة . ثم مرت بضعة ايام فاذا بالوالى يأمر بهدم السوق الكائنة فى السيمر كيما يتسنى مدّ شارع البصرة ـ عشار حذاء النهر . ونفذت البلدية الأمر دون أن تدفع لمالك السوق ، اغا جعفر عبدالنبى التاجر المعروف ، تعويضاً عن الأضرار التى لحقت بأملاكه . فشكا الامر الى الوزارة ، وأرسلت هذه أستيضاحاً حول القضية . وبدون علم من

الوالى ، نظمت بلدية البصرة مضبطة تفيد بأن الوالى لم يهدم السوق ، وبأن أغا جعفر شخص مجهول ، ووقع فى ذيلها حوالي المائة وخمسين من وجوه البصرة !.. فلما جيء بالعريضة الى مكتبى فى الجريدة رفضت توقيعها ، وأعدتها الى رئيس البلدية عبدالمحسن باشا الزهير ، مع تعليق شفوى بترفعي عن أن أكون شاهد زور . فجاءنى رئيس البلدية متذمرا من هذا التعليق ، ونصحنى بالتوقيع تحاشيا لغضب الوالى علىّ ، فلم أرضخ لنصحه . وفى اليوم التالى وردتنى تذكرة من جمعية الاتحاد والترقى للحضور ، فذهبت ووجدت الجميع فيها قلقين لخبر امس !.. وحاولوا تثنيتى عن عزمى ، فلم يفلحوا . لم ادر يومها لم كل ذلك الاهتمام بأمر توقيع فرد واحد . ولكننى أدركت بعد ذلك ان الذنوب تهون على ضمير المرء اذا شاركته فيها ضمائر الناس الآخرين ... كأن الضمائر الآثمة يعين بعضها البعض فى اتقاء الم الوخز .


سليمان نظيف

علم الوالى بعد أيام بأمر المضبطة ، فانزعج ووبخ الموقعين عليها ، وعلم أيضاً بأمرى فرشحنى لعضوية المحاكم الشاغرة ، تلك العضوية التى يتنافس عليها الاعيان والاثرياء ، وينفقون فى سبيلها المئات من الليرات الذهبية ، ويقدمون لاجلها الرشوات والقرابين .

ففى صباح أحد الايام جاءنى مرافق الوالى يحمل الىّ دعوة منه للافطار فى داره ، فلما ذهبت استقبلنى هاشا وأحتفى بي . ولما صرنا الى المائدة فاتحنى بأمر الترشيح ، قال ان الدافع لانتخابه اياي هو تأكده من نزاهتى وتمسكى

بالحق فشكرت له حسن ظنه ، وأعتذرت عن قبول المنصب بالنظر لضآلة راتبه . فالحّ عليّ في القبول ، وأصررت على الرفض فقال :ـ

اذا لم يكن لديك ايراد آخر غير هذا الراتب فأني أضمن لك راتباً خاصاً طالما أنا في الولاية .

فأعتذرت .. وأخيراً استمهلته أياماً أقرّر فيها الرفض أو القبول .

وفي خلال هذه الايام كنت أسمع اللغط الدائر حول ترشيحي بين الذوات ، من جهة ، وألمس السرور الذي عمّ الأوساط الشعبية والمثقفين ، من جهة أخرى . حتى بلغني أن عدداً غيرقليل من أعيان المدينة وقعوا مضبطة يطعنون فيها بلياقتي لاشغال المنصب ، قائلين عني انني لست بصرياً ، ولست من أشراف البصرة ، ولا من ملاكيها . وتقدم وفد منهم بالعريضة الى الوالي ، فأجابهم :

ـ اذا كان توفر هذه الشروط للحصول على المناصب الحكومية ضروريا ، فكيف أذن أصبحت والياً عليكم ، وأنا لست بصرياً ، ولست من أشراف البصرة ، ولا من ملاكيها ؟ ...

لقد أثار فيّ خبر المضبطة روح العناد ، وشعرت بأن الدرس الذي ألقاه الوالي على (الاشراف) كان قيما ، فمن واجبي أن أتمه عليهم ، وهكذا كان . وعندما تسلمت أمر التعيين قلت للوالي مازحاً :

ـ أتسمح لي أن أبيع أمر هذا التعيين بماءتي ليرة لأحد (الاشراف) ؟

فضحك ، وأجاب قائلا : اني أعلم أن سوق التعيينات رائجة جداً بينهم .

أستمر أشتغالي في العضوية أربعة أشهر أستحوذت عليّ بعدها ضائقة مالية . فقدّمت أستقالتي الى الوالي ثلاث مرات فرفضها ، وفي الرابعة رافقني يوسف باشا المنديل وعبدالملك الشواف مفتي البصرة لاقناعه ، فأقتنع وقبل الاستقالة .

بعد هذا بحين حدث خلاف بين الوالي والسيد طالب النقيب ، ثم توسعت شقة الخلاف حتى اصبح عداءا مستحكماً . وفي يوم من شهر ايلول عام ١٩١٠

طلبني السيد طالب بك للحضور في داره ، وكلفني بترجمة كتاب شكوى على الوالى الى اللغة التركية . فلما طالعت الكتاب قلت له : لقد اسأت يوما الى سليمان نظيف فقابل اساءتي بالاحسان ، وأن يداى اليوم لا تطاوعاني على الاساءة الى من أحسن الى" . ثم استأذنته وأنصرفت .

كثرت الشكاوى على الوالى بتحريض من السيد طالب ، حتى صدر الامر بعزله ، فغادر البصرة فى ٣ تشرين الاول عام ١٩١٠ على باخرة . وكنت بين القلائل الذين ودعوه على رصيف الميناء . وفى مساء اليوم نفسه ذهبت الى ديوان السيد طالب ، للمذاكرة معه حول قضية جزائية كان قد كلفني بالتوكل فيها ، فوجدت حوله ثمانية من الوجهاء كان ثلاثة منهم فى توديع الوالى . وكان السيد طالب مبتهجاً بظفره على خصمه ، فوجه الى الحاضرين سؤالا عن كيفية سفر الوالى وعن أى سبيل سلك . فلم يجبه أحد ، كأنهم لا يعلمون ، وعلت وجوههم صفرة الخوف ، وساد المجلس الوجوم . أما أنا فلم أحتمل هذا الجبن ووصفت له التوديع . فقال متظاهراً بالاستغراب : وما أدراك أنت بهذه التفاصيل ؟ .

أجبت : كنت فى توديعه حتى رقى سلالم الباخرة .

فقال : ومن كان أيضاً من غير الموظفين ؟

قلت : ليس لى شأن فى هذا وعلى" بنفسى .

وخرج السيد طالب من الغرفة ، وأنتحى ركناً من الممر ونادانى ، فلما أقبلت عليه قبلني من جبيني وقال :ـ لقد سموت عندى ياذا الصدق والوفاء . ثم أخرج ورقة وقدمها الى" ، فقرأت فيها اسماء المودعين بالتمام ، وبينهم أسمي وأسماء الثلاثة الواجمين وقال :ـ أن ضعاف النفوس يحسبون أنى أغضب من وفاء الصديق لصديقه حتى ولو كان ذلك الصديق عدواً لدوداً لي .

منذ تلك الساعة حلت بيني وبين السيد طالب ثقة تفوق ثقة الأب

بأبنه ، والأخ بأخيه ، تلك الثقة التى ألقت على كتفي ، فيما بعد ، عبئاً ثقيلا من المهام الجسام ... فما خارت قواي ، ولا ضعفت ، بل حملته جذلا ومسروراً .

الصحافة فى العراق

للصحافة العراقية تاريخ مجيد . فقد كانت الصحف محور الحركة الوطنية فى العراق يوم لم يكن فيه أحزاب أو منظمات سياسية . كانت تقارع الاستبداد بشجاعة فائقة ، وتتلقى الضربات بصبر وثبات ، حتى أن المواقف الجريئة التى وقفها أصحاب الصحف الحرة فى أشد الايام عبوساً ، والتى أحتفظ بها فى مذكراتي لتملأ الصفحات الطوال . وأني سوف أقصر البحث على سرد بسيط لأسماء الصحف وأصحابها ، ولبعض الاحداث الهامة حولها .

صحف البصرة

فى ٣ مايس سنة ١٩٠٩ صدرت جريدة (الايقاظ) لصاحبها مؤلف هذا الكتاب ، وأغلقت فى تشرين الاول عام ١٩١٠ .

وفى ٣ حزيران ١٩٠٩ صدرت جريدة (التهذيب) لصاحبها الشيخ محمد أمين عالى باش أعيان ، وأغلقت فى مارت ١٩١٠ .

وفى تموز سنة ١٩٠٩ صدرت جريدة (اظهار الحق) لصاحبها قاسم جلميران ومحررها السيد عبدالقادر العبادى ، وأغلقت فى نيسان سنة ١٩١٠ على أثر مقتل صاحبها بأيدى فلاحيه .

وفى كانون ثانى سنة ١٩٠٩ صدرت جريدة (مرقعة الهندى) الفكاهية لصاحبها الحاج أحمد حمدى المشراقى ، ثم أبدلت بجريدة (البصرة الفيحاء) التى أغلقت فى تشرين الاول سنة ١٩١١ .

فى تموز سنة ١٩١٠ صدرت جريدة (الفيض) لصاحبها المحامى داود نيازي ، وأغلقت فى نيسان سنة ١٩١١ على أثر أنتحار صاحبها .

في كانون الاول سنة ١٩١٠ صدرت جريدة (الرشاد) لصاحبها السيد يوسف السامرائى ، وأغلقت فى تشرين الاول ١٩١١ ٠

فى آب ١٩١١ صدرت جـريدة (الأتي) لصاحبها المحـامى عمـر فوزى ، وأغلقت فى كانون الاول سنة ١٩١٢ ٠

فى شباط ١٩١٢ صدرت جـريدة (التـاج) الفكاهية لصاحبها محمد المشراقى ، وأغلقت فى مايس سنة ١٩١٢ ٠

فى تشرين الاول سـنة ١٩١١ صدرت جريدة (المنير) لصاحبها أحمـد جودت كاظم ، وأغلقت فى آخر كانون الاول من السنة ذاتها ٠

فى آذار ١٩١٢ صدرت جريدة (الدستور) لصاحبها السيد عبدالوهاب الطباطبائى ، فلما أغلقتها الحكومة صدرت (صدى الدستور) عوضاً عنهـا ودامت الى أحتلال البصرة فى كانون الاول ١٩١٤ ٠

لكل من هذه الجرائد مواقف مشرفة ، ولـكل من أصحابها نصيب من بطش الحـكومة وظلمهـا ٠

صحف الموصل

لم يكن يوجد فى الموصل منذ عام ١٨٨٥ حتى تموز عام ١٩٠٩ غير الجريدة الرسمية ٠ وفى ذلك التاريخ صدرت جـريدة (نينوى) لصاحبها فتـح الله سـرسم ومديرها محمد أمين الفخرى ، وكانت معتدلة فى خطتها فلم تغضب الحـكومة ٠

صحف بغـداد

أصدر مدحت باشـا جريدة (الزوراء) الاسبوعية فى حـزيران عام ١٨٦٩ ، التى كانت تطبع فى مطبعة الحـكومة ، وتنشر القوانين والانظمـة بالتركية فى صحيفتين وترجمتها بالعربية فى صحيفتين أيضاً ٠ وبعد الانقلاب العثمانى أقبل الكتاب والأدباء على اصدار الصحف والمجـلات ، فأصدرت جمعية الاتحاد والترقى أول جريدة يومية سمتها (بغـداد) ٠ وكان مديرها

مراد سليمان . أحد أركان الجمعية ، ورئيس تحريرها معـروف الرصافى .

وفى كانون ثانى سنة ١٩٠٩ صدرت جريدة (الرقيب) لصاحبها الحاج عبداللطيف ثنيان ، وكانت أجرأ الصحف آنذاك فى نصرة الحق وفى مقارعة ظلم الحكومة . فلاقى صاحبها من العنت والاضطهاد الشيء الكثير . وأستمرت الصحيفة فى صدورها أكثر من سنتين ثم أغلقت .

وفى ٦ كانون الاول سنة ١٩٠٩ صدرت جـريدة (بين النهـرين) لصاحبها محمود نديم الطبقجلى باللغتين التركية والعربية . وكان يحرر القسم العربى فيها الكاتبان المعروفان كامل الطبقجلى وابراهيم صالح شكر فانتشرت الجريدة أنتشاراً واسعاً ، ودعا صاحبها للفكرة العربية ، وأسس فرعاً لحزب الحرية والائتلاف فى بغداد ، فثار ثائر الاتحـاديين ، وصدر الامر بالقبض عليه ، وحكمته المحكمة بالسجن غياباً ، فهرب الى البصرة ، ملجأ الاحـرار آنذاك ، محتميـاً بالسـيد طالب النقيب .

وفى كانون الثانى سنة ١٩١٠ صدرت جـريدة (الرياض) لصاحبها سليمان الدخيل ومحررها ابراهيم حلمى العمر الذى أصبح فيما بعد كاتبا سياسيا مشـهورا .

وفى آب سنة ١٩١٠ صدرت جـريدة (الروضة) لصاحبها الحـاج عبدالحسين الازرى ، فلما عطلتها الحكومة صدرت بدلا عنها جريدة (المصباح الأغـر) .

ثم صدرت جريدة (الرصافة) لصاحبها صادق الاعرجى ، فلما عطلتها الحكومة صدرت عوضاً عنها جـريدة (الصاعقـة) التى كان يملك أمتيازها عبدالكريم الشيخلى . وغضب الوالى على هذا التحايل فأوعز الى بعض السوقة والرعاع بتقديم الشكاوى على الأعرجى وأوقفه فى السراى ، فتجمهر خلق كثير احتجاجا على توقيفه ، وأمطروا استانبول بالبرقيات الشديدة اللهجة ، فأطلق سـراحه .

وفى ٣ تشرين الاول سنة ١٩١٣ صدرت جريدة (النهضة) لصاحبها

مزاحم الباجهجى ورئيس تحريرها ابراهيم حلمى العمر • ولما شددت (النهضة) النكير على الاتحاديين ، وطالبت بحقوق العرب ، وأسس صاحبها وبعض الشباب النادى العلمى ، عطلتها الحكومة بعد صدور أحد عشر عددا منها فقط •• ولجأ صاحبها ومحررها الى البصرة •

وعندما أعلنت الحرب العالمية الاولى أصدرت وزارة الداخلية أمرا بتعطيل جميع الصحف فى بغداد والبصرة ، غير أن (صدى الدستور) البصرية أستمرت فى الصدور معتمدة على نفوذ السيد طالب النقيب وحزبه •

ولم تكتف الحكومة بتعطيل الصحف ، بل شردت أصحابها ، فنفت عبدالحسين الازرى ، وداود صليوة صاحب جريدة (صدى بابل) ، والأب أنستاس الكرملى صاحب مجلة (لغة العرب) الى قيسرى ، ونفت ابراهيم صالح شكر وعبداللطيف ثنيان الى الموصل ، وفر سليمان الدخيل الى نجد ، ولجأ الكاتبان السيد رشيد الهاشمى والشيخ كاظم الدجيلى الى البصرة •

نشوء العنصرية التركية والتظاهر بكره العرب

لم تكن العنصرية التركية ذات موضوع قبل عهد جمعية الاتحاد والترقى • وكانت الشعوب التى تضمها الامبراطورية العثمانية تعامل على حد سواء • حتى أن الاتراك أنفسهم ، لتمسكهم بالدين الاسلامى ، كانوا يشيدون بذكر الخلفاء الراشدين وآل الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويفتخر سلاطينهم بكونهم خدام الحرمين الشريفين • فلما جاءت الجمعية الى الحكم أبتدع بعض زعمائها فكرة السيطرة التركية على الشعوب الخاضعة لها ، وراحوا يقنعون الترك بأفضليتهم على سواهم من الشعوب المحكومة • وقد ساهمت الصحافة الاتحادية بنصيب كبير فى هذه الدعوة ، فنشرت صحيفة (الاقدام) التركية مقالا جاء فيه : ان العرب يبيعون كل شيء بالمال •• حتى العرض •• الى غير ذلك من الطعن بشرفهم والدس على شهامتهم وتقاليدهم • فقابلت الاوساط العربية فى استانبول هذا المقال بالسخط والهياج ، وتظاهر الطلبة العرب فيها فهاجموا ادارة الجريدة وحطموا نوافذها وأهانوا محرريها •

ثم ذهب وفد من النواب العرب الى رئيس الوزارة ووزير الداخلية وقدموا أحتجاجهم ، كما أبرقوا الى جميع الصحف فى البلدان العربيـة بتفاصيل الامر ، فراحت هذه تسلق كاتب المقال بالسنة حداد ، وأشتد التوتر بين الترك والعرب على أثرها • وقد حكم الديوان العرفى بتعطيل الجريدة المذكـورة تعطيلا دائمياً وتغريم صاحبها مائة ليرة عثمانية • ولم تمض مـدة وجيزة على الحادث المذكور حتى صدرت بدلها صحيفة (الاقدام الجديد) التى راحت تدعو الى تنقيح اللغة التركية من المفردات العربية •

ثم تحورت الدعوة الى التمهيد لتتريك العرب والاقوام الاخرى ، فنشر أحد زعماء الجمعية مقالا فى أحدى الصحف جاء فيه :ـ

« على الاتراك أن يسموا دولتهم (الدولة التركية) وينبذوا اسم (الدولة العثمانية) البـالي ، وعليهم ألا يعترفوا بوجود عنصر آخـر يستظل بالراية التركية غير العنصر التركى ، أما العرب والاقوام الاخرى فما عليهم الا أن يكتسبوا العنصرية التركية الرفيعـة » •

وراحوا يضربون على هذه الاوتار ، وأسسوا للغاية نفسها أندية كثيرة بعناوين تركية خالصة مثل : (ترك أوجاغى) أى العائلة التركية ، و (ترك ورنكى) أى ثبات الترك ، و (تورك ياوردى) أى المملكة التركية ، و (تورك بلكسيشى) أى العلم التركى ، و (تورك كوجى) أى القوة التركية •• الخ •

ولم يكتف الاتحاديون بأستخدام الصحافة والمنظمات السياسية لتحقيق أغراضهم ، بل أتخذوا الدين وسيلة لتحقيق تلك الاغراض أيضاً • فقـد أوعزوا الى أحد علماء الدين المدعو عبدالله بالدعوة للمذهب الجديد ، فراح هذا يخطب فى المصلين ايام الجمع فى مسجد أيا صوفيا وغيره قائلا :

(أيها الاتراك المسلمون كفاكم وهنا ومسامحة ، أنفضوا عنـكم هـذا الغبار ، وأمحوا من مساجدكم أسماء الخلفاء الراشدين وآل الرسـول ممن لا يعنيكم أمرهم ، وأكتبوا بدلها أسماء الابطال الاتحاديين أمثـال طلعت ، وجمال ، وأنور ، وجاويد ، الذين هم أولياء الله الصالحين قدس الله سرهم ••

أيها الاتراك ، اذا علمتم أن أحدا لم يجاهد فى صفوف الاتحاديين بماله ونفسه فأقتلوه . أيها الاتراك ، علام هذه التكايا والمساجد الكثيرة فى عاصمتكم ، هلا بعتموها وأقتصرتم على بعض المساجد الكبيرة وقدمتم أثمانها لجيشكم العتيد ... الخ .)

وقد جمعت الحكومة أقوال عبيدالله هذا فى كتيب عنوانه (شعب جديد) ، طبعت منه ملايين النسخ ووزعتها مجانا على الشعب التركى .

ومنذ ذلك الحين ، حمى الوطيس بين العرب والترك ، وأصبح الشبان الاتراك المتحمسون ينظرون الى الاقوام الخاضعة لهم نظرة ازدراء وأحتقار ، فاجابهم العرب بالتكتل والانتظام فى جمعيات علنية أو سرية معادية اهمها :ـ

المنتدى الأدبى

أسسه فى استانبول عبد الكريم قاسم الخليل السورى ، وأحمد عزت الاعظمى العراقى ، وبعض الشبان العرب . صبغته الظاهرية أدبية محضة ، ولكنه كان فى السر جمعية سياسية يلتقى فيها أبناء العروبة ، فيتعارفون ويتآلفون . وكثيرا ما كانت تعقد فيه أجتماعات تلقى فيها الخطب والمحاضرات . وكان يزوره الزعماء الاتحاديون مداهنة وجساً للنبض .

الجمعية القحطانية

أسسها الشهيد سليم بك الجزائرى ، ومن أبرز أعضائها الامير عادل ارسلان ، والشهيد على النشاشيبى ، وعبدالكريم قاسم الخليل ، وعارف الشهابى ، والدكتور اسماعيل الصفار ، والدكتور داود الدبونى الموصلى وغيرهم . ثم انضم اليهم عدد من الضباط العرب .

جمعية العلم الأخضر السرية

أسست بأرشاد من الشهيد سليم الجزائرى أيضاً . وأعضاؤها : الدكتور اسماعيل الصفار ، والدكتور فائق شاكر ، والدكتور داود الدبونى ، وعبدالغفور البدرى ، ومن الضباط على رضا الغزالى ، ومدحت ، وصالح وغيرهم . وكانت الغاية منها تقوية الرابطة الوطنية بين طلبة الكليات وتوجيههم سياسياً .

جمعية اليد السوداء

أسسها الدكتور داود الدبوني ، الذى كان أكثر المتحمسين للفكرة نشاطاً ، حتى انه كان يكره كل تركى على وجه البسيطة . وكان معظم أعضاء هذه الجمعية من طلبة الكليات ومن طلاب الكلية الحربية ، وغايتها الفتك بالخائنين من رجال العرب الذين يناوؤن الفكرة العربية . غير أن هذه الجمعية لم تدم طويلا نظرا لانقسام آراء أعضائها فى طرق التنفيذ ، فأنحلت بعد سنة من تأسيسها .

حزب الحرية والائتلاف

ان السياسة الاستفزازية الخاطئة التى سارت عليها جمعية الاتحاد والترقى لم تكن لتثير حفائظ العرب وحدهم ، بل أن عدداً من احرار الترك ومنصفيهم عارضوها ونددوا بها . فقد نشرت بعض الصحف مقالات تميط اللثام عن نوايا الاتحاديين وعن مساوئهم ، فأجاب عليها الاتحاديون بسلسلة من الاغتيالات . ففى مدة وجيزة صرع برصاص الاتحاديين الشهيد حسين فهمى محرر جريدة (سربستى) ، واحمد صميم محرر (صداى ملت) ، وزكى محرر (شهراه) فى أستانبول ، والأسقف الرومى ، وسليمان الجركسى فى سلانيك ، والمدعى العام هاشم بك ، وحسن الاوقاتى فى مناستر وغيرهم .

أثارت هذه الاعمال سخط عقلاء الاتحاديين ، فنصحوا زملاءهم بالاقلاع عن سياسة الارهاب والبطش ، فما أجدت نصيحتهم . لذلك قدم لفيف منهم أستقالتهم من الجمعية ، وفى مقدمتهم أمير اللواء صادق بك معتمد المركز العام للجمعية ، وأتصلوا ببعض نواب الحزب الحر المعتدل ، الذى سبق أن تأسس فى السنة الاولى من اعلان الدستور ، وأنضم اليهم بعض النواب المستقلين وكثير من المنشقين عن جمعية الاتحاد فى المدن الاخرى ، وأسسوا حزب (الحرية والائتلاف) . ولم تمض أيام قليلة حتى أنضم الى الحزب الجديد بعض النواب الاتراك وفريق من النواب العرب ، والارمن والروم . ثم قوى الحزب بأنتماء كامل باشا ، وحسين حلمى باشا ، ومحمود مختار باشا ، من

رؤساء الوزارات السابقين ، وفتح فروعاً له فى المدن التركية • وكان فرع الحزب فى سوريا هو الوحيد فى البلاد العربية فى بادىء الامر ، الا أنه لم يدم طويلا ، اذ أغلق بعد خيانة البعض من أعضائه العرب وتجسسهم على نشاط رفاقهم •••

وبالرغم من كل هذه الاحداث ، وبالرغم من أفتضاح نوايا الاتحاديين نحو العرب ، وبالرغم من الكفاح المقدس الذى كان يخوضه أحرار العرب فى استانبول وفى بعض المدن العربية ، كان عدد كبير من العراقيين يعاضدون جمعية الاتحاد والترقى ويعملون فى فروعها بنشاط وهمة ، وعلى رأسهم المرحوم الشاعر معروف الرصافى الذى أستمر فى دعوته لهم بقلبه ، وقلمه ، ولسانه ••• يدفعهم أحد دافعين : الجهل ، أو المصلحة الشخصية •

وحين أنس الاحرار العرب من الحزب الجديد تأييده للحق ، جاهروا بسخطهم ونقمتهم ، فقد حدث بعد أغتيال الاتحاديين لاحمد صميم وغيره من المحررين المنصفين ان التقى طلعت باشا وزير الداخلية بشفيق المؤيد النائب السورى الحر على سلّم وزارة الداخلية بأستانبول ، فمد طلعت يده مصافحا ، غير أن شفيقا بادره بضرب يد طلعت الممدودة بقفا يمناه قائلا :ـ انى لا أدنس يدى بمصافحة يد أثيمة تسفك الدماء وتغتال الابرياء فى وضح النهار • فأنفعل طلعت ولكنه لم ينبس ببنت شفة • فلما أرتكب جمال مذبحته المعروفة فى عاليه ، كانت جثة شفيق قد أخذت مكانها بين الجثث المعلقة على أعواد المشانق ، جزاء بطولته ، وجرأته ، وحميته • ففى ذمة الخلود يا شفيق •

النواب العرب يبايعون
الشريف حسين بالخلافة

فى أوائل سنة ١٩١١ أرسل السيد طالب النقيب من استانبول كتابا الى الشريف حسين هذا نصه :ـ

« صارحنى أعداء لغتنا وأمتنا ، ولا سيما خليل بك رئيس مجلس النواب ، بما فى نفوسهم • وهو أنهم سوف يقتادوننا الى المشانق كما تساق

الاغنام الى المسالخ اذا كنا نحن العرب لا نوافقهم على آرائهم ونسير بأوامرهم. ولقد بلغ صدى هذا الوعيد مسامع نواب العرب ، فهاجت حفيظتهم واشتد أحتجاجهم ، حتى ان المجلس اضطر الى توقيف جلسته هذا اليوم .

أن ولدكم الهمام عبدالله سوف يقص عليكم بنفسه نبأ هذا القول والى أية حالة بلغت فظاظته .

أن نواب العرب كافة يؤيدون مولاى بكل قواهم والسنتهم وقلوبهم ، ويشكرون لكم مساعيكم الجسام فى سبيل الحجاز منذ وليتم أمره . ونحن نعترف بغيرتكم على ديننا وأمتنا ، وانا مستعدون للقيام الى جانبكم اذا قمتم لخلع هذا النير الذي أثقل كاهل العرب وسعيتم لانتشالهم مما هم فيه من الظلم والعبودية . وانى مرسل اليكم وثيقة أمضاها ذوو الاقدام والشجاعة من أخواننا العرب يعرضون أن تدافعوا عن حقوق أمتكم ، ويعترفون لكم بالخلافة التى عليها وحدها أن تسهر على مصالح بلاد العرب جمعاء . والسلام عليكم

طالب النقيب »

وهذا نص الوثيقة :

« نحن نواب العرب فى مجلس الامة ، نعهد الى حسين باشا فى حكم مكة ، ونقر بأسمنا وأسم البلاد التى نمثلها بأن له وحده السلطة الدينية على البلاد العربية . ونحن مستعدون أن نجاهر علانية بهذه البيعة متى دعت الاحوال الى ذلك »

ولم يتسن لى الاطلاع على أسماء النواب الذين وقعوا هذه الوثيقة ، ولكننى عرفت منهم ثلاثة فقط وهم : السيد طالب النقيب ، وشكرى العسلى ، ومحمد شفيق باشا المؤيد نائبى دمشق .

رحلة تقدح زناد العصيان

اداء فريضة الحج(١)

أنسابت بنا الباخرة دجلة (الروسية) تتهادى فى شط العرب بين ضفتيه الزاهيتين ثم أستقبلنا خليج البصرة بمياهه الزرقاء وسكونه المطبق . كان ذلك في السادس من شوال عام ١٩٢٨ هـ الموافق ١٠ تشرين الاول عام ١٩١٠ . وأوغلنا فى البحر أياما مررنا خلالها بميناء بوشهر ، وشاهدنا عن بعد جبال مسقط ، ورسونا حينا بمياه عدن ، ثم جيبوتى المرفأ الافريقى . وفى اليوم الرابع عشر منذ بدء السفرة ألقت الباخرة مراسيها فى جزيرة أبى سعد مقابل جدة ، حيث أدخلنا المحجر الصحى ، فقضينا فيه ثلاثة أيام ، سمح بعدها لنا بالدخول الى جدة . أقمت فى جدة يومين ، وغادرتها الى مكة المكرمة فى قافلة على ظهور الحمير ، فقطعنا الطريق الوعر فى اثنتى عشرة ساعة ، وكنا نحادى جبالا جرداء أقيمت على قممها قلاع عثمانيـة .

دخلنا مكة فى اليوم الثانى من ذى القعدة ، وأتخذت لى فيها مسكناً مؤثثاً أصبح بعد أيام ملتقى لنخبة من الحجاج العراقيين ، ومن أدباء مكة ، الذين سرعان ما توثقت الصداقة بينى وبينهم ، حتى انى ألقيت خطابا ـ بناء على طلبهم ـ فى حفلة أقامتها المدرسة الصولتية هناك . وتسنى لى مشاهدة موكب الشريف حسين فى عودته من نجد ، وكان الموكب بالغا الغاية فى الفخامة والبهاء . وقد وفقت لزيارة الشريف مرتين ، فرأيتـه على جانب عظيم من الزهد ، والتقوى ، والعدل ، والتواضع ، لقد كان فى الحقيقـة ملك الحجاز غير المتـوج .

ولما آن يوم الحج ، ذلك اليوم الخالد الذى لا تفارق المرء ذكراه على مر السنين ، سعيت بين الصفا والمروة كأن لى جناحي طائر ، وقبلت الحجر الأسود بلهفة المشوق المستهام .

وبعد الاقامة فى مكة زهاء خمسين يوما غادرتها ، عن طريق ينبع ، الى

---

(١) جاء وصف هذه الرحلة فى كتاب (التحفة الايقاظية فى الرحلة الحجازية) المطبوع فى البصرة عام ١٣٣١ هـ ـ ١٩١٣ م .

المدينة المنورة ، حيث تشرفت بزيارة قبر الرسول الأعظم • ولبثت فيها ثمانية أيام ثم غادرتها بالقطار الى دمشق •

وكان القطار قديما ، مهلهلا ، بطيئا ، ولم تصادفنا فى الطريق محطات مأهولة • ثم وصلنا تبوك ، حيث يجرى الحجر الصحى ، فوجدنا المحجر عبارة عن مجموعة من الخيام الصغيرة المنصوبة على أرض رطبة ، فكانت أيامنا الست فيه على أسوأ ما يكون • وفى المرحلة بين تبوك ودمشق وقف القطار بعمان ، وكانت فى تلك الايام قرية صغيرة • وفى منتصف ليلة ٣١ كانون ثانى سنة ١٩١١ م وصلنا دمشق •

دمشق

نحن الآن فى سنة ١٩١١ ، والثلوج تكسو سطوح الدور المرصوفة بالقرميد ، وقبب المساجد الأنيقة • وهذا الترامواى ، فى غدوه ورواحه ينساب فى شوارع المدينة ، المبلطة بالحجر ، أنسياب الدم فى الشرايين •

انى أذ أرقب الميدان الواسع (ساحة المرجا) من نوافذ فندق اميركا القديم(١) لا أرى غير الذوق والنظافة • هذه الأصص التى تغطى النوافذ والسلالم ، وتلك الاحواض الجميلة التى تتوسط المدينة ، وبردى يتلوى رائقاً فى مجراه المكسو بالحصى • وانى أذ أخالط أهل المدينة لا القى منهم غير التودد وحسن المعاشرة ، فهم أهل دين ، وطرب •• يروحون عن أنفسهم بالتنزه فى الجنان المحيطة بالمدينة ، ضاربين على الاوتار منشدين أشجى الالحان ، حتى اذا حان وقت الصلاة رأيت المساجد مكتضة على رحبها بالمصلين • وكان يحلو لى التجوال فى سوق الحميدية العامر بأصناف البضائع النفيسة • وفى الثلاثين يوما التى قضيتها فى دمشق ، مضطرا بسبب الثلوج المتراكمة على السكك الحديدية ، تعرفت بطائفة من الاصحاب ، مثل الاستاذ العلامة محمد كرد علي وأخويه محمود وأحمد ، والرئيس عارف قفطان (عنه) ، والحاج محمد البسام ، كما كان هناك من رفقائى فى الحج على الشواف ، وحمادى

---

(١) انشىء بدله فندق أمية الحالى •

العريم ورحيم العريم ، الذين أقعدتهم الثلوج عن مواصلة السفر الى العراق .
غادرت دمشق الى حلب بأول قطار ، فوصلتها فى ٢ آذار سنة ١٩١١ .
وحلب مدينة صناعية أشتهرت بمنسوجاتها الحريرية المزركشة ، والمناشف القطنية المطرزة ، وبأنتاج الصابون . والمدينة مبنية بالحجر ، أزقتها ضيقة ، تتوسطها القلعة التاريخية المشهورة المشادة فوق رابية عالية محاطة بخندق عميق .

وفى السابع من الشهر نفسه ودعت رفاقى ، الذين توجهوا بدورهم الى العراق ، وأخذت أنا القطار النازل الى بيروت .

بيروت

مرفأ جميل يقع حيث تتلاشى أمواج البحر الابيض المتوسط عند أقدام جبال لبنان ، والمدينة جميلة ، ذات شوارع عريضة وميادين فسيحة وأبنية شاهقة ، يخترقها الترام فيربط أطرافها ربطاً وثيقاً ، وتنار بالكهرباء فتتلألأ فيها الاضواء ليلا ، وتعج اسواقها بالبضائع العصرية ، وتنتشر فيها المدارس والمعاهد العلمية والمكتبات ، وتقوم فى طرف منها أبنية الجامعة الاميركية .
وأهل المدينة متعلمون ، يحسن معظمهم بعض اللغات الاجنبية ، ويكفيك برهانا على رقي البلاد أن عدد المدارس المختلفة فى ولاية بيروت ومتصرفياتها الاربعة كان فى ذلك الحين ٦٢٩ مدرسة ، يأمها نحو من ٤٥ الف طالب وطالبة ، يواكبهم عدد كبير من الاساتذة والمعلمين .

أقمت فى بيروت حوالى الاسبوع تعرفت خلاله على عدد من الصحفيين الذين سبق أن راسلتهم حين أشتغالى بالصحافة ، وأخص بالذكر منهم :ـ
عبدالباسط الأنسى صاحب جريدة (الاقبال) ، والشيخ أحمد حسن طبارة صاحب جريدة (الاتحاد) ، وعبدالغنى العريسى صاحب جريدة (المفيد) ، وطه المدور ، وتوفيق جانه ، وعبدالرزاق الحصان ، وغيرهم .

وفى يوم ١٣ آذار ١٩١١ غادرت بيروت على ظهر باخرة فرنسية الى أستانبول ، فوصلناها بعد ثلاثة أيام .

استانبول عام ١٩١١

عروس زمانها ، هذه المدينة المدللة ، قلب الامبراطورية المترامية الاطراف .. كل ما فيها ينطق بالرخاء والجمال ... البسفور الساحر وضفافه الرائعة ، والمنائر التى استطالت الى عنان السماء ، والقباب اللامعة كأنها قرص الشمس عند المغيب ، وقصور السلاطين ذات البهاء ، والروابى النضرة حول المدينة آخذ بعضها برقاب بعض .

دخلتها وأنا أشد ما أكون لهفة لاستجلاء مفاتنها وللتفرج على معالمها ، الا أن قلقى بسبب الامتحان الذى كنت سأجتازه للحصول على شهادة الحقوق أفسد علىّ كل متعة . وعولت على الانصراف بكليتى الى التحضير . ثم قدمت طلباً الى وزارة المعارف أرفقته بكافة الوثائق التى تشهد على كفاءتى من محاكم البصرة ومن مجلس ادارتها ، فجاءنى الرد بالقبول . وهكذا جرى امتحانى تحريريا ومنفردا فى كلية الحقوق فى استانبول فى حزيران عام ١٩١١ ، فى المواضيع الآتية :

المجلة ، الأوقاف ، الوصايا ، الفرائض ، الاراضى والطابو ، التجارة البرية والبحرية ، التشكيلات القضائية ، أصول المحاكمات الجزائية والقضائية ، قانون الجزاء ، القانون الدولى العام والخاص ، الحقوق الأساسية ، الاقتصاد والمالية ، والصكوك .

لبثت أياما أنتظر نتيجة الامتحان ، لم أشأ خلالها أن أتصل بأحد من معارفي حتى كان اليوم الذي جاءت به البشرى ، فكتبت كلية الحقوق الى وزارة المعارف عن نجاحي ، وهذه بدورها أخبرت وزارة العدلية ، وهذه الاخيرة منحتنى الشهادة التى تخولنى حق ممارسة المحاماة فى جميع محاكم الدولة العثمانية ، أستنادا الى المادة ٣١ والمادة ٣٥ من نظام كلية الحقوق الصادر سنة ١٢٩٣ هـ ، ونظام المحامين الصادر سنة ١٢٩٢ هـ .

أما وقد زال هذا الكابوس عنى ، فقد بادرت الى زيارة اصدقائى الموجودين هناك ، مثل السيد طالب النقيب وعبدالوهاب باشا القرطاس ،

وبعض الصحفيين ، وفريق من الطلاب العراقيين ، كما أديت واجب الزيارة لمحرم بك والى البصرة الاسبق وسليمان نظيف واليها السابق .

وفى يوم جمعة لبيت دعوة السيد طالب لتناول الغداء فى داره ، وجلسنا بعد الغداء نتجاذب أطراف الحديث ، فأقترح علىّ أن اتأخر للتعرف على نخبة من أعضاء حزب الحرية والائتلاف كان قد دعاهم لتناول الشاى ، فقبلت . وعند مجيئهم تعرفت على أحدهم نائب دمشق الجرىء شكرى بك العسلى ، وتوثقت بيننا أواصر المودة والصداقة . وقد دارت الأحاديث حول توتر العلاقات بين الترك والعرب بعد الذى أبدته جمعية الاتحاد والترقى من تعصب للقومية التركية ، ومحاولة غرسها فى نفوس الشباب ، والعمل على تتريك العرب ومحو عنصريتهم ، وكيف أن بعض العقلاء والاحرار الاتراك ناوأوا هذه الحركة الهدامة .

والحقيقة أن هذا الموضوع الخطير كان حديث البلد بأسره فى ذلك الوقت ، حتى انى حين زرت المنتدى الأدبى فى استانبول سمعت أعضاءه وزائريه يتهامسون عن الاخطار المحيقة بالعرب اذا أسترسل الاتحاديون فى مشروعهم الغاشم .

وقد تسنى لى حضور أربع جلسات صاخبة فى المجلس النيابى . شاهدت فى أحداها المشادة التى حدثت بين النائب المعارض لطفى فكَرى ، أحد أعضاء حزب الحرية والائتلاف ، وبين طلعت بك وزير الداخلية الاتحادى . ففى الخطاب الذى القاه النائب الجرىء ، والذى عدد فيه مساوىء الحكومة ، تناول بالبحث بعض المخالفات التى ارتكبها وزير الداخلية . فما كان من هذا الا أن أشهر مسدسه وسدده الى الخطيب ، وكان الخطيب من الشجاعة بحيث لم يتخاذل ، بل فتح صدره قائلا :ـ

أما كفاكم أغتيال الأحرار فى الاسواق والطرقات حتى تجاسرتم على سفك دماء المعارضين تحت قبة البرلمان ، ليتك ياطلعت أطلقت النار ، أذن لرأيت عاقبة الأمر .

وهنا تدخل النواب فأقنعوا طلعت بالجلوس ، وتوسلوا الى الخطيب أن يكف عن الخطابة ، فأمتنع وأصر على أن يسرد كل مساوىء الحكومة لتدون فى محضر الجلسة فتطلع عليها الامة .

وفى جلسة أخرى وقف شكرى العسلى خطيبا ، فندد بسياسة الحكومة فيما يخص العنصرية ، وطالب بحقوق العرب . فضج النواب الاتراك وصاحوا : أتريد أن تفرق بين الترك والعرب ؟.. قال : كلا ، بل أن الترك بدأوا بهذه التفرقة ، وهم عاملون على سحق قوميتنا ومحو تاريخنا المجيد . وأسترسل فى خطابه البليغ رغم ما أحدثه النواب الاتراك من قرقعة على الطاولات والكراسى .

أن ما شهدته فى أستانبول كان كافيا لاثارة حقدى على جمعية الاتحاد والترقى . فآليت على نفسى أن أكافحها وأقاومها ما أستطعت الى ذلك سبيلا ، وعولت على العودة الى البصرة للبدء فى ذلك الكفاح .

العودة الى البصرة

ركبت الباخرة الى بيروت ، ووجدت فى صحبتى عبدالمجيد الشاوى نائب العمارة وولده سعدونا . ومن بيروت أخذنا القطار سوية الى حلب ، ومن حلب الى مسكنة على الفرات بالعربات . ومن مسكنة أنحدرنا فى زورق بخاري بطيء فوصلنا الرمادى بعد مسير أربعة أيام جنح فيها الزورق أكثر من مرة بسبب ضحولة النهر . وفى الرمادى أستقبلنا آل عريم الكرام ، الذين توثقت بينى وبينهم روابط الصداقة فى الحجاز . وتابع الزورق سيره الى الفلوجة وبعد أستراحة قصيرة فى دار الحاج رحيم العريم فى الفلوجة توجهنا نحو بغداد على ظهور الخيل ، فوصلناها بعد منتصف الليل ، ولم يطل بقائى فيها فسافرت بالباخرة النهرية (برهانية) ، ووصلت البصرة بعد سبعة أيام . وبعد وصولى لبثت فى دارى ثلاثة أيام أستقبل المهنئين بادائى فريضة الحج وبنيلى شهادة الحقوق .

أسست مكتبا للمحاماة ، كان أول مكتب من نوعه فى البصرة ، اذ كانت

العادة الجارية أن يستقبل المحامون مراجعيهم فى دورهم • ولسوء الحظ كان هذا المكتب مقابلاللمدرستى التى أغلقهاالاتحاديون وأتخذوها نادياً لهم ، فكانت أجتماعاتهم فيه تثير خواطرى •

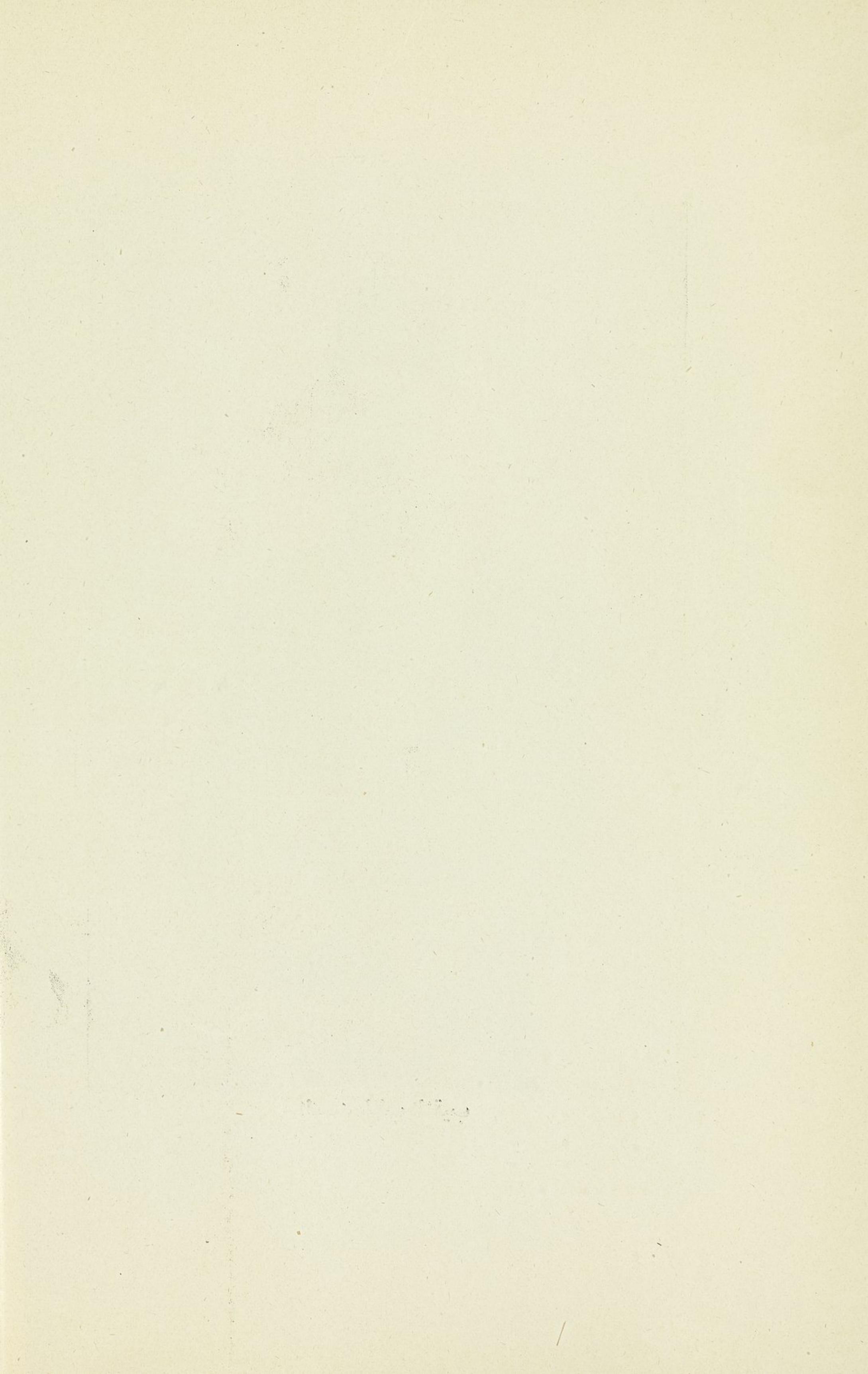
تأسيس حزب الحرية والائتلاف فى البصرة

دعوت فريقا من الاصدقاء للاجتماع فى مكتبى ، وهم : اسماعيل السامرائى ، عبدالكريم السامرائى ، وعبدالوهاب وعبدالعزيز وعبدالمحسن الطباطبائى • وتذاكرنا فى موضوع المظالم الاتحادية وضرورة تأسيس فرع لحزب الحرية والائتلاف فى البصرة • وأتفق رأينا على أن يقابل أثنان منا السيد طالب النقيب ، وكان عائدا من أستانبول ، للمداولة معه فى الامر • فذهبت أنا والسيد عبدالوهاب الطباطبائى • ولدى مقابلتنا له أبدى أستحسانه العظيم وتحمسه للموضوع • فدعا حوالى المئة من الرجال البارزين فى المدينة الى الاجتماع فى داره • ولم يكن أحد منهم يعلم كنه الدعوة والغرض منها ، كما أن معظمهم كانوا من أعضاء جمعية الاتحاد والترقى وبينهم رئيسها ونائبه • وحين أكتمل عقد الحاضرين نهض السيد طالب النقيب وقال : كلفت أخى سليمان فيضى بأن يشرح لكم الغرض من هذا الاجتماع • فنهضت وأرتجلت خطابا أجملت فيه مساوىء جمعية الاتحاد والترقى ، وبطش زعمائها بالأحرار ، ومناوأتهم الصريحة للعرب ، وغمط حقوقهم ، ثم ذكرت لهم كيف أن عقلاء الاتراك ومنصفيهم انشقوا على الجمعية وتكتلوا فى حزبهم الجديد ، حزب الحرية والائتلاف ، الذى يدعو الى المساواة بين الشعوب العثمانية والى ازالة الظلم والبطش • لذلك دعوتهم الى تأسيس حزب بالاسم نفسه ، مستقل فى وحدته وكيانه عن حزب استانبول ، ترتكز مبادئه على انصاف العرب ، وأسترجاع حقوقهم ، والمطالبة بما يعود على البلاد العربية بالخير ، ويقارع الاتحاديين ، ويكيل لهم الصاع صاعين ، ويضع حدا لمظالمهم •

فلما أنتهيت من خطابى ضج الحاضرون بالتصفيق والهتاف ، وأشتد بهم



السيد طالب النقيب



الحماس ، فوقعوا على مضابط تأسيس الحزب الجديد ، وعلى برقيات أستقالة من جمعية الاتحاد والترقي ، فكان هذا ايذانا ببدء الكفاح العلني ضد جمعية الاتحاد والترقي ، وكانت بداية حسنة لم أكن لأتوقعها أو ليتوقعها السيد طالب . وجرى على الفور أنتخاب الهيئة الادارية ففاز الأشخاص التالية أسماؤهم :-

السيد طالب النقيب رئيسا ، الحاج محمود باشا العبدالواحدرئيسا ثانيا ، الشيخ عبدالله باش أعيان نائبا للرئيس ، السيد عبدالوهاب الطباطبائي سكرتيرا ، الحاج محمود المعتوق النعمة أمينا للصندوق ، ومؤلف الكتاب معتمدا ، أحمد باشا الصانع ، وعبداللطيف باشا المنديل ، والحاج طه السنمان ، والحاج محمود الاحمد النعمة أعضاء .

وبعد الفراغ من الانتخاب نهض السيد هاشم النقيب فتبرع بداره الكبيرة الواقعة في السيف لتكون مقرا للحزب مجانا ، ثم تبرع الاعضاء الآخرون بأفخر الاثاث لفرشها ، كل ذلك جرى في جلسة واحدة .

وعلى أثر وصول برقيات الاستقالة الى جمعية الاتحاد تصدعت ولم يبق من منتسبيها سوى عدد ضئيل من الموظفين .

وفي يوم ٦ آب جرى أفتتاح الحزب في مهرجان عظيم حضره آلاف الناس داخل بناية الحزب وخارجها ، بضمنهم الوالي وكبار موظفيه وقناصل الدول الاجنبية ، القيت فيه الخطب والقصائد الحماسية التي لم تعتد البصرة سماعها من قبل ، وكانت كلها مطالبة بالاصلاح ، ودعوة الى أحلال العدل وارجاع الحق الى نصابه ، ثم تليت برقيات التهنئة والتأييد الواردة من سائر الاقطار العربية ومن أنحاء العراق كافة .

وبعد ثلاثة أيام على الافتتاح طلب القنصل البريطاني في البصرة زيارة الحزب . وحين أختلى بالسيد طالب في غرفته عرض عليه استعداد بريطانيا لتقديم كل المساعدات الممكنة للحزب ، كما عرض عليه أن يدعو احدى قطع الاسطول البريطاني للرسو في مياه شط العرب خشية أن تتخذ الحكومة اجراءات معادية للحزب ، وقد استغرب السيد طالب ورود هذا العرض من

الانجليز بدون أي مقدمات سابقة ، وأجاب القنصل بعدم وجود حاجة لمثل هذه الحماية ، كما ذكر له أن الحزب غني بحماس منتسبيه وبأموالهم ، وأنه سيعمل لمصلحة العرب وحدهم وليس لمصلحة دولة أخرى ، وان كفاحه في الوقت الحاضر يعتبر كفاحا داخليا لا يتناول الناحية الدولية .

لقد قطع السيد طالب بهذا الرد كل أمل للانجليز في التأثير على الحزب أو استغلاله لمصلحتهم ، وأعتبره القنصل البريطاني ردعا قاسيا عن التدخل في شؤون الحزب في المستقبل . فنشرت جريدة (ترانسيت) اللندنية في عددها الصادر في ١٠ آب ١٩١١ ما تعريبه بالحرف الواحد :-

(في ٦ الحالي أحتفل بأفتتاح ناد سياسي جديد ينتسب الى الحزب المعتدل ، ودعى الى هذه الحفلة جميع الاجانب في البصرة ، وكان الاجتماع بالغا منتهى الحماس . أما نوايا هذا الحزب فمجهولة ، وقد أقبل على الانتماء اليه الكثيرون من الاهلين والتجار ، ممن ليس في أيديهم مقاليد أمورهم ، أقبال الجياع على القصاع ، وغرضهم هو أنضوائهم تحت حماية السيد طالب بك مبعوث البصرة) !..

وجه الحزب رسائل الى بعض الوطنيين في مختلف أنحاء البلاد ، يدعوهم الى تأسيس فروع له في المدن الاخرى ، اذا أمكن ، أو تأييده في كفاحه . فكتب السيد طالب بهذا الخصوص الى السيد زيدان ، وعبدالله الفالح السعدون ، والشيخ خيرالله في المنتفك . والى السيد طفار في السماوة . والى عطية أبو الكلل ونقيب الاشراف في النجف . والى محمدعلي فاضل وداود يوسفاني في الموصل . والى يوسف السويدي ، وعيسى الجميل ، ومحمود نديم الطبقجلي في بغداد . والى الحاج نجم البدراوي ، وأحمد المصطفى ، وفائق الخضيري في العمارة . والى الحاج عباس العلي في الكوت ، والى السيد هادي زوين والسيد علوان الياسري في الفرات . والى الشيخ أحمد حسن طبارة وعبدالغني العريسي في بيروت . والى شكري العسلي وشفيق المؤيد في دمشق . والى كثيرين غيرهم ممن فاتني تدوين اسمائهم بوقتـــه .

أصدر الحزب جريدة (الدستور) لصاحبها السيد عبدالوهاب الطباطبائى ، لتكون لسان حاله • وتبرع الحاج محمود العبدالواحد بجلب مطبعة حديثة من أوربا لطبع الجريدة المذكورة ، سميت فيما بعد بالمطبعة المحمودية • وأشترك فى تحرير هذه الصحيفة أكثر الادباء والمثقفين فى البصرة ، فأنتشرت وذاعت • وقد دأبت على تحرير زاوية سياسية أجتماعية فى أكثر أعدادها •

تبنى الحزب ، من ضمن أهدافه القومية المتعددة ، فكرة حماية التعليم فى البلدان العربية • وصادف ان أعلنت الحكومة عزمها على أغلاق مدرسة الحقوق فى بغداد ، ولما يمض على تأسيسها عامان ، فأستغاث طلابها ببرقية لا زلت أحتفظ بها ، بتوقيع محمد زكى أحد الطلاب البصريين(١) ، فلما عرضت البرقية على الهيئة الادارية للحزب أمطر أقطابه أستانبول ببرقيات أحتجاج وتهديد جاء فى أحداها :

(اذا أصرت الحكومة على غلق المدرسه فأن الحزب سيدلل بهذا العمل على سوء نية الحكومة تجاه العرب والبلاد العربية ، اننا نطالب بشدة بأبقاء المدرسة لتبرهن الحكومة على حسن نواياها نحو العرب ولكى تحتفظ بعلاقاتها الطيبة معهم)

وقد جاء الرد من رئيس الوزراء الى الوالى ليطمن الحزب بعدول الحكومة عن فكرة غلق المدرسة • فلما أرسلت صورة الرد المذكور الى محمد زكى جاءنى منه الجواب التالى برقيا :ـ

صدرت من بغداد

فى ٢٨ كانون الاول ١٩١١

البصرة

المحامى سليمان فيضى وهيئة الحزب الحر المعتدل المحترمة

بأسم طلبة مدرستنا وبالحقيقة بأسم أهالى العراق أعرض شكرنا الوافر وأقدم الثناء سيدى •

زكى

---

(١) المرحوم محمد زكى وزير العدلية ورئيس مجلس النواب الأسبق •

انضمام الضباط العرب الى الحزب

اتجه رأى الحزب الى استمالة الضباط العرب والاكراد وبث الفكرة القومية بينهم ليكونوا أنصارا للاحزاب السياسية المعارضة ، وأنيط أمر اقناعهم بي . فبدأت بالاتصال بهم واحدا فواحد . وكلما أقتنع منهم أحد ورضى بالعمل فى حزبنا ، أخذته الى السيد طالب ليتعارفا ولكى يقسم اليمين لمبادىء الحزب والاخلاص له . وجاء يوم أصبح فيه جميع الضباط من أنصارنا ، فدعاهم السيد طالب الى وليمة غداء ، وخطب فيهم شاكرا وطنيتهم وأقسم الايمان المغلظة ان لا يحيد قيد أنملة عن مباديء الحزب . وكان أكثر هؤلاء الضباط الغيارى تحمسا للحزب :

عارف عنه ، محمود أديب ، عبدالجليل الشالجى ، سعيد المدفعى ، مصطفى الازميري ، تحسين البغدادي ، محمد علي ، سعيد حقي (ناظر الخزينة الخاصة الآن) ، وغيرهم .

الحرب الطرابلسية وتضعضع مركز الاتحاديين

نشبت الحرب الطرابلسية فى هذه الاثناء ، وأحتلت الجيوش الايطالية طرابلس الغرب وبنغازي بدون مقاومة تذكر ، وكانت الوزارة الاتحادية برئاسة حقي باشا فى شاغل عن الدفاع عن هذه البقعة العربية بالنزاعات الداخلية . لذلك قدم نواب طرابلس الى مجلس المبعوثان لائحة أتهام فى تسع بنود تثبت اهمال الوزارة الآنفة الذكر . فأضطر المجلس النيابى تجاه تلك الحقائق الناصعة الى أسقاط وزارة حقى باشا الاتحادية . وتولى الوزارة من بعده المشير أحمد مختار باشا وكانت خالية من الاتحاديين .

ومنذ ذلك اليوم أخذت أسهم الاتحاديين فى الهبوط وفقدوا كثيرا من أنصارهم ومن مساندةالاوساط الشعبية لهم ، الا أن الجيش بقىتحت نفوذهم .

لم يطل عمر هذه الوزارة أكثر من شهرين ، فخلفتها وزارة كامل باشا الائتلافية التى اشترك فيها ناظم باشا والى بغداد الشهير كوزير للحربية . ولما كانت الوزارة الجديدة مؤيدة من أكثر أعضاء مجلس النواب الناقمين

على الاتحاديين فقد أمرت بسد نوادى جمعية الاتحاد والترقى فى البلاد العثمانية ، لا سيما فى البلدان العربية ، وتحرى دور أقطابهم • ثم صدرت ارادة سنية بحل مجلس النواب وأجراء أنتخابات نيابية حرة رغبة من الحكومة فى الحصول على أكثرية نيابية مطلقة ، وكان غرضها من ذلك اضعاف الاتحاديين أولا ، واحلال التعاون الوثيق بين الحكومة والبرلمان لمواجهة الحرب الطرابلسية ثانياً •

حين وصلت أوامر وزارة الداخلية الى والى البصرة بلزوم تحرى نادى جمعية الاتحاد ودور أقطابها ، عين الوالى أشخاصا أهليين للقيام بهذه المهمة ، على أن تفحص الأوراق والمطبوعات المشكوك فى أمرها من قبل لجنة أهلية أيضاً • وقد انتخبت عضواً فى هذه اللجنة ، فلم نعثر على ما يستحق الاهتمام • ومما يجدر ذكره أن الوالى على رضا باشا الركابى حضر عند السيد طالب قبيل اجراء هذه العملية وأطلعه على أسماء الأشخاص الذين سيجرى تحرى دورهم ، فطلب السيد طالب مني الحضور ، فلما ذهبت وجدت الوالى هناك • فلما عرض على الأسماء ، وكان من بينها أسم الشيخ محمد أمين عالى باش أعيان ، أحد أركان الاتحاديين ، اقترحت شطب أسمه اكراماً لعميد الاسرة الشيخ عبدالله باش أعيان الذى كان فى الوقت عينه رئيساً ثانيا لحزبنا • فوافقا على هذا التعديل وسلم بيت المومى اليه من التفتيش •

وحين لمس الأحرار فى بغداد تضعضعاً فى مركز الاتحاديين سعوا الى تأسيس فرع لحزب الحرية والائتلاف • فتأسس الحزب المذكور بجهود محمود نديم الطبقجلى صاحب جريدة «بين النهرين» وأنضم اليه بعض الشبان ، وفى مقدمتهم حمدي الباجهجي • وكان هذا الفرع يعتمد فى ماليته على مركز الحزب فى البصرة • الا أنه لم يستطع الصمود طويلا فى وجه الحكومة وسطوة الاتحاديين فى بغداد ، فتشتت أعضاؤه ولجأ مؤسسه الى البصرة ، وحكم عليه بالسجن غيابا • وبذلك قضى على الحزب وأغلقت الجريدة • وقد بقى محمود نديم فى البصرة يعمل بنشاط فى حزب الائتلاف •

لجنة المعارف ووكالة خزينة البصرة

أصدرت وزارة المعارف نظاما جديدا يجيز التدريس فى المدارس الابتدائية فى الاقطار العربية باللغة العربية • فتألفت فى كل ولاية لجنة لانتقاء الكتب المناسبة • وقد أنتخبت عضواً فى لجنة المعارف لولاية البصرة فى ٢٩ شباط ١٩١٢ • غير أن الوزارة لم تلبث بعد وقت قصير ان نكثت عهدها ، فأمرت بلزوم تدريس الجغرافيا والتاريخ بالتركية •

وفى ٢٩ آذار سنة ١٩١٣ عينت وكيلا للخزينة فى البصرة براتب عشر ليرات ذهبية ، على أن أحتفظ بحق ممارسة مهنة المحاماة • وعندما أنتخبت مبعوثاً عن البصرة ، كما سيأتى ذكره فى بحث قادم ، قدمت استقالتى من الوظيفة المذكورة وأرفقتها بعريضة من مزاحم الباجهجى ، الذى كان لاجئا الى البصرة من أضطهاد الحكومة ، يطلب التوظف بدلا عنى • وأخذت العريضتين الى والى البصرة فى ذلك الحين عزت باشا الكركوكلى فوافق على قبول استقالتى وعلى تعيين مزاحم •

الانتخابات النيابية فى البصرة ولوائيها

تألفت الهيئات التفتيشية فى ولاية البصرة وفى لوائيها المنتفك والعمارة ، وبوشر بالمراسيم المقتضية للانتخابات • وفى ذلك الحين عاد الاتحاديون الى الحكم •

ففى المنتفك أرسلت الحكومة العقيد فريد بك ، المعروف بتعصبه الأعمى للاتحاديين ، متصرفا عليها وقائدا لحاميتها • فأنذر المعارضين بسوء عاقبتهم ان هم ناوأوا مرشحى الجمعية ، فخافه الناس وتركوا أمر الانتخابات له ، فرشح من الاتحاديين : معروف الرصافى ، حمزة بك قائممقام القرنة السابق (التركى) ، وقريش أفندى (من أهالى الناصرية) • أما مرشحو حزب الحرية والائتلاف وهم : عبدالكريم السعدون ، والسيد زيدان ، وعمر فوزي المحامى ، ففضلوا الانسحاب •

أما فى العمارة فكان حزبنا يتمتع بتأييد كبير ، ولما بلغنا أن متصرفها

الاتحادى أخذ يؤثر فى سير الانتخابات ، وأنه رشح قاضى العمارة التركى وبعض الاتحاديين ، أوعزنا الى أنصارنا بارسال برقيات الاحتجاج والشكاوى عليه ، وكان حزبنا من جانبه يرسل البرقية تلو الاخرى أحتجاجا على أعماله المخالفة للدستور ، حتى استطاع الحزب أن يستحصل أمر الوزارة بنقله من العراق وبتعيين قائممقام القرنة العربى حسن كاظم بك ومن أصدقاء الحزب وكيـلا عنـه .

طلب الحزب منى الذهاب الى العمارة لمراقبة سير الانتخابات ومساعدة مرشحيه فى المعركة الانتخابية . فركبت الباخرة يصحبنى أربعة من الرجال الأشداء المسلحين لحراستى ، ووصلت القرنة فوجدت حسن كاظم بك فى أنتظاري فرافقني في الباخرة ووصلنا العمارة سـوية .

أجتمعت بأنصار الحزب وهـم : الحاج نجم بدراوي ، فائق الخضيري ، أحمد المصطفى الموصلى ، والعقيد عزت بك البغدادى قائد الحامية . فأرسلنا رسائل الى قائممقامي الأقضية ورؤسـاء عشائرها نسـألهم تأييد مرشـحي الحزب ، ثم اتصلنا بالأوساط الشعبية ووجوه المدينة فحصلنا على وعود قاطعة بتأييدنا . وفى الليلة السابقة لموعد الانتخاب وصلتنى برقيا من السيد طالب أسماء المرشحين الثلاثة وهم : عبدالله صائب ، عبدالمجيد الشاوى ، ومؤلف الكتاب . فنظمت قصاصات صغيرة بهذه الاسـماء وزعناها على أعواننـا من المنتخبين الثانويين . وفى صباح اليوم التالى جرت مراسيم الانتخاب ففاز مرشـحو حـزبنـا الثـلاثة .

وبهذه المناسـبة أذكر ان عمرى كان يومذاك ثمانيـة وعشرين عاما . وفى دفتر النفوس أربعة وعشرين ، وهو دون السن القانونى للنيابة بكثير ، لذلك صححته لدى مجلس ادارة الولاية قبل البـدء بالانتخابات . فجعلته واحـدا وثـلاثين .

وعندما عدت الى البصرة الفيت مرشـحى حزبنا الاربعة فيها قد فازوا

أيضا ، وهم : السيد طالب ، عبدالوهاب القرطاس ، عبدالله الزهير ، واحمد نعيم كحالة .

ومما يؤسف له أن حسن كاظم بك بعد أن أنهى مهمته فى وكالة متصرفية العمارة عاد الى القرنة وأنتحر فيها لاسباب مجهولة .

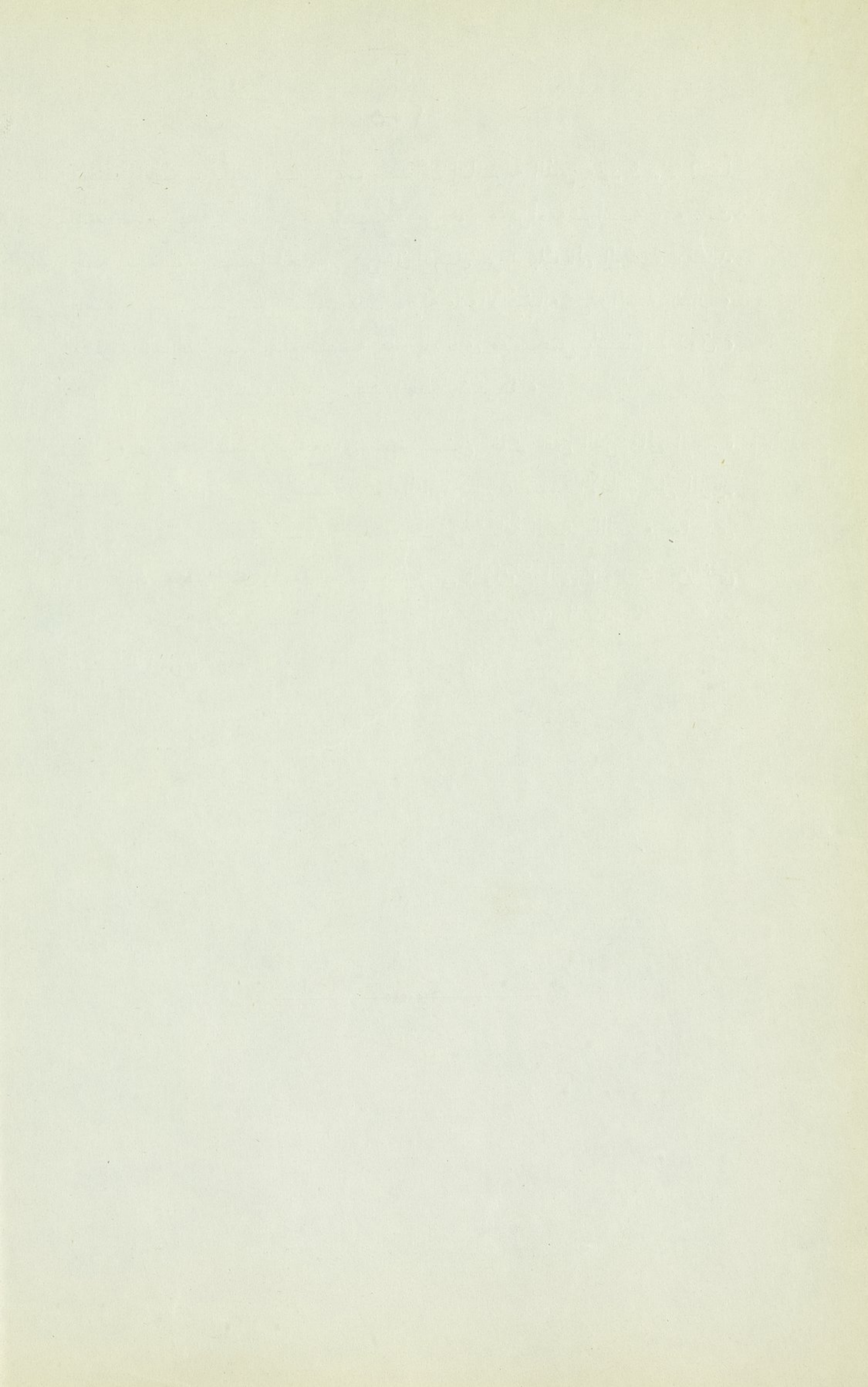
مقتل ناظم باشا
وعودة الاتحاديين الى الحكم

كان ناظم باشا أبرز أعضاء وزارة كامل باشا الائتلافية الجديدة . عمل على اعادة تنظيم الجيش وعلى استمالته ضد جمعية الاتحاد والترقى ، وعلى اقناع كبار ضباطه فى عدم التدخل فى الشؤون السياسية ، فصعب هذا على الاتحاديين كما صعب عليهم أن يتنحوا عن الحكم بعد أن ذاقوا حلاوته ، لذلك قرروا الايقاع بناظم باشا . فلما أشتعلت نيران الحرب فى البلقان ، وسقطت ولاية أدرنة ، وقلق الرأي العام على مصير الحرب ، نظم الاتحاديون شبه مظاهرة عسكرية مؤلفة من حوالى المائة ضابط يتقدمهم طلعت وجمال وأنور ، ودخلوا ساحة ديوان مجلس الوزراء وأخذو يهتفون بدوام الحرب وبالاحتفاظ بأدرنة ، فخرج ناظم باشا الى الشرفة ليرى مصدر الضجيج ، ففاجأه أنور باطلاق الرصاص عليه ، فأرداه قتيلا وقتل مرافقه من بعده . ثم توجهوا الى السلطان وأفهموه بأن الشعب ثائر على وزارة كامل باشا يريد اسقاطها ، وان الثوار قتلوا ناظم باشا ، وأن الامر يحتاج الى حل سريع لئلا يتعرض العرش للخطر ، فصدق السلطان وأقال الوزارة رغم محاولات كامل باشا لافهامه حقيقة الحادث ولتطمينه بعدم وجود ثورة فى البلاد .

شكل محمود شوكت باشا الوزارة الاتحادية الجديدة ، فأسند وزارة الداخلية الى طلعت ، والحربية الى أنور ، والبحرية الى جمال ، والمالية الى جاويد ، ووزع الوزارات الاخرى بين أقطاب الاتحاديين . وهكذا عادوا الى الحكم أشد بأسا من ذي قبل ، وبدأوا ينتقمون من أعدائهم الواحد تلو الآخر . ولما كان السيد طالب يعتبر عدوهم الألد فى العراق ، لذا عقدوا العزم على

التخلص منه ، فكلفوا فريد بك متصرف الناصرية الذي ورد ذكره آنفاً للقيام بهذه المهمة ، بالنظر لما عرف عنه من قوة وجرأة وشراسة . وكانت الخطة المرسومة لهذا الغرض هي أن ينقل فريد بك الى البصرة كقائد لحاميتها فيلقي القبض على السيد طالب بحيلة ما والا فيغتاله في رائعة النهار . أما فريد بك فقد مهد للقيام بمهمته هذه بالاتفاق مع عجمي باشا السعدون ، عدو السيد طالب اللدود ، على تنفيذ الخطة مشتركا .

وقصة هذا العداء ترجع الى بضع سنين خلت حين ألقى والى البصرة القبض على سعدون باشا السعدون ، والد عجمي ، بتهمة الاغارة على الزبير وسلب مواشيها بينما كان – أي سعدون – في ضيافة السيد طالب . مما أدى الى اعتقاد عجمي بأن للسيد طالب ضلعاً في المؤامرة التي أسفرت عن نفي أبيه الى حلب ووفاته فيها ، فأقسم الا أن ينتقم من السيد طالب عندما تسنح الفرصة .



البصرة تتمرد على السلطنة

١٠٨

المؤامرة الاتحـادية فى البصـرة

قدم فريد البصرة فى ٩ مايس ١٩١٣ م وتولى قيادة الجيش فيها بيد من حديد ، فعين عاطف بك قائدا للجندرمة ، وهجرانى بك معاونا له ، وكلاهما اتحاديان متطرفان ، ثم فاوض قائد البحرية الاتحادى لتوحيد الجهود ، فرحب هذا بالعرض ، وهكذا أصبحت القوى العسكرية فى البصرة كلهـا فى قبضة فريد • وكان والى البصرة الجديد علاءالدين الدروبي قد وصلها فى ٢ مايس بدلا من على رضا باشـا الركابى •

وفى ٦ مايس كان عجمى ورجال قبيلته قد اقتربوا من الزبير ، ونزلوا بأرض تسمى البرجسية ضربوا خيامهم فيها • وفى ٩ حزيران احتـل قصر النقيب فى الشعيبة وأقام فيه ، بينما عسكر رجاله من حوله بأنتظار الايعـاز من فريد بك • وكان الاتصال بين فريد وعجمى يجرى بواسطة محمد العصيمى أحـد وجهـاء الزبـير •

لم يكن السيد طالب أو أعضاء حزبه من الغباوة بحيث تخفى عليهم هذه المناورات ، فقد فهموا القصد من نقل فريد بك الى البصرة ، ومن التبدلات التى جرت فى المناصب العسـكرية ، ومن اقتراب عجمى • لذلك أعـدوا العدة للطوارىء ، فكتب السيد طالب الى حليفيه الشيخ مبارك الصباح أمير الكويت والشيخ خزعل أمير عربستان ليمداه بالسلاح والعتاد ، فتدفقت عليه الاسـلحة بكثرة •

وفي ذات يوم التقى السيد طالب مصادفة بفريد في دار علي رضا باشـا الركابي الذي لم يكن قد غادر البصرة بعد ، فلم يحيّ أحدهما الآخر ، مما حمل الوالى على لوم السيد طالب لعدم زيارته فريد ، اذ أن العـادة الجارية تقضى بأن يزار القادم من قبل أهل البلد أولا ، ورجا منه أن يقوم بزيارته عصر ذلك اليوم ، فلم يسع السيد طالب الا الموافقة مجاملة • فلما خرج من هنـاك مرّ بدارى ، وهى مجاورة لداره ، وسألنى اذا كنت أرغب فى الذهاب معه

لزيارة فريد بك عصر ذلك اليوم . فأبديت استغرابي لهذا الاقتراح ، فروى لى الحكاية وقال أنه لا يستحسن العدول عن هذه الزيارة بعد أن أعلن للوالى عن موافقته على ادائها . أما أنا فقد اعتذرت لأمر فى نفسى ، فودعنى وأنصرف . ولم يكد يستقر فى داره حتى دعوت عربته فأستقليتها ، وطفت بسرعة على دور الضباط العرب ، ومن جملتهم عارف عنه وسعيد حقى ، وأخبرتهم بأمر هذه الزيارة ، وطلبت منهم اتخاذ الاحتياطات اللازمة للمحافظة على حياة السيد طالب .

ذهب السيد طالب الى حيث يقيم فريد بك فى الثكنة ومعه اثنا عشر من رجاله المسلحين ، فوجد الضباط العرب متجمهرين فى مدخل الثكنة ، فأستقبلوه استقبالا حارا . وحين أراد الدخول منع حراس الثكنة رجاله من مرافقته ، فتوسط الضباط العرب لادخال اثنين منهم فقط . ولما صعد السيد طالب الى غرفة فريد فى الطابق الأعلى استقبله هذا استقبالا فاتراً ، ولم تطل الزيارة فعاد السيد طالب الى داره . وفى طريق عودته مرّ بداري ، فروى لي ما دار بينهما من أحاديث ، وأبدى استغرابه من تجمع كل الضباط العرب فى الثكنة فى مثل تلك الساعة من النهار ، ومن كثرة صعودهم ونزولهم على السلم أثناء وجوده فى غرفة فريد ، ومن تطلعهم من نوافذ الغرفة بين حين وآخر . فأبتسمت ، فقال : افصح . فقلت : اسأل حوذيك . فروى له الحوذى كيف انى طفت بدور الضباط العرب وحذرتهم . فسرّ لذلك وشكرنى كثيراً .

بعد هذه الزيارة بدأ فريد بك يزور السيد طالب أحياناً فى النهار وأحياناً فى الليل ، حتى أنه ثمل مرة وبات ليلته فى دار السيد طالب .

وكان علينا أن نحاذر أشد الحذر على حياتنا ، اذ كانت الاخبار تتسرب عن قرب وقوع المؤامرة .

وفى احدى الأمسيات ، بينما كنت منتحياً بالسيد طالب جانباً فى سطح داره ، حيث يجتمع أصدقاؤه كل ليلة للشرب والسمر ، خطر لى خاطر

مفاجيء اذ أطللت برأسي على الخربة المجاورة فراعتني حلكة الظلام فيهـا • قلت للسـيد طالب :

ـ اني لا أرى صلاحاً فى وقوفنا تحت هذا الضوء ، والخربة من تحتنـا ، وأعـداؤنا يتربصون بنـا الفـرص •

فقال : أنك كثـير الأوهام •

قلت : بل أنا شـديد الحـذر ••• وضحكنا ثم ابتعدنا عن الجـدار • وبعد خمسة أيام أخبرني أحدهم عن وجود ثلاث جثث لرجال من عشائر المنتفك فى الخربة المذكورة • فلما سألت السـيد طالب عن الخبر ، أجاب أنه ، منـذ تحذيرى له ، أوصى حراسه بمراقبة الخربة ، حتى اذا كانت الليـلة الماضية فاجأوا ثلاثة رجال مسلحين يتربصون ، فقتلوهم •

تأكد المتآمرون من عدم امكان اغتيال السيد طالب خلسة ، فأزمعوا على تدبير مؤامرة واسعة النطاق ، للقضاء عليه وعلى أعوانه بشكل علنى ، يزجون فيها بـكل قـواهم •

دعى فريد بك متصرف الناصرية الاتحادى بديع نورى للمشاورة معـه فى أمر المؤامرة • فحضر هذا الى البصرة فى ١٠ حزيران واقترح أن يدعو عبدالله الفالح السعدون للتعاون معهما • وكان عبدالله صديقـاً حميماً للسيد الطالب • فحضر الى البصرة استجابة لدعوتهما • فلما فاتحاه بالأمر رفض التعاون معهما ، وقال أنه يعتز بصداقته للسيد طالب ولن يعمل على قتله • فطلبا اليه البقاء فى البصرة بضعة أيام ، وكان غرضهما من ذلك اقناعه فى مناسـبة أخرى • وكجزء من الخطة المرسومة قدم البصرة حمـد السعدون ، أخـو عجمى ، فى ١٥ حزيران سنة ١٩١٣ ، مع الشيخ سالم الخيون رئيس قبيـلة بني أسـد يصحبهما نحو من ثلاثين رجلا مسـلحاً ، فاستأجروا دارا كبـيرة فى البصرة •

كان لحزبنا عيون وأرصـاد ، فلا غرابة فى أن تتسرب الينـا تفاصيل المؤامرة كما وضعها فريد وبديع ، وهى تتلخص فيمـا يـلى :ـ

فى منتصف ليلة ٢٠-٢١ حزيران سنة ١٩١٣ ، وهي الساعة المعينة لتنفيذ المؤامرة ، يمنح الضباط العرب اجازات ، ويتولى الحفارة فى الثكنات ضباط أتحاديون ، ثم يزحف الجيش بكامل أسلحته ويحتل جزءاً من محلة القبلة ، حيث قصر السيد طالب ، ويحتل حمد السعدون وسالم الخيون ورجالهما جزءاً آخراً ، وينتظم الجندرمة بقيادة عاطف وهجرانى فى الساعة نفسها فيلقون القبض على الاشخاص التالية أسماؤهم كل فى داره : أحمد باشا الصانع ، عبداللطيف باشا المنديل ، مؤلف الكتاب ، الحاج طه الموصلى ، عبدالله صائب (الحاكم المدنى) ، عمر فوزى المحامى ، عبدالرزاق النعمة ، وعبدالوهاب الطباطبائى • ثم يدخل عجمى السعدون ورجاله البصرة من ناحية باب الزبير • وتطلب هذه القوات من السيد طالب تسليم نفسه ، وعند رفضه تهاجم قصره ، ولو أدى ذلك الى احراق الحى كله •

اذا لم تكن ذئبا على الارض ...

لم يخبر السيد طالب بهذه التفاصيل أحداً سواى ، فجلسنا نتدبر أمر الدفاع ، وأتخذنا الخطوات التالية :-

أولا : ترحيل عوائل الاشخاص الذين ترمى المؤامرة الى مهاجمتهم •

ثانياً : تسليح أكبر عدد ممكن من الرجال للدفاع عن محلة (القبلة) وعن الدور المخلاة •

ثالثاً : احباط المؤامرة بهجوم مفاجىء على المتآمرين أى كما يقول المثل العامى : « نتغدى بهم قبل أن يتعشوا بنا » •

أما الخطوة الاولى فقد تمت بسهولة ، فرحلت العوائل الى مناطق الأمان ، وعرض السيد طالب قصره فى السيليات على العوائل التى ليس لها مكان تلجأ اليه • وقد اخترت وعمي الحاج طه أحد بساتينه ملجأ لعائلتينا •

وتلتها الخطوة الثانية ، وهى تسليح الدور المفرغة واعدادها للدفاع • وبالفعل فقد حل" فى داري مالا يقل عن عشرين رجلا بكامل سلاحهم مجهزين بكميات وافرة من العتاد ، وكذا الحال فى الدور الاخرى • أما دار السيد طالب

فكان يحرسها مالا يقل عن المائة من الرجال الأشداء ، ومثل هذا العدد أو يزيد أنهمك فى حراسة النقاط والمواقع السوقية فى محلة القبلة .

بقى علينا تنفيذ الخطوة الثالثة ، وهنا يجثم الخطر . فأعداؤنا كانوا على جانب كبير من القوة والدهاء ، وكنا متأكدين من أن أتفه خطأ يرتكبه أحد أعواننا قد يؤدى الى أوخم العواقب ، أو أن أسرارنا اذا تسربت اليهم فقد يلجأون الى تقديم موعد المؤامرة ، أو أن المؤامرة التى أزمعنا مداهمتهم بها اذا قدر لها الفشل فسوف يعمدون الى مهاجمتنا عنوة ، فتنشب حينئذ معارك دامية فى شوارع المدينة يحترق بلظاها الأخضر واليابس . لذا فقد أحطنا هذه الخطوة بتكتم شديد .

مقتل فريد بك

فى ١٩ حزيران توجه فريد بك ، وبديع نورى ، وعبدالله الفالح السعدون ، وبعض الضباط الاتراك على ظهر الباخرة الحربية (مرمريس) الى الفاو فى مهمة تفتيشية ، على أن يعودوا فى اليوم التالى . وفى صباح يوم ٢٠ حزيران خرج من دار السيد طالب رجل بملابس رثة ، يحمل فراشاً قذراً على رأسه ، وسار الهوينى فى طريقه الى العشار . وبعد نصف ساعة خرج ثان بنفس الهيئة والاتجاه . ثم تبعهما ثالث ورابع . والتقى الاربعة فى دار قديمة مهجورة تشرف على رصيف نهر العشار ، وراحوا يرقبون الرصيف من النافذة بالتناوب . وعندما آذنت الشمس بالمغيب لاحت للعيان الباخرة « مرمريس » ، ثم اقتربت من الرصيف . فلما أثبت البحارة السلالم الخشبية نزل الى االساحل فريد بك يتبعه الآخرون . حينئذ فتح الرجال الاربعة أفرشتهم القذرة ، وأخرجوا منها بنادقهم ، وخرجوا لملاقاة القائد . حتى اذا ما أقتربوا من موكبه انهالوا عليه بوابل من الرصاص ثم ولوا الأدبار . وكانوا فى انسحابهم يطلقون النار الى الخلف . ثم اختفوا فى منعطفات الطرق الضيقة ، حتى اذا ما أستقبلتهم بساتين النخيل أطلقوا سيقانهم للريح ، فلفهم الليل بسواده الحالك . أما على الرصيف فكانت جثث فريد بك وبديع نوري وأحد الجنود قد همدت الى الأبد .

حين دوت تلك الطلقات كنت فى دار السيد طالب ، حيث يجتمع رهط من أصدقائه ، فأثار هذا الدوي فى نفوسهم القلق ، اذ لم يكن أحد منهم ليعلم عن الأمر شيئاً • وراحوا يضربون أخماساً بأسداس ، وحاول كل منهم أن يحدس أو يخمن ، فما صدق حدسهم ولا صح تخمينهم • أما أنا فقد انتحيت بالسيد طالب جانباً وطلبت اليه أن يبقى فى مكانه فى الديوان وأن أخرج أنا لاعطاء بعض الأوامر للحراس • كان جلّ خوفنا أن يكون فريد بك قد نجا ، فيقوم بتنفيذ مؤامرته حالا انتقاما منا • لذلك أوعزت الى الرجال بفتح صناديق العتاد الاحتياطى والتيقظ لكل حركة مريبة • وأسرعت الى الضابط الغيور عبدالجليل الشاجى ، أحد المنتمين الى حزبنا سراً ، والذى كان آمراً لسرية الجيش فى باب الزبير وأخبرته بخطورة الموقف فيما لو كتب لفريد بك النجاة ، فأهتم للأمر وخرج مع قسم من جنوده للطواف فى محلة القبلة بحجة التفتيش ، ولكنه فى الحقيقة كان عازما على الدفاع بجانبنا فيما لو هوجمنا •

مرّت نصف ساعة خلتها نصف سنة ، ثم وصلت الأنباء بمقتل فريد ، فكان علينا أن نحتاط للامر ، لئلا يقرر الضباط الاتراك الاستمرارفى الخطة انتقاما لقائدهم ، خاصة وان رجال عجمى على أهبة الاستعداد • لذلك لبث رجالنا وراء تحصيناتهم بانتظار المعركة ، واستمر عبدالجليل وجنوده فى تجوالهم بالشوارع القريبة منا حتى الصباح •

عبدالجليل الشاجى

أما ما جرى فى المعسكر الآخر ، فان ضباط الحامية والجندرمة والبحرية انقسموا ما بين محبذ لتنفيذ المؤامرة وبين راغب فى العدول عنها • ولما كانوا يعلمون مدى القوة التى نمتلكها ، وشدة مراس رجالنا فى القتال ، رجحت كفة الأخيرين ، فاستعاضوا عن الهجوم بتفتيش البساتين المتاخمة للمدينة طلباً للقتلة • وهكذا انقسموا الى كتائب صغيرة وأوغلوا فى البساتين المظلمة • ولما علم حمد السعدون بمقتل فريد بك أرسل رسله الى عجمى يطلب منه عدم دخول البصرة ، وأرسل بقية رجاله للتفتيش عن القاتلين • وصادف ان التقت كتيبة من الجيش بأربعة من رجال حمد ، فألقوا القبض عليهم ، ظناً منهم بأنهم القاتلين ، واقتادوهم الى البصرة • وخدمت هذه المصادفة الغريبة قضيتنا خدمة كبيرة • فحين عرف المحققون العدليون — وكلهم من أنصارنا — أن هؤلاء الرجال هم من أتباع حمد السعدون ، تعمدوا دفع الشبهة عن السيد طالب وتوجيهها الى حمد نفسه • فجاء فى تقريرهم أن حمد السعدون ، بالنظر للعداء المستحكم بينه وبين عبدالله الفالح ، تآمر مع عاطف وهجرانى على قتل عبدالله الفالح عند نزوله من الباخرة ، وشاءت الصدف أن ينجو هو وأن يقتل بدله فريد وبديع نورى • فلما الفى حمد نفسه متهما فى القضية وأن أربعة من رجاله أوقفوا ، ترك البصرة مع الشيخ سالم الخيون وبقية رجاله فى يوم ٢١ حزيران • وعاد عجمى السعدون بدوره الى المنتفك • وهكذا أسفرت المؤامرة عن انتصار حاسم للسيد طالب ولحزب الائتلاف والحرية •

ذيول المؤامرة

أضطربت الحكومة فى استانبول وبغداد لهذه الانباء ، خاصة حين وردها تقرير المحكمة بأتهام عاطف وهجرانى بالتحريض على قتل عبدالله الفالح السعدون ، فأوفدت نجاتي بك المدعى العام فى بغداد للتحقيق فى الامر • وقبل مغادرة نجاتي الباخرة صعد اليه الضباط الاتراك وحذروه من النزول الى البر لئلا يقتل ، فكتب تقريرا مختصرا وعاد بيومها الى بغداد • ويتلخص تقريره بدفع التهمة عن عاطف وهجراني ، وأطلاق سراح الرجال الاربعة الموقوفين ، وبأتهام القضاء فى البصرة بالتحيز الى جانب السيد طالب •

وعلى أثر ذلك التقرير عزلت الحكومة بهاءالدين بك رئيس استئناف البصرة ، فأبرق له وزير العدلية : « فصلناك عن الوظيفة » • فأجابه هذا : « الى أين أذهب وأين نقلت » فجاءه الرد من الوزير : « اذهب الى جهنم » •

ومن طريف ما يذكر فى هذه القصة ، انه كان من جملة الحاضرين فى دار السيد طالب ليلة المؤامرة الصحفى السورى توفيق جانه ، وكان يتكلم بشجاعة فائقة عن آمال البلاد وأمانيها ، بينما يعب فى جوفه الخمر عباً • فلما دوت الطلقات أصابته رعشة خفيفة وشحب لونه ، ثم استحالت تلك الرعشة الى أرتجاف مرير ، وراح يصرخ : « دخلك شو هيدا » • وكلما حاولنا تهدئته ازداد رعبا وفزعا ، فأخذناه الى فراشه وجلسنا حوله ، وكان فى أسوأ حال • وعندما سأله أحدنا عما اذا كان قد أستعمل سلاحا فى حياته ، قال : « أيوه أوسّت مرة بالفرد بتاع صديقي ما شفت الا وقع مني » •

بعد مرور عام على هذا الحادث التقيت بعاطف بك على ظهر الباخرة عباسية فى طريقنا الى استانبول ، فجلسنا نتحدث فى موضوع مقتل فريد بك ، فقال لى ما معناه : « لو كانت المؤامرة قد نجحت لكنت أنت وعمك والسيد طالب فى العالم الآخر ، ولكن الله اراد الموت لفريد والنجاة لكم ، وتقدرون فتضحك الاقدار »

وبعدها بستة أعوام فى سنة ١٩٢٠ دخلت يوماً مجلس يوسف السويدى فى بغداد ، فوجدت بعض الزائرين ، ومن بينهم سالم الخيون ، فأخذنا نستعرض حوادث الماضى ، فقال الشيخ سالم :

« تأكدوا أيها الحاضرون بأن عجمى السعدون أرسل رجاله مرتين لاغتيال سليمان فيضى ، لأنه كان يعاضد السيد طالب ويؤازره ، ولكن الله نجاه فى المرتين ، فعاد الرجال خائبين »

وبعدها بثلاثين سنة التقيت بعجمى السعدون فى استانبول ، فسألته مازحاً : لماذا أردت قتلى ؟•

قال : « لعن الله السياسة ، فانها كالخمرة تدفع المرء الى اقتراف أخطر الذنوب ، حتى اذا ما أنجلت نشوتها أدرك أخطاءه »

النادى الادبى وجريدة النهضة فى بغداد

عاد مزاحم الباجهجى من استانبول ، فأصدر جريدة (النهضة) ، واتفق هو وحمدى الباجهجى ، وابراهيم حلمى العمر ، وبعض الشباب المتحمسين على تأسيس ناد ظاهره أدبى وباطنه سياسى • وهكذا تأسس النادى الأدبى ، فأنضم اليه الكثيرون من العناصر الوطنية فى بغداد ، أخص بالذكر منهم :ـ الشيخ محمد رضا الشبيبي ، الشيخ باقر الشبيبي ، تحسين العسكري ، بهجت زينل ، عبدالمجيد كنه ، رزوق غنام ، محمود أديب ، يوسف عزالدين ، مبدر الفرعون ، محمود بعقوبة ، عبدالحميد الشالجى ، صبيح نجيب ، عاصم الجلبى ، وغيرهم ممن لم تتسع الذاكرة لحصر أسمائهم •

كان النادى يعمل بأرشاد يوسف السويدى ، ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بحزب الائتلاف والحرية فى البصرة • وباعتبارى معتمداً للحزب المذكور ، كنت دائم الاتصال بمزاحم الباجهجى بالمكاتبة ، وكثيراً ما أرسلت الى جريدة النهضة والى النادى الاعانات المالية التى كنا نجمعها من أعضاء الحزب أو من السيد طالب شخصياً •

غير أن الحكومة أذ ذاك أستشاطت غيظاً من جريدة النهضة فأغلقتها ، وسعت الى القاء القبض على صاحبها مزاحم ومحررها ابراهيم حلمى العمر ، ففرا الى البصرة • وحل مزاحم فى دار عمه محمد جلبي الباجهجي ، الذي كان مديرا لأموال القاصرين فى البصرة ، ونزل ابراهيم ضيفاً فى دارى ، ثم عاد بعد أيام الى بغداد متنكراً •

مصرع محمود شوكت باشا

أشرنا آنفاً الى أن محمود شوكت باشا تقلد منصب رئاسة الوزراء برغبة من الاتحاديين باعتباره اتحادياً ، الا أنه كان شغوفا بحب النظام ، ولم يكن

يستيسغ تدخل الجيش فى السياسة ، فمنع الضباط من الانتمـاء الى جمعية الاتحـاد والترقى ومن التردد على نواديها ، اذ كان يرى فى ذلك مخالفـة صريحة للدستور الذى يحظر على الضباط الانتمـاء الى الاحزاب والـكتل السياسـية .

لم ترق أعماله هذه لعين وزرائه الاتحاديين فأختلفوا معه ، ولما كان هو يتمتع بشخصية قوية ، ومقدرة عسكرية فائقة ، وليس من السهل عليهم تنحيته عن الحكم ، لذلك أضمروا له الشر وعزموا على اغتياله . فدبروا مؤامرة محكمة ترمى الى قتله واتهام خصومهم بالقتل ، فيكونون بذلك قد أصابوا عصفورين بحجر واحـد ...

ابتدأت المؤامرة بأن سارت جمهرة من الناس يحملون نعشاً فارغاً فى الطريق المؤدية الى ديوان مجلس الوزراء فى الوقت المعين لحضور الرئيس ، فتبعهم خلق كثير . وعندما اقتربت سيارة الرئيس سد موكب الجنازة الموهومة الطريق ، فأضطرت السيارة الى التوقف قليلا ، وهنا القى المشيعون التابوت ، وهجموا عليها وأطلقوا على من فيها وابلا من الرصاص ، ثم تواروا عن الانظار بعد أن تركوا محمود شوكت مضرجاً بدمائه .

عين السلطان الامير سعيد حليم باشا ، أحد أحفاد محمدعلى باشا الكبير والذى كان مقيماً فى استانبول بسبب اختلافه مع عباس حلمى خديوى مصر ، عينه خلفاً للرئيس الراحل . فأعاد هذا تشكيل الوزارة بوضعها السابق تقريباً .

أجرت الوزارة الجديدة التحقيق فى مصرع الرئيس السابق ، وأتهمت بقتله ثلاثة عشر رجلا من خصوم جمعية الاتحاد ، جلهم من زعماء الحـزب الحر ، وحزب الأئتلاف ، ومن المعارضين المستقلين ومن ضمنهم صالح باشـا صهر السلطان محمد رشاد . وجاءت الحكومة بشهود زور واثباتات مزورة ، فحكمت المحكمة باعدامهم ، وكانوا أبرياء مما نسب اليهم . ولما أخذ طلعت وزير الداخلية أوراق الحكم بيده الى السلطان للمصادقة عليها ، كانت أبنـة السلطان حاضرة تستجير بابيها لينقذ زوجها البرىء وتبكى بكاء مراً . فأخذ

السلطان يستعطف طلعت ليبدل حكم الاعدام بالسجن المؤبد ، الا أن طلعت أصر على أعدامه ، فرضخ السلطان للامر وهو موقن ببراءة صهره .

بعد أن نفذ حكم الاعدام أصبح الشعب يخشى بطش الاتحاديين ، فلم يرتفع صوت بمعارضتهم ، ولم يجسر أحد على انتقادهم ، فصفا لهم الجو ، وكأن لسان حالهم يقول :

صفا لك الجو فبيضي وأصفري ونقري ماشئت أن تنقري

سفرة تحفها الاخطار

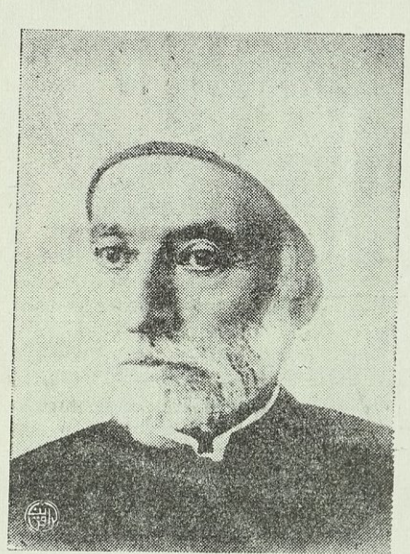
لتنظيم الكفاح الوطني

اتخذ حزب الحرية والائتلاف اتجاها سياسيا جديدا بعد أن أصبح يتمتع بنفوذ واسع في البصرة والمناطق المجاورة ، فبعد أن كان نضاله يقتصر على المطالبة ببعض حقوق العرب ضمن نطاق الدولة العثمانية ، أصبح ينادي بحقوقهم كاملة غير منقوصة ، ويدعو الى تحرر الاقطار العربية من نير الاستعمار التركي ، وبدل أن يقصر نشاطه على الولايات الجنوبية من العراق ارتأى أن يأخذ بيد الاحرار في سائر أنحاء البلاد ، فيوحد صفوفهم وينظمهم في جماعات وأحزاب تعمل في العلن اذا سنحت الظروف ، وتجاهد في الخفاء اذا ضيقت الحكومة عليها الخناق . لذلك ارتأى الحزب انتدابي للقيام بهذه المهمة ، فقبلتها مسرورا رغم علمي بالصعاب والمخاطر التي ستعترض سبيلي .

غادرت البصرة على ظهر الباخرة مجيدية في ١٣ تموز ١٩١٣ مجهزا برسائل ومنشورات سرية من الحزب الى الوطنيين في أرجاء العراق المختلفة . وقد احيط سفري بالكتمان الشديد .

وصلت بغداد في ليلة ١٩ منه ، فوجدت في انتظاري الضابط عبدالحميد الشالجي ، حسب توصية أخيه عبدالجليل ، فصعد الى ظهر الباخرة وأخذ مني المطبوعات السرية ونزل بها أولا ، ثم تبعته . فسألني البوليس عن اسمي ودونه مع أسماء المسافرين . انتهت الليلة بسلام ، ونزلت بضيافة المرحوم الحاج مصطفى الوتار ، وأسترجعت المطبوعات من عبدالحميد الشالجي . فلما

ترامى خبر وصولي الى أصدقائنا في بغداد أقبلوا على زيارتي للتشاور معي في المهمة التي جئت من أجلها • وكان من جملة من زارني يوسف السويدي ، ورشيد الخوجة ، وعبداللطيف الفلاحي ، ومزاحم الباجه‌جي ، وحمدي الباجه‌جي ، وابراهيم حلمي العمر وغيرهم • أما رجال البوليس فقد قامت قائمتهم لعلمهم بوصولي الى بغداد ، رغم الاحتياطات التي اتخذوها لمنعي من النزول اليها • فانتشروا حولي بمختلف الأزياء والصور ، يحصون على حركاتي وسكناتي ويدونون اسماء الذين يزورونني • ولم تمنعني هذه الرقابة الشديدة من الاتصال بالاشخاص البارزين في الحركة الوطنية • فقد



يوسف السويدي

كنت اذا جن الليل وهجع الرقباء أخرج متنكراً ، وقد تمكنت بهذه الطريقة من زيارة يوسف السويدي في داره ، حيث تعرفت على أحد أنجاله (ثابت) فأعجبتني روحه الوثابة وحماسه العظيم ، كذلك زرت آل الباجه‌جي رداً على زيارتهم لي ، وعبدالرحمن الحيدري الذي وجدت فيه استعدادا للتعاون معنا •

لبثت في بغداد ثلاثة أيام ، ثم غادرتها الى الموصل في قافلة على ظهور البغال • وكنت قد أخفيت المطبوعات الممنوعة داخل السرج • وحين وصلنا سامراء نزلنا في أحد المقاهي نغتسل من وعثاء السفر ، اقترب مني قومسير بوليس وهمس بأذني : هل تعرفني ؟ • قلت : كلا •

قال : أنا عبدالمجيد السهروردي ، ابن صفك في الرشدي العسكري ، وقد خاطرت بالاقتراب منك لكي أنذرك بأن لدينا أمراً بالقاء القبض عليك

واعادتك مخفوراً الى بغداد ، وقد عمم هذا الامر على كافة المدن المنبثة فى طريقك ، فخير لك أن ترحل حالا والا القى زملائي القبض عليك .
قال هذا وانصرف بسرعة .

انزعجت لهذا الانذار ، وأحطت رفقائى علما به ، وكانوا الشيخ قاسم الشعار قاضى الموصل السابق وفريق من طلبة المدرسة الحربية فى بغداد ، وكلهم من المتحمسين للقضية العربية ، فأخذوا منى المنشورات وأخفوها فى أمتعتهم ، وأتفقوا على أن يدعوننى باسم مستعار (الحاج على الحصان) ، وأن تستأنف القافلة سيرها حالا ، فسارت على بركة الله . وقبل أن نصل الى تكريت اعترضت طريقنا عصابة من قطاع الطرق ، فأصليناهم نارا حامية فولوا الأدبار . وفى فجر اليوم التالى وصلنا تكريت ، فاستقبلني سليمان الحاج شعبان – ابن عم مولود مخلص – وأقسم الا أن نستريح عنده يوماً ، وتوعد بالويل والثبور لمن تحدثه نفسه بالقاء القبض عليّ وأنا فى ضيافته . وهكذا استرحنا يوما كاملا ، ثم استأنفنا السير ليلا فوصلنا حمام العليل بعد مسير ستة أيام ، وهناك وجدت الكثيرين من أصدقائى وأقاربى قد قدموا من الموصل لاستقبالى .


مولود مخلص

استرحنا فى حمام العليل ليلة ، دعانى فيها الحاج أمين الجليلى والاستاذ حبيب العبيدى على العشاء . تحرك الركب فى الصباح ، وركب معنا الحاج أمين والاستاذ حبيب أيضا .
وفى الطريق الى الموصل أقبل علينا قومسير بوليس راكبا ، فتعجبنا لوجوده فى مثل ذلك المكان الخالى ، فقال متلعثما : أرسلنى مدير البوليس

لاستقبال أحد أقاربه ، الذى قيل أنه جاء فى القافلة بصحبة سليمان فيضى ، فهلا أريتموني الرجل ؟ • فأشاروا الي وقالوا هذا هو سليمان فيضى •

فسألته : ما أسم الرجل الذي تدعي انك قادم لاستقباله ؟

فتلعثم وفاه باسم غير واضح • وهنا عرفت ان الاخبار قد سبقتنى ، وان البوليس هنا لن يقصر فى ايذائي اذا سنحت له الفرصة • وعندما اقتربنا من الموصل أرخى القومسير عنان فرسه فجأة ، وأسرع الى مديره يخبره بوصولي•

الموصل عام ١٩١٣

وصلت الموصل فأستقبلنى فى مشارفها خلق كثير • وأتخذت لسكناى فيها داراً ، فتوارد علي القوم يهنئونني بسلامة الوصول • وفى الايام القلائل الاولى التى قضيتها فى دراسة الوضع فى هذه المدينـة توصلت الى معـرفة الحقـائق التاليـة :ـ

أن المؤمنين بالقضية العربية قلائل جدا ، وأن المشتغلين فيها أقل ، وأن النزعة الدينية التي يتميز بها أهل الموصل تقف حائلا بينهم وبين التمرد على الدولة العثمانية ذات الصبغة الاسلامية والخلافة المقدسة ، وأن سطوة الحكومة الاتحادية فيها أقوى من غيرها من مدن العراق ، وأن مدير البوليس فيها خالد بك اتحادى متطرف ، ملأ طريقى بالاشواك ، وأحاطنى بالجواسيس من كل جانب ، واستصدر أمرا يمنع الضباط من الاختلاط بي ، وأثار فى الاوساط الدينية فى المدينة الاشاعات والأراجيف التى مفادها بأنى أبشر بنبذ التقاليد الدينية وعصيان خليفة رسول الله • وأنه ذهب بنفسه يطرق أبواب الوجهاء يلتمس منهم عدم زيارتي أو الاصغاء الى دعوتي •

زارنى فى دارى الحاج محمد باشا الصابونجى مرتين ، ثم دعانى للافطار فى داره ، وأنهالت علي الدعوات من عشرات الشخصيات البارزة ، فأستشاط خالد بك غيظاً ، وذهب الى محمد باشا الصابونجى وأبان له خطرى على الدين والخلافة ، وآرائى الثورية ، ورجا منه الامتناع عن الاحتفاء بي لئلا يكون قدوة لغيره • فأجابه محمد باشا : ان سليمان فيضى بن الموصل البـار ، وهو عزيز

على أهلها ، ففى اليوم الذى يأتى فيه الموصل زائرا ليس لنا محيص من الاحتفاء به ، لا سيما وأن لوالده مكانة محترمة بالنظر لورعه وتقواه • أما اذا كان يحمل بين جنبيه آراء تضر بالمصلحة العامة أو تمس حقوق الخلافة فأننا سوف لا نصغى اليه •

فهم المدير من هذا الكلام معنى الردع والزجر فخرج يتعثر بأذيال الخيبة •

حدث فى تلك الاثناء ان أطلق عبدالمجيد كنه النار على أحمد بك مدير البوليس فى بغداد وجرحه جرحاً بليغاً ، فلما القى القبض عليه وجدوا فى حوزته ساعة ذهبية ، فزعموا انى قد أهديت عبدالمجيد هذه الساعة أثناء وجودي فى بغداد ، واني حرضته على قتل مدير البوليس ، وكأنهم بذلك ارادوا اصابة عصفورين بحجر واحد • فقام البوليس بأجراء تحقيقات واسعة النطاق مع الأشخاص الذين اتصلت بهم فى بغداد ، فأنكروا وجود أي شيء من هذا القبيل ، كما أن المتهم نفسه أثبت أن الساعة كانت فى حوزته منذ سنين عديدة • فزال الشك ، وحمدت الله على الخروج من هذا المأزق •

نترك الآن جانباً أخبار التجسس والعرقلة لنعود الى صلب الموضوع ، الا وهو العمل على تشكيل الجمعيات السرية •

قلت أننى حين وصلت الموصل وجدت أن عدد المؤمنين بالفكرة العربية فيها لا يتجاوز عدد أصابع اليدين وهم : سعيد الحاج ثابت ، وابراهيم عطار باشي ، وداود الملاح آل زيادة ، ومحمدعلى فاضل آل حافظ مبعوث الموصل ، وحبيب العبيدى ، والدكتور داود الجلبى • وكان بينى وبين الثلاثة الاوائل مراسلات سابقة فى هذا الموضوع • أما من العسكريين ، فياسين الهاشمى الذى كان رئيساً للأركان فى الموصل ، ومولود مخلص ، وعلى جودت ، وعبدالله الدليمى •

وبعد وصولى بأيام وضعت الخطط الأساسية للعمل ، وهى تتلخص بما يأتي :-

بث الدعوة بين العسكريين بمساعدة علي جودت ومولود مخلص ، وبثها بين الاهلين والتجار بمعونة سعيد الحاج ثابت وابراهيم عطار باشى ، اللذين أصبحا فيما بعد لولب الحركة الرئيسى فى الموصل ، والتأثير على الاسواق وأصحاب الحوانيت والمهنيين الصغار بجهود الحاج أيوب العبدالواحد ، بالنظر لما له من المحبة فى نفوسهم ، ونشر الدعوة فى القرى والارياف بواسطة الحاج علي زين العابدين . حتى اذا ما تجمع لدينا العدد الكافى من الاعضاء جمعناهم فى جمعية سرية قوية تعمل بانسجام مع حزبنا فى البصرة والاحزاب الحرة فى البلدان العربيـة الاخرى .

بدأنا العمل ، وكان شاقاً عسيراً بسبب القيود التى احاطنى بها رجال البوليس ، وكان الاتصال بي محظورا على الاهلين ، كما كان الاقتراب مني ممنوعاً على الضباط كما أسلفت ، فأعتمدت على سعيد ثابت وابراهيم عطار باشي فى تبليغ التعليمات الى المنتسبين ، وفى نقل المطبوعات السرية اليهم ، أو فى تهيئـة اجتماعات سرية بينى وبينهم فى أماكن خفية ، وفى اقناع الجمهور بوجهة نظرنا . وقام فى أوساط الضباط مولود مخلص وعلى جودت بدور مماثل . وكنت اجتمع بياسين الهاشمى سرا فى دار حبيب العبيدى ، كما زرته مرتين فى داره بعد منتصف الليل .

ياسين الهاشمى

سرت الدعوة فى الاوساط المدنية والعسكرية بصورة مرضيـة ، فانهالت علينا الطلبات للانخراط فى سلك الجمعية من خيرة القوم ، وهم من المدنيين :–

سعيد ثابت ، ابراهيم عطار باشى ، محمود الملاح ، داود سليم ، مكى الشربتى ، السيد عبدالغنى نقيب الاشراف ، محمد الفخرى ، قاسم السيد يحيى الفخرى ، الحاج علي زين العابدين ، رشيد العمرى ، الحاج أيوب العبدالواحد ، آصف قاسم أغا ، عبدالله باش عالم ، عبدالله رفعت العمرى ، مجيد العمرى ، الشيخ قاسم الشعار ، رؤف الغلامي ، الحافظ عثمان المولولي ، شهاب الدبونى ، عبدالله سليمان ، عبدالعزيز حمود القدو ، عبدالرحمن العبيدي ، طاهر المصيب العمرى ، مجيد شوقى البكرى ، عبدالعزيز آل خليف أفندى ، صلاح الدين الخطيب ، رشيد الخطيب ، حمدى جلميران ، وكثيرون غيرهم من الوجهاء والتجار والعلماء . كما أن الحاج أمين الجليلى كان متضامناً معنا بتضامنه مع حبيب العبيدى .

وأنتمى اليها من الضباط بالاضافة الى أصحاب الفكرة أساسا والذين أوردت أسماؤهم أعلاه :ـ

فوزى القاوقجى ، صادق الجندى ، مجيد حسون ، عبدالرحمن شرف ، جميل روحى ، عاصم حافظ ، توفيق الجلبى ، مختار الطرابلسى ، شريف العمرى .

عملت أياماً فى تنظيم الجمعية ، وفى تزويدها بالتعليمات ، وفى ترتيب منهاجها السري . وهكذا تألفت أول جمعية سرية فى الموصل للجهاد فى سبيل القضية العربية ، والتى جاء ذكرها فى كتاب مقدرات العراق السياسية الصادر سنة ١٩٢٥ ، لمؤلفه محمد طاهر مصيب العمرى الموصلى (المجلد الثالث الصفحة ٤٥) بالنص الآتى :ـ

« ونستطيع أن نقول أن أول جمعية وطنية عربية تأسست فى الموصل هى الجمعية السرية التى سعى بتأسيسها الاستاذ سليمان فيضى الموصلى الذى كان قد جاء الموصل سنة ١٩١٣ آتياً من البصرة . بيد أن الجمعية قد تضاءلت عقب تشكيلها بدون أن تأتى بأى عمل » .

Mosul

النجاة من الشرك

بعد الفراغ من تأسيس الجمعية أزمعت على الرحيل ، وقبيل عودتي بأيام دعاني وكيل الوالي لمقابلته ، فأخبرت ياسين الهاشمي بهذه الدعوة وأتفقنا على أن يحضر هو في المقابلة أيضا • وكان وكيل الوالي أسعد باشا عربياً يعطف سراً على الفكرة العربية ، فاستقبلني هاشاً وقال لي :

« لقد علمت بالتفصيل عن أعمالك في الموصل ، وكم كنت أود أن أغض الطرف عنها ، ولكن ظروف منصبي تضطرني الى ارسال تقارير الجواسيس عنك الى وزارة الداخلية بحذافيرها ، فأود أن لا تحرج مركزي وأن تخفف من وطأة نشاطك » •

فلما أخبرته بعزمي على العودة الى البصرة أظهر سروره وأستطرد قائلا :ـ تفعل خيراً بسفرك اذ اني أخشى عليك من سليمان نظيف والي الموصل الجديد الذي سيصلها بعد أيام • وأنتهت المقابلة بسلام •

أصر محمد باشا الصابونجي على أن يرسو « الكلك » الخاص الذي أوصيت بصنعه أمام داره ، المطلة على دجلة ، لكي يجري التوديع من هناك • وفي ٢٩ أيلول سنة ١٩١٣ حضر خلق كثير الى دار الباشا لتوديعي ، فركبت « الكلك » ميمماً شطر بغداد • وكان من ضمن أمتعتي طاووسان أرسلهما حبيب العبيدي هدية الى السيد طالب • ولما وصلت تكريت لقيت فيها مولود مخلص وابن عمه سليمان الحاج شعبان ، فنزلت في مزرعتهما « الشاروق » ثم واصلت السفر الى بغداد ، فوصلتها في ٦ تشرين اول عام ١٩١٣ ، وفضلت النزول في الاعظمية كي أختفي عن أنظار البوليس •

دخلت بغداد سراً ، ولبثت يومين لم أخرج فيهما من دار مضيفي ، وصادف ان حضر عيسى طه(١) من بيروت في طريقه الى البصرة ، فأنتهزت

---

(١) أخو زوج المؤلف ، وقد كان في ذلك الوقت صبيا يتلقى علومه في بيروت•

فرصة وجوده بصحبتي وحجزت المقصورة فى الباخرة «مجيدية» باسمه . وفى الليلة الثالثة حضر الى دار مضيفي كل من حمدي الباجه جي ، ومزاحم الباجه جي ، وابراهيم حلمي العمر ، وعبدالحميد الشالجي ، فأوصلوني الى ظهر الباخرة حيث ودعتهم شاكراً . وأشغل عيسى طه المقصورة بينما فرشت فراشي أمام بابها . فلما حضر البوليس لتدوين أسماء المسافرين أفدت بأني



سعيد الحاج ثابت

أدعى الحاج علي الحصان وأعمل فى خدمة صاحب المقصورة . فجازت عليهم الحيلة ، وعندما تحركت بنا الباخرة فى الصباح الباكر تنفست الصعداء ، فأدخل الخدم أمتعتي الى المقصورة ، ووصلنا البصرة فى ١٣ تشرين الأول عام ١٩١٣ .



ابراهيم عطار باشي

نعود الآن الى البحث عن أعمال الجمعية السرية التى تألفت فى الموصل وعن مصيرها .

أسلفت اني حين غادرت الموصل كان أهلها يترقبون قدوم الوالى الجديد سليمان نظيف الذي اشتهر بشدته . فلما وصل أخذ الأمور بالشدة والحزم . فألقى الرعب فى قلوب الأهلين . لا سيما وانه أعدم الشيخ عبدالسلام البارزانى وبعض رفاقه لتمردهم على الحكومة وأبقى جثثهم على المشانق عبرة لمن تحدثه نفسه بالعصيان . وعندما أعلنت الحرب العالمية الاولى ، وأرتكب جمال باشا السفاح مذبحته المشهورة فى سوريا ، عثر على مكاتبات ورسائل لدى بعض الشهداء تشير الى وجود جمعيات سرية فى الموصل والبصرة . فكتب الى والييها يطلب انزال أشد العقاب بالمشتغلين فى تلك الجمعيات . فأجرى سليمان نظيف التحقيق فى الأمر ، وتبرع الوشاة بتقديم أسماء سعيد ثابت ، وابراهيم عطار باشى ، وداود الملاح اليه .

وبلغ الخبر الذوات الثلاث فأسرعوا الى محمد باشا الصابونجي يستنجدون به ليتدارك الأمر . فذهب الى الوالى وأستدرجه الى موضوع اتهامهم ، فدافع عنهم دفاعاً حاراً وأنكر أن يكون لهم أي نشاط سياسي ، وعلل كثرة ترددهم عليّ أثناء أقامتي فى الموصل بصداقتهم الشخصية لي ، دون أن يكون لهم أي علم بمباديء وآرائي فأقتنع الوالي ببراءتهم ونجاهم الله من شر عظيم .

حزب اللامركزية فى مصر

تأسس هذا الحزب فى كانون الثانى **١٩١٣** من بعض رجال الجالية السورية فى مصر . وهو يدعو الى النظام اللامركزي ضمن المجموعة العثمانية ، أي أن تتمتع الاقطار الخاضعة للسيطرة العثمانية بنصيب من الاستقلال فى الشؤون الداخلية ، وأن تشترك كلها فى سياسة خارجية واحدة وجيش موحد .

وكانت هيئة الحزب تضم كلا من :

رفيق العظم رئيسا ، أسكندر عمون نائبا للرئيس ، حقي العظم سكرتيرا ، محي الدين الخطيب نائبا للسكرتير ، محمد رشيد رضا ، والدكتور شبلي شميل ، والمحامى سامي جريديني أعضاء .

الجمعية الاصلاحية فى بيروت

تأسست فى بيروت فى عهد وزارة كامل باشا • وهى تدعو الى اللامركزية • وقد أغلقها الاتحاديون بعد عودتهم الى الحكم ، فأعلنت بيروت الاضراب ، وصدرت الصحف بيضاء مجللة أطرافها بالسواد وليس فيها الا أمر الحكومة القاضى بحل الجمعية • فما كان من الحكومة الا أن عطلت الجرائد أيضاً وأحالت محرريها الى القضاء •

المؤتمر العربى فى باريس

انعقد هذا المؤتمر فى باريس عام ١٩١٣ ، بناء على طلب من الهيئة المنظمة المكونة من عبدالغنى العريسى ، وعونى عبدالهادى ، ومحمد الحمصانى ، وجميل مردم ، وتوفيق فايد • قد نشأت فكرة عقد هذا المؤتمر عقب تعطيل الجمعية الاصلاحية فى بيروت ، وأشترك فيه ممثلون عن جميع الاقطار العربية وعن الجاليات العربية فى دول أمريكا الشمالية والجنوبية •

وقد أختير توفيق السويدى ـ الذى كان طالبا فى باريس يومذاك ـ لتمثيل العراق • وحين التأم عقد المؤتمر انهالت برقيات التأييد عليه من كافة الاوساط والهيئات والمنظمات العربية ، ونشرت الصحف الاوربية نتفاً عنه ، فاكتسب قوة معنوية كبيرة ، مما أضطر الحكومة العثمانية الى ارسال مدحت شكري بك السكرتير العام لجمعية الاتحاد والترقي لمفاوضة المؤتمرين والوصول الى اتفاق معهم • وقد عملت الحكومة من جهة أخرى على تحريض أذنابها فى سوريا ليبرقوا الى المؤتمر محتجين على أعماله ومنكرين شرعيته فى تمثيلهم • وقد سارت أعمال المؤتمر سيراً مرضياً ، والقى توفيق السويدى فى أحدى جلساته خطاباً عبر فيه عن رغبة الشعب العراقى فى الحكم اللامركزى وعن أمانيه القومية • وختم المؤتمر أعماله بالاتفاق مع ممثل الحكومة على المواد التالية :ـ

(١) يكون التعليم فى البلدان العربية باللغة العربية فى الدراستين

الابتدائية والاعدادية ، وبلغة الاكثرية فى الدراسات العالية • على أن يكون تدريس اللغة التركية اجباريا فى الدراسة الاعدادية •

(٢) يشترط أن يكون جميع رؤساء الدوائر ، عدا الولاة ، ملمين باللغة العربية وأن يجرى تعيينهم محليا فى الولاية • ولا يعين من العاصمة الا القضاة ورؤساء العدلية الذين يتم تعيينهم بادارة سنية •

(٣) تعهد ادارة الاملاك الموقوفة للجهات الخيرية المحلية الى المجالس المحلية •

(٤) تعهد الأمور النافعة « الاشغال » الى الادارة المحلية •

(٥) يخدم الجنود العرب فى البلاد القريبة منهم ، أما الذين تقضى الضرورة بارسالهم الى اليمن والحجاز أو عسير فيرسلون بنسبة عادلة من جميع مجندى المملكة العثمانية •

(٦) تكون مقررات المجالس المحلية نافذة ضمن صلاحياتها القانونية •

(٧) توافق الحكومة مبدأيا على أن يشترك فى هيئة الوزارة ثلاثة من العرب على الأقل ، وأن يعين ثلاثة آخرون كمستشارين أو معاونين فى الوزارات ، وأن يعين عدد من العرب كأعضاء فى مجلس شورى الدولة ، وفى محكمة التميز ، ودائرة المشيخة الاسلامية وغيرها •

(٨) يعين من العرب خمسة ولاة وعشرة متصرفين على الاقل •

(٩) تكون نسبة الاعيان العرب اثنين لكل ولاية •

(١٠) يستخدم فى دوائر الحكومة المختلفة مفتشون أخصائيون من الاجانب تحدد صلاحياتهم بتشريع خاص •

(١١) تمنح الحكومة قروضاً مالية لسد عجز الميزانيات فى الولايات العربية ، كما تنفق نصف واردات الاملاك على شؤون المعارف •

(١٢) تجرى المعاملات الرسمية فى كافة البلدان العربية باللغة العربية ، على أن يتم تنفيذ هذا البند تدريجياً •

وحين انفض المؤتمر وعاد ممثل الحكومة ليبلغ حكومته بنصوص الاتفاق الآنف الذكر قبلت بالشطر الاول من المادة الاولى ، وبالمواد الثانية والثالثة والخامسة ، ورفضت الموافقة على المواد الاخرى • ثم صدرت الارادة السنية بتطبيق المواد الاربع المذكورة وعممت على الولايات العربية •• الا أنها بقيت حبرا على ورق •

الجمعية الاصلاحية فى البصرة ومهادنة الحكومة

قر رأى السيد طالب وبعض أقطاب حزبه على حل حزب الحرية والائتلاف وتأسيس جمعية اصلاحية ، على غرار الجمعية الاصلاحية فى بيروت ، ترتبط بحزب اللامركزية فى مصر ، وتعمل حسب منهاجه ، وتدعو الى تحقيق أهدافه • فوافقهم الحزب على ذلك الرأى ، ولكنه اشترط أن لا يغلق الحزب أبوابه الا بعد مفاوضة الاتحاديين على حل جمعيتهم فى البصرة • وجرت المفاوضات ، فأبدى الاتحاديون استعدادهم لحل جمعيتهم ، خاصة بعد أن شل نشاطها وتفرق أعضاؤها وهزلت ميزانيتها • وهكذا تم حل الحزب والجمعية فى آن واحد • وبعد أيام تقدم نفس أعضاء الهيئة المؤسسة للحزب بطلب الى الحكومة لتأسيس الجمعية الاصلاحية ، وقدموا منهاجها المتضمن ثمانية وعشرين بندا ، على أن يكون مركزها دار السيد طالب • فجاءت الموافقة وأعلن أفتتاح الجمعية رسميا فى ٢٨ شباط سنة ١٩١٣ ، وسارع أعضاء حزب الحرية المنحل الى الانتماء الى الجمعية الجديدة ، كما أنضم اليها أكثر الضباط العرب فى البصرة ، وجرت أنتخابات الهيئة الادارية فأسفرت عن نتائج مماثلة لما كانت عليه فى الحزب السابق ، وأحتفظت أنا بمركزى كمعتمد لها • ومنذ أول تشكيلها بدأت الجمعية بمطالبة الحكومة بالنظام اللامركزى مقتفية آثار الحزب اللامركزى فى مصر •

وبأغلاق جمعية الاتحاد والترقي فى البصرة تضاءلت سطوة الحكومة فيها وقوى نفوذ السيدطالب ، حتى أصبح الولاة يتملقونه والقواد يطلبون رضاه • فكرت الحكومة فى أمر هذا الخصم ملياً ، وخيرت نفسها بين التظاهر

rise of power of S.T.

بعدائه أو أخفاء هذا العداء وأبداء المسالمة ، ففضلت الحل الثانى ، لانه لم يكن من السهل على الحكومة التغلب على السيد طالب وهو فى البصرة حصنه الحصين • لذلك كتب طلعت بك وزير الداخلية الى والى البصرة ووالى بغداد يبلغهما رغبة الحكومة فى أستمالة السيد طالب الى جانبها بمختلف الوسائل الممكنة • فطلب والى بغداد الى رشيد الخوجه رئيس الاركان فى بغداد أن يكتب الى صديقه طالب فى هذا الموضوع • فكتب رشيد الكتاب وسلمه الى الوالى ليطلع عليه ، وأرسل فى ذات الوقت رسالة سرية الى السيد طالب يخبره بأنه ما كتب كتابه الاول الا أستجابة لالحاح الوالى •

وصل الكتابان الى السيد طالب فى آن واحد فلم يأبه لدعوة الحكومة • أما والى البصرة بالوكالة وقائد حاميتها عزت باشا الكركوكلى ، الذى كان صديقاً حميماً للسيد طالب ، فقد أخبر الوزارة بفشل مساعيه لحمل السيد طالب على مصالحة الحكومة ، فأعتبر طلعت بك هذا الفشل تواطؤا بين عزت باشا والسيد طالب ، وأعتقد أن الوالى نفسه يدين بالمبادىء الجديدة ويؤمن بالنظام اللامركزى ، فغضب عليه ، وأمر بنقله ، وبتنزيل رتبته ونقل جميع الضباط العراقيين فى فرقته ومعاقبتهم ، وسوق الجنود البصريين الى جهات نائية انتقاما منهم •

أرسلت الحكومة الى البصرة والياً جديداً هو سليمان شفيق باشا ، يصحبه فوجان من الجنود والضباط الاتراك ، لكي يحلوا محل حامية البصرة المغضوب عليها • وتوجه الوالى وجيشه من استانبول على ظهر باخرة كبيرة • فأدرك السيد طالب الخطر المحدق بالجنود والضباط العراقيين جزاء ولائهم له ، فرأى أن يعمل على حمايتهم ويقبل بمفاوضة الحكومة • فجرت المراسلات بينه وبين وزيرى الداخلية والحربية طلعت وأنور ، وعرض هو شروطه الاربعة للمهادنة والصلح وهى :ــ

أولا ــ أعادة رتبة عزت باشا اليه •

ثانيا ــ أن يقسم الوزيران المذكوران بشرف الدولة الا يمسا بسوء

الضباط العراقيين فى البصرة ، على أن يكون للحكومة الخيار فى نقلهم أو عدمه .
ثالثاً - يبقى الجنود البصريون فى البصرة .

رابعاً - أن يعد الوزيران وعداً صادقاً بأجراء الاصلاحات التى تطالب بها الجمعية الاصلاحية فى القطر العراقى .

وافقت الحكومة على هذه الشروط ووعدت بتنفيذ الثلاثة الاولى فورا وبتنفيذ الشرط الرابع تدريجيا . وعرضت بدورها على السيد طالب شرطين ثـ أولهما أن يتوسط بينها وبين ابن السعود لتسوية مشكلة الاحساء . وثانيهما أن يتولى تأليف لجنة لاعانة الاسطول العثمانى . فوافق عليهما السيد طالب ونشر البيان التالى فى الصحف :ــ

« أعلن مع كمال الفخر الى عموم أهالى الولاية والملحقات بأننا قد اتفقنا للاشتراك فى الجهود ، كأننا روح واحدة ، لأجل اعلاء شأن حكومتنا السنية التى قدرت صداقتنا رسمياً ، فلم يبق بيننا وبين الحكومة السنية خلاف بأى صورة كانت ، وقد زال ما كان من سوء التفاهم زوالا قطعياً وصرنا كلنا كتلة واحدة تعمل على سعادة دولتنا الأبدية وتسعى الى محافظة وحدتنا العثمانية بكل قوانا وحتى آخر فرد منا . وللبيان حررت الكيفية وأعلن ذلك فى ٧ ربيع الاول سنة ١٣٣٢ ، ٣ شباط سنة ١٩١٣ .

نقيب زادة السيد طالب »

على أثر نشر هذا البيان أرسل كل من طلعت بك وأنور باشا رسائل شكر للسيد طالب ، وجهزاه بشيفرة خاصة كى يستطيع الاتصال بهما رأسا بدون وساطة الوالى . وقد برت الحكومة بوعدها بتنفيذ الشروط الثلاثة الاولى ، ولكنها أخذت تماطل فى اجراء الاصلاحات المنشودة ، مما اضطر السيد طالب الى الاتصال بصورة مستمرة بالوزيرين المذكورين بواسطة الشيفرة للمطالبة بتلك الاصلاحات . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان الحكومة نقلت الضباط العراقيين الكبار أمثال رشيد الخوجة ، وياسين الهاشمى ،

وعبداللطيف الفلاحى ، وغيرهم الى أماكة نائية بقصد أضعاف الحركة القومية النامية فى العراق •

وصلت الباخرة التى تقل الوالى الجديد سليمان شفيق باشا وجنوده الى المحمرة ، فأستقبله فيها الشيخ خزعل أمير المحمرة وعربستان ، والسيد طالب ، وبعض أعيان البصرة ، وكان بعضهم يرتدى العباءة فأظهر الوالى اعجابه بها ••• ولما قدم اليه الشيخ خزعل عباءة فرح بها ، فلبسها ونزل بها الى رصيف العشار ، فأطلق عليه الأهلون أسم « الوالى أبو العباية » •••

وقد اتخذ فى فترة ولايته على البصرة سياسة اللطف واللين ، وتودد الى السيد طالب حتى توثقت بينهما أواصر الصداقة ، حتى أنه حين توفى شيخ الزبير تقدم بعض أتباع عجمي السعدون للمطالبة بالمشيخة ، فطلب اليه السيد طالب أن ينصب الشيخ ابراهيم العبدالله الابراهيم شيخا على الزبير فأجابه الى طلبه •

كلمة حق لا بد منها

قد يتساءل القاريء الكريم عن سر تلك القوة التى كان السيد طالب يتمتع بها ، والأسباب التى أدت الى سطوته ونفوذه ، بالرغم من قوة الحكومة العثمانية وبطشها بأعدائها • وأني أجيبه ، عن علم أكيد وصلة شخصية وثيقة ، بأن السيد طالب كان من أدهى الرجال وأشدهم بأسا ، وكان لا يتورع عن الاقدام على أخطر المجازفات فى سبيل تحقيق غاياته ، وكان يلتزم أعوانه ويحميهم ، ويبطش بخصومه دون ما تساهل • كان كريما مسرفاً ، فلا عجب أن يتعلق به رجاله الاشداء ويفتدونه بأرواحهم ، وكان وطنياً صلبا يقارع ظلم الحكومة العثمانية بلا خوف أو وجل ، ويرفض معاونة الانجليز بأباء وشمم ، وله فى ذلك مواقف رائعة • وبقيت صفحته الوطنية ناصعة البياض حتى سنة ١٩٢٠ م ، أي بعد عودته من منفاه الاول ، حين لمست منه تساهلا مع الانجليز ، فكان ذلك ايذاناً بأنقطاع المودة بيننا ، كما سيأتى ذكره فى أبحاث قادمة •

أما من أين كان ينفق كل تلك المبالغ الطائلة على مناوراته السياسية ،

وكيف كان يعيل ذلك الجيش من الحراس والخدم ، فاني أجيب على ذلك ، عن أطلاع تام ، بأن وارداته من نخيله كانت كبيرة ، وكان يتقاضى من أبيه راتبا شـهريا قدره سبعون ليرة ، وراتبا مماثلا من الشيخ مبارك الصباح ، وخمسون ليرة من الشيخ خزعل أمير المحمرة ، لقاء حمايته لمصالحهما الكثيرة وأملاكهما الواسعة فى البصرة • ولم يتوان الاميران المذكوران عن امداده بالسلاح كلما احتاج اليـه • وكان راتب النيـابة يومذاك خمسـين ليرة • أما واردات الحـزب والجمعية من بعـده فجسيمة ، اذ كانت مئات الليرات تنهال شهريا من الاعضاء والمؤازرين الاغنياء • ولم يكن طالب ليستأجر رجاله وحراسه ، بل كانوا كلهم من فلاحيه وعبيده • أما التهم التى يزعمها بعضهم عن أتصال السـيد طالب بالانجليز وتقديمهم المعونة المالية اليه ، فليس لها نصيب من الصحة البتة • أقول هذا بدون أى تأثير أو دافع خاص ، فان الرجل قد لاقى ربه منذ سنين • وأنى والله لو كنت قد شـممت فيه رائحة التعاون مع الانجليز لنفرت منـه نفور الصحيح من الاجرب ، لذا فاني أبريء ساحة السيد طالب من كل تهمة أو خيانة ، وأسـوق شهادتى هـذه خـدمة للتـاريخ •

ابن السعود يحتل الاحســاء

ذكرنا فيما مضى أن الاحساء وملحقاتها كانت قد أدخلت تحت سيادة الدولة العثمانية الفعلية فى زمن مدحت باشا ، وبقيت كمتصرفية تابعة لولاية البصرة ترسل اليها الحكومة المتصرفين من استانبول • وفى الوقت الذى كانت الفوضى تسود الدولة العثمانية بأسرها ، كانت هذه الفوضى بالغة أشدها فى تلك المنطقة النائية ، حيث لا رقيب على المتصرفين ولا رادع للجندرمة • فلم يطق الاعراب تعسف الموظفين ، ولم يتحملوا الضرائب الثقيلة التى ترهقهم الحكومة بجباياتها ، لذلك ارسلوا الى أبن السعود يطلبون منه انقاذهم من تلك الحالة السيئة • وفى ٥ مايس عام ١٩١٣ أحتل ابن السعود بـلاد الاحساء ، وأجلى عنها الجيوش العثمانية وجميع الموظفين ، وهيأ لهـم باخرة أقلتهم الى البصرة •

جرى هذا الاحتلال فى نفس الشهر الذى قتل فيه فريد بك ، فزعمت

حكومة استانبول أن مقتل القائد التركى كان تمهيدا مدبرا من الجمعية الاصلاحية فى البصرة لاحتلال الاحساء من قبل ابن السعود • وفى الحقيقة ان هذا الزعم عار عن الصحة ، اذ لم يكن أحد من البصريين ليعلم بما كان سيحدث فى الاحساء •

عزمت حكومة استانبول على ارسال حملة قوية فى قافلة من البواخر لاسترجاع الاحساء • وهنا تدخل الانجليز ، فأبلغوا الحكومة العثمانية معارضتهم لهذه الفكرة ، وذلك رغبة منهم فى صيانة السلم فى شواطىء البحر العربى •• وحفظاً لمصالحهم الخطيرة فى الخليج •• وهكذا أغلق على الحكومة ، فتذرعت بوسيلة أخرى ، وهى أن التمست من السيد طالب أن يتوسط بينها وبين ابن السعود لتسوية النزاع تسوية سلمية ، نظرا للصداقة المتينة التى تربطهما ببعض •

قدم ابن السعود ، اجابة لطلب السيد طالب الى مكان بين الكويت والزبير يدعى « الصبيحية » ، وتوجه السيد طالب الى المكان المذكور على رأس وفد قوامه : سامى بك متصرف الاحساء السابق ، والمقدم عمر فوزى بك ، وأحمد الصانع ، وعبداللطيف المنديل •

وبنتيجة المفاوضات وافق ابن السعود على أن تسميه الحكومة العثمانية واليا على الاحساء لمدة عشر سنوات قابلة للتجديد والتمديد • وعاد الوفد الى البصرة يحمل ذلك الفوز الوهمى وتلك المعاهدة الواهية • فقبلتها حكومة استانبول على مضض ، وأنعمت على كل من أحمد الصانع وعبداللطيف المنديل بلقب الباشوية استجابة لرغبة السيد طالب • وهكذا أسدل الستار على قصة الاحساء القطر العربى الذى ما زال حتى اليوم جزءا من المملكة العربية السعودية •

جمعية العهد السرية

اذا كان مدحت باشا أبا الاحرار الاتراك ، فان عزيز علي المصرى يعد بحق أبا الاحرار العرب • لقد آمن منذ كان صبيا فى المدرسة الحربية

بحق أمته فى الحياة ، وأخذ يدعو لنصرة هذا الحق ، وما زال يدعو له بعد تخرجه وخلال تقلبه فى المناصب العسكرية ، دون أن يعرف للكلل معنى • وهو كغيره من الاحرار العرب فى ذلك الوقت يرى فى الحكم اللامركزى خير علاج للوضع • ولم يكن ليرى بأسا من الابقاء على الدولة العثمانية كمجموعة قوية تستطيع الدفاع عن نفسها أزاء أطماع الدول الاستعمارية الاوربية ، على شرط أن تتمتع الشعوب المنظمة تحت لوائها بالاستقلال الداخلى وأن يشملها الاصلاح التام • ولما أشتد التوتر بين الترك والعرب أسس عزيز على فى ٢٨ تشرين الاول عام ١٩١٣ جمعية العهد السرية ، وأملى منهاجها على طه الهاشمى ، وهو يتلخص فيما يأتى :ـ

« غاية الجمعية السعى وراء الاستقلال الداخلى للبلاد العربية ، على أن تكون متحدة مع حكومة استانبول على غرار اتحاد النمسا والمجر • وان الجمعية ترى ضرورة بقاء الخلافة الاسلامية وديعة مقدسة بيد آل عثمان • وتهتم الجمعية بأمر سلامة استانبول من مطامع الدول الاجنبية أهتماما خاصا ، لاعتقادها أن استانبول رأس الشرق ، لا يمكنه أن يعيش بدونها • وعلى رجال « العهد » أن يبذلوا قصارى جهدهم فى انماء الخصال المحمودة وبث الدعوة للتمسك بالاخلاق الفاضلة ، لأن الأمة لا تستطيع الاحتفاظ بكيانها السياسى والقومى مالم تكن مجهزة بالأخلاق الصالحة • ويجب على الأمة العربية أن تسعى للحصول على ما يؤهلها لأن تكون القوة الاحتياطية الرئيسية لحصن الشرق أمام الاستعمار الغربى »

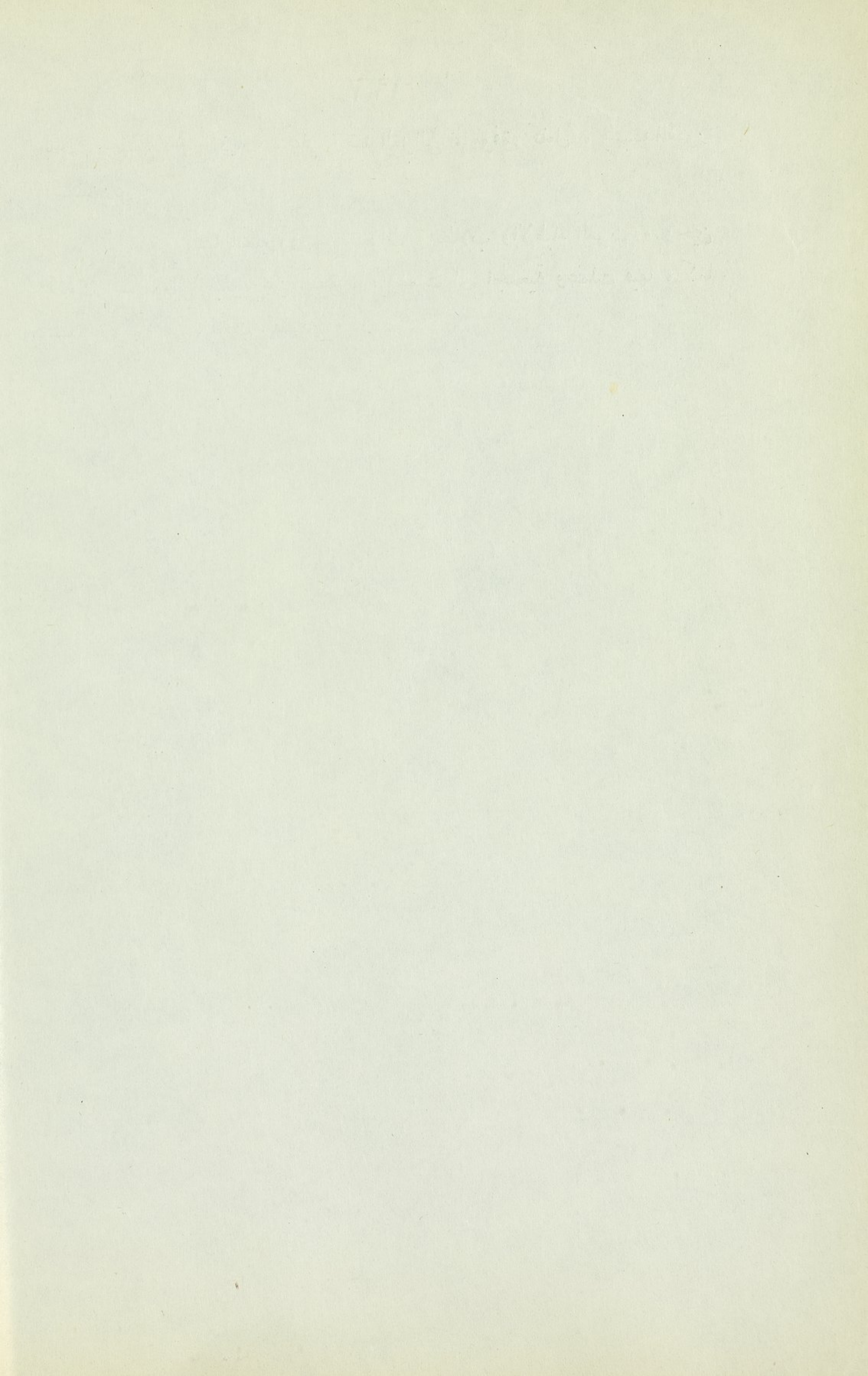
أنتمى الى هذه الجمعية فى بادىء الأمر من الضباط السوريين :ـ

سليم الجزائرى ، عونى القضمانى ، محمد اسماعيل ، مصطفى وصفى ، يحيى كاظم أبو الخير ، محي الدين الجبان ، علي النشاشيبي ، وأمين لطفى الحافظ •

ومن الضباط العراقيين :ـ ياسين الهاشمى ، نوري السعيد ، علي جودت ، جميل المدفعى ، مولود مخلص ، عبدالله الدليمى ، تحسين علي ،

محمد حلمي الحاج ذياب ، علي رضا الغزالي ، موفق كامل ، وعبـدالغفور البـــدري •

ثم أنتمى اليها الكثيرون من النواب والطلاب والاطباء العرب • وحين قدمت استانبول ، مبعوثا عن البصرة ، انتميت الى الجمعية وعملت فيها ، كما سيأتى ذكره فى البحث القـادم •



مجلس المبعوثان

١٤٠

الانتخــابات النيـابيـة

سبق أن أشرنا الى الانتخابات النيابية التى جرت عام ١٩١٢ والى فوزى بنيابة العمارة • ولما كانت نتائج تلك الانتخابات على غير ما يهوى الاتحاديون فقد لجأوا الى تعطيل المجلس الجديد مدة سنة ونصف ، ثم أعتبروا الانتخابات ملغاة ، وأوعزوا باجراء انتخابات جديدة تضمن لهم أكثرية نيابية ساحقة •

أعلنت نتائج الانتخابات الجديدة فى ٤ كانون ثانى سنة ١٩١٤ ، فأسفرت عن فوز مرشحى الحكومة فى سائر الوية العراق ، عدا البصرة الولاية الوحيدة التى تقلص فيها ظل الحكومة وتضاءل نفوذ جمعية الاتحاد ، ففاز بالنيابة فيها خصوم الحكومة من أعضاء الجمعية الاصلاحية • وكانت النتائج كما يلى :ـ

بغــــداد

توفيق الخالدى ، فؤاد الدفترى ، جميل الزهاوى ، مراد سليمان ، شوكت باشا ، ساسون حسقيل •

البصرة

طالب النقيب ، الحاج عيسى روحى ، عبدالله صائب ، سليمان فيضى ، عبدالرزاق النعمة ، أحمد كحالة •

الموصــــل

صالح السعدى ، محمد على فاضل ، ابراهيم فوزى ، داود يوسفانى •

الديوانيــة

على حيدر ، مدحت باشا ، خالد سليمان ، الدكتور سليمان ، فؤاد الجيه جى •

كـركـوك

محمد على قيردار ، ناظم نفطجى ، عبدالله صافى •

العمــارة

شكرى أفندى ، عبدالمجيد الشاوى ، عبدالكريم السعدون •

المنتفـــــــك

قريش أفندى ، معروف الرصافى ، عبدالمحسن السعدون •

الســـليمانية

حكمت بابان ، الحاج سعيد •

كـــربـــلاء

فوزى بك ، السيد عبدالمهدى •

الرحلة الثانية الى استانبول

فى عصر الخامس عشر من شباط ١٩١٤ م غص قصر قاسم باشا الخضيرى – المطل على شط العرب – بجمهور من أعيان البلد والموظفين ، يتقدمهم والى البصرة والسيد طالب ، وقد حضروا لتوديع نوابهم • فألقيت خطابا سجلت فيه شكرنا على تلك الحفاوة ، ثم أستعرضنا حرس الشرف فصدحت موسيقى الجيش بالنشيد الوطنى ، وأقلتنا الزوارق الى الباخرة « دامرة » الراسية في مياه الشط • كنا أربعة ، أنا والحاج عيسى روحى ، وعبدالله صائب ، وعبدالرزاق النعمة • أما السيد طالب فقد تخلف فى البصرة بأجازة مرضية خشية أن ينكل به الاتحاديون فى اللحظة التى يصل فيها استانبول ، اذ أنهم كانوا ، بالرغم من صلحهم الاخير ، يضمرون له الشر • وأما أحمد نعيم كحالة فكان قد سافر الى استانبول مع عائلته قبلنا بأيام •

تحركت بنا الباخرة ميممة شطر الهند ، فلما وصلت مسقط ألقت مراسيها هناك ، فصعد الينا منها عبدالله النعمة وعبدالقادر الزواوى مرحبين • ثم أقلعت الباخرة واستأنفت سيرها فوصلت كراجى فى ٢٠ شباط ١٩١٤ • وبعد تجوال قصير فى البلدة نقلنا أمتعتنا الى الباخرة السريعة « لنكة » فأقلتنا الى بومبى • وعلى رصيف ميناء بومبى كان فى أستقبالنا عبدالله الفارس وأولاده من أهل الزبير ، وجارالله الطالب وبعض أقربائه وأصحابه من أهل الموصل ، وكلا العائلتين معروفتان بتجارة الخيل بين العراق والهند • أصر كل من الفريقين على أن ننزل فى ضيافته ، وبعد أخذ ورد توصلنا الى قسمة عادلة ، وهي أن أكون أنا من نصيب آل طالب ، وأن يكون زملائي الثلاثة من نصيب آل

فارس • وفى خلال الايام العشرة التى قضيتها فى بومبى لقيت من آل طالب ومن عميدهم الحاج على منتهى الحفاوة والاكرام • فقد وضعوا تحت تصرفى عربة أنيقة كنت أتجول بواسطتها فى ضواحى المدينة الجميلة • وصحبتهم يوما الى سباق الخيل فوجدت فيه متعة شيقة •

وفى صباح ٢ مارت استقلينا الباخرة « مالوجا » قاصدين السويس • وكانت هذه الباخرة على جانب عظيم من الاناقة والضخامة ، وهى ذات حمولة أثنى عشر الف طن ، وفيها صالات للطعام وللرقص والتدخين والمطالعة ، وكنا نقرأ فى جريدة الباخرة اليومية آخر أخبار العالم منقولة باللاسلكى • وعندما رست الباخرة بعدن استقبلنا فيها محمد آل حسن علي من تجار عدن الكبار ، فرافقناه الى داره فى المدينة الداخلية حيث شربنا القهوة العربية التي كنا فى أشد الشوق اليها • ثم راحت الباخرة تشق عباب البحر حتى وصلنا السويس فى صباح ١٠ مارت ، فأنزلنا أمتعتنا وأستقلينا القطار الى القاهرة فوصلناها فى منتصف ليلة ١١ مارت ١٩١٤ م ، ونزلنا فى فندق « أدين بالاس » •

القـــاهرة عام ١٩١٤

والقاهرة مدينة كبيرة مكتظة بالسكان ، يخترقها النيل فيضفى عليها روعة وجمالا ، وتشمخ على جانب منها اهرامات الفراعنة الهائلة عند سفح جبل « المقطم » ، وفى قلبها يربض الأزهر الشريف المركز الاسلامى العظيم ، وتتناثر المتاحف والابنية التاريخية بين أحيائها فتجذب اليها قلوب السواح والزوار ، وتنبسط فى ضواحيها حدائق غناء كحديقة الحيوان المشهورة وغيرها • والمكتبات العامرة ، والاسواق المليئة بشتى أصناف البضاعة ، ومخازن الآثار والتحف ، وقصور الحاكمين ، وما خلف أسماعيل من روائع العمارة والفنون ، كل ذلك يستهوى المرء ويستحوذ على قلبه فلا يتمالك من التعلق بهذه المدينة العربية الخالدة •

وفى صباح اليوم الثانى من وصولنا زارنا فى الفندق كل من محمد

رشيد رضا صاحب مجلة المنار ، وعبدالمسيح أنطاكى صاحب جريدة العمران ، والسيد حسن خالد أبو الهدى الصيادى رئيس ديوان الخديوى الذى أقام لنا مأدبة غذاء فى ذلك اليوم ثم وعدنا بأن يهىء لنا مقابلة للخديوى عباس حلمى • وفى صباح يوم ١٣ مارت جرت مقابلتنا للخديوى ، وتناول البحث الحالة الراهنة فى البلاد العربية وما وصلت اليه من الانحطاط والتدهور ، وقال الخديوى بهذه المناسبة أنه يفتخر بأن واردات مصر أصبحت فى زمنه ضعف ما كانت عليه فى زمن سلفه ، وأن هذه الزيادة ستنفق فى سبيل أصلاح البلاد وتقدمها ونشر العلوم بين أبنائها • ثم زرنا الأمير محمد على باشا والأمير عبدالعزيز باشا ، وتداولنا واياهما فى الشؤون العربية العامة •

قمنا بعد ذلك بسلسلة زيارات لاعلام السياسة والأدب أمثال أسماعيل باشا أباظة ، وسيف الدين بك ، وأحمد لطفى بك المحامى ، وجرجى زيدان ، والشيخ محمد مهدى ، ومحب الدين الخطيب وغيرهم •

وأجتمعت برفيق بك العظم رئيس الجمعية اللامركزية وتباحثنا طويلا فرأيت فيه سياسيا عظيما مخلصا للقضية العربية ، حتى أن الاتحاديين عقب انتهاء المؤتمر العربى فى باريس أبرقوا اليه يعرضون عليه احدى الوزارات ، فأجاب بما يأتى :ــ « أشكركم وأعتذر لأني طالب أصلاح لا طالب وزارة » •

وفى صباح الرابع عشر من شهر مارت أخذنا القطار الصاعد الى الاسكندرية فوصلناها بعد ثلاث ساعات ، وهناك كانت الباخرة « تيويرى » تستعد للابحار الى بيروت فركبناها • وصلنا بيروت فى صباح ١٦ منه ، ووجدنا فى أستقبالنا لفيفا من أصدقائنا والطلاب البصريين الذين يتلقون علومهم فى معاهدها •

بلغت اقامتنا فى بيروت ستة أيام ، تعرفنا خلالها على الرجال العاملين فى الحقل القومى • ثم غادرنا بيروت على ظهر الباخرة « عباسية » ووجهتنا استانبول • وشاءت الصدف أن تجمعنى فى هذه المرحلة بعاطف بك قائد الجندرمة السابق فى البصرة وأحد أعوان فريد بك الذى جاء ذكره فى فصل

سابق . وكان على ظهر الباخرة أيضا محمد علي بك أحد أقطاب جمعية الاتحاد ، وعزمي بك والي أنقرا السابق .

ألقت الباخرة مراسيها فى استانبول فى صباح ٢٦ مارت ١٩١٤ ، فحللنا فى أوتيل « شاهين باشا » .

أستانبول عام ١٩١٤

ما أن ذاع نبأ وصولنا فى الاوساط العربية فى المدينة حتى تهافت الاصدقاء على زيارتنا ، وكانوا بين نائب وكاتب وضابط وطالب من المشتغلين بالقضية العربية . وفى أول مساء فى استانبول جاءني نورى السعيد ، زميل الدراسة ، وأمتدت بنا السهرة فى أحاديث طلية ، فروى لى دخائل السياسة فى استانبول ، ورويت له الحوادث الجسام فى البصرة والعراق . وأمضى ليلته من بعد ذلك فى غرفتى بالفندق . وفى مساء اليوم التالى أقام مأدبة عشاء فى فندق « طوقاتليان » أحتفاء بى دعى اليها نواب البصرة الآخرين وأسعد داغر .

أستأجرت لسكناى دارا مؤثثة تتألف من طابقين فى بناية بمحلة «بنغالتى» مقابل المدرسة الحربية ، وكان يقيم فى الطابق الثالث أصحاب البناية ، وهم شاب صيدلى وأخته وأمه .

وكان فى البيت غرفة أستقبال رحبة أتخذها العاملون فى القضية العربية ملتقى لهم ومكانا أمينا لاجتماعاتهم ، حتى أصبح بيتى بعد أيام أشبه بناد صغير . وكان من جملة غرفه غرفة أضافية لمن يرغب فى المبيت عندي من الاصدقاء أو من طلاب المدارس العالية ، حتى اعتاد بعضهم أن يقضى فيها ليالي الجمع .

كان طلاب المدرسة الحربية يفدون الى داري صباح كل يوم جمعة ، فيروون لى ما قاموا به من الجهود فى بث الدعوة العربية ، وكنت الخص لهم الحوادث التى تجرى فى البرلمان والتى لا تنشرها الصحف . وفى خلال الاسابيع القلائل الاولى تم أتصالي بكافة العاملين بالقضية العربية فى استانبول .

وقد جادت ذاكرتي الضعيفة بأسماء القسم الأعظم منهم ، وليعذرني من فاتني تذكر أسمه :ـ

نورى السعيد ، أمين العمرى ، أسعد داغر ، عبدالحميد الزهراوى « عضو مجلس الاعيان » ، عبدالكريم قاسم الخليل « رئيس المنتدى الأدبي » ، سليم الجزائرى ، أحمد عزت الاعظمى ، عادل أرسلان ، ناجى شوكت ، سامى شوكت ، ثابت عبدالنور ، محمد على مصطفى المهندس ، عاصم الجلبى ، رياض الصلح ، عبدالرزاق الجراح ، توفيق الدملوجى ، وياسين العريبى .

ومن طلاب الكلية الطبية الذين كانوا على وشك التخرج :ـ

هاشم الوترى ، فائق شاكر ، اسماعيل الصفار ، جلال العزاوى ، يحيى نزهت ، صائب شوكت ، داود الدبونى ، وعبدالله الدملوجى .

ومن طلاب المدرسة الحربية :ـ

ابراهيم الراوى ، جميل الراوى ، محمود الشهوانى ، أنطوان لوقا ، راجى العسكرى ، داود صبرى ، محمد حلمى ، ابراهيم أدهم ، على رضا الغزالى ، وعيسى الوترى .

وفى تلك الايام قدم استانبول بعض المتخرجين من مدرسة الحقوق فى بغداد ، بعد استقالتهم من وظائفهم ، لكي ينتموا الى الدورة التطبيقية التى أزمعت الحكومة عن أفتتاحها وأعلنت أن مدتها ستة أشهر ، يعين بعدها المتخرجون فى وظائف قضائية مرموقة ، وكان هؤلاء :ـ

حسن رضا ، عبدالعزيز الخياط ، محمد حسين البزركان ، حمدى صدرالدين ، قاسم ثروت ، عبدالوهاب شاكر ، ناجى الزهاوى ، كمال الشامى ، ومحمود جلال .

وبعد وصولهم الى استانبول غيرت الحكومة وجهة نظرها ، فجعلت مدة التطبيق سنة واحدة بدل ستة أشهر ، وأشترطت أن لا يقبل فى الدورة الا من اجتاز امتحانا نظريا وعمليا ، وحددت كانون الثانى موعدا للافتتاح .

فأسقط فى أيديهم وتشبثوا للوصول الى حل عادل لمشكلتهم فلم يوفقوا ، وعادوا أدراجهم الى بغداد والخيبة ملء نفوسهم • وقبيل عودتهم زارني بعضهم وشكا لي الحال ، فوعدتهم ببحث الموضوع فى مجلس المبعوثان فى الوقت المناسب • وقد وفيت بوعدي حين طرحت ميزانية العدلية على بساط البحث ، فهاجمت وزارة العدلية وأتهمتها بالسير على سياسة أرتجالية تؤدى دائما الى الحاق الضرر بالآخرين •

مقابلة السلطان وبعض الوزراء الاتحاديين

بلغنا أن العادة الجارية تقضى بأن يزور النواب الجدد الوزراء فى مكاتبهم ، لذا فقد أجتمعنا ، نحن نواب البصرة الخمسة لأداء هذه الزيارة • بدأنا أولا بطلعت بك وزير الداخلية ، فأستقبلنا استقبالاً ظاهره تودد وأحترام وباطنه مقت وعدم أرتياح ، وكنا نقرأ فى عينيه حقيقة شعوره ، فكانت عيناه تتنقلان شزرا بيننا • ثم زرنا جمال باشا « السفاح » وزير البحرية فأستقبلنا أستقبالا شبه ودي ، وعندما تناولنا بحث التدهور فى حالة البصرة العمرانية والثقافية قال ان البصرة محتاجة الى وال يحمل السوط بيده • فأجبته :

ــ أؤكد لك ياحضرة الباشا ان البصرة انما تحتاج الى وال عاقل عادل • فأردف قائلا :

لا أوافقك على ذلك فان البصرة اليوم لم تعد ولاية عثمانية بسبب تمرد أهلها على الدولة •

وزرنا بعد ذلك أنور باشا وزير الحربية فلم نجده •

حل يوم ١٣ نيسان وهو يوم عيد جلوس السلطان محمد رشاد على العرش ، فدعى النواب والاعيان وكبار القادة والموظفين الى تهنئته فى قصر « طولمة باغجة » • كان القصر على جانب كبير من الروعة والفخامة ، وقد هيئت فيه غرف كثيرة لاستقبال المهنئين • فانتحينا ــ نحن نواب البصرة ــ زاوية فى أحدى الغرف ، وتوافد علينا بعض النواب والاعيان العرب حتى أصبحت دائرة جلوسنا كبيرة تستلف الانظار • وصادف ان كان فى ركن آخر من الغرفة كامل

باشا والغازى المشير أحمد مختار باشا ، وكلاهما من رؤساء الوزراء السابقين ، فاستفهما عن المجتمعين فى دائرتنا ، فأجاب بعض النواب بأنها دائرة نواب البصرة وأصدقائهم . فأبديا رغبتهما فى التعرف علينا وأرسلا فى طلبنا ، فتقدمنا للسلام عليهما وشاركناهما مجلسهما . وهنا وجه كامل باشا سؤالا عن الحالة فى البصرة . فأجبناهم بأنها تشكو الاهمال ، والجهل ، والضيم . فقال مستغربا : عجيب أنكم تشكون من غيركم ، وغيركم يشكو منكم . فأجبناه : اننا لم نك لنشتكي لو لم يكن فى الوضع ما يبعث على التذمر والشكوى ، وربما كانت صرخاتنا المتوالية فى طلب الاصلاح قد سببت انزعاج المسئولين . فابتسم قائلا :

– نعم قد يكون ذلك صحيحا لان الصرخات العالية تزعج الآخرين دائما !...

وفى تمام الساعة العاشرة دعينا الى قاعة الاستقبال الكبرى . وأنتظم الحاضرون فى صفين طويلين ثم فتحت الابواب فى صدر القاعة فدخل منها السلطان وأعتلى المنصة ، وتقدم منه الامير سعيد باشا رئيس الوزراء والقى خطابا مختصرا هنأه فيه ، فأجابه السلطان بكلمة شكر وجهها الى الحاضرين وللشعب العثمانى ، ثم خرج فأنفض الاجتماع .

محاولة اغتيال الخديوى عباس حلمى

كان عباس حلمى خديوى مصر فى وضع لا يحسد عليه . فالانجليز كانوا يرون فيه مشجعا ومعاضدا للاحزاب الوطنية المعارضة للاحتلال ، مثل الحزب الوطنى بزعامة كامل باشا ، وحزب الاصلاح برئاسة الشيخ على يوسف صاحب « المؤيد » . وقد عبر المندوب السامى فى ذلك الحين اللورد كتشنر عن عدم أرتياح حكومته لميول الخديوى فى عدة مناسبات .

وكانت الحكومة العثمانية هى الاخرى غير راضية عنه لاعتقادها بأن أحلال اللغة العربية فى الدوائر الرسمية فى مصر وأقصاء بعض الموظفين الاتراك عن مناصبهم تم بايعاز منه . أضف الى ذلك عطف الخديوى على حزب اللامركزية الذى يناوئ الحكومة العثمانية ، والعداء المستحكم بينه وبين

ابن عمه سعيد حليم باشا رئيس الوزارة فى استانبول ، مما ادى الى توسع شقة الخلاف بين الخديوى والحكومة العثمانيـة .

وصل الخديوى استانبول بدعوة من السلطان محمد رشاد وحلّ فى ضيافته . وفى صباح يوم **٢٥** تموز سنة **١٩١٤** استقل احدى العربات السلطانية وذهب لزيارة طلعت بك وزير الداخلية . وعند خروجه من الباب العالى ، بعد أنتهاء الزيارة ، هاجمه طالب مصرى يدعى محمود مظهر وأطلق عليه سبع رصاصات ، أصابته ثلاثة منها فخدشت أحداها خده ، وأستقرت الثانية فى ذراعه ، وأطارت الثالثة جزءا من لسانه ، وأصابت الرابعـة صهره جلال الدين باشا فى فخذه ، وجرح بعض المارة . أما الجاني فقد لقى حتفه على يد حراس القصر .

عندما دوت الطلقات كنت فى احدى المكتبات القريبة جـدا من مكان الحادث ، فلما بلغت المكان كانت عربة الخديوى قد توجهت الى المستشفى وكان الشاب المصرى ملقى على الارض مضرجا بدمائه .

وقد حامت الشبهة حول الحكومة ، وأتهمت بأنها ذات يد فى المؤامرة ، بدليل أن حوذى العربة لم يسرع عنـد وقـوع الحادث بل أوقفها حتى أتم الجانى فعلته ، وأن الحراس الواقفين على الباب لم يسرعوا للدفاع عن الخديوي كأنهم بذلك أفسحوا المجال للطالب المصرى لانجاز مهمته ، ثم قتلوه بقصد أخفاء معـالم المـؤامرة .

ادخل الخديوى المستشفى ، وأعلنت الحكومة ان حادث الاعتداء عليـه كان شخصيا وليس سياسيا ، وتمنت له الشـفاء . وبعد أن تماثل الخـديوي للشفاء من جروحه ورغب فى العودة الى مصر وكانت نيران الحرب العالمية قد اندلعت ، فمانع الانجليز فى عودته ونصبوا حسين كامل على العرش بدلا منه . وهكذا فقد الخديوى عرشه .. ورسخت أقدام الانجليز فى مصر .

البيـك ذو اللحيـة الطـريفـة

كان الشيوخ ، وحتى بعض الـكهول ، فى ذلك الزمن ـ وفى البصرة

بصورة خاصة ـ يرسلون لحاهم للهيبة والوقار • وكنت أنا دون الثلاثين من العمر أحلق ذقني كما يفعل الشباب ، ولكني بحكم أشتغالي فى السياسة وترددي على مجالس الشيوخ كنت أشعر أحيانا بالحاجة الى اطالتها •

وحدث يوما ان كنت فى مجلس أناح الحاضرون فيه ، وكلهم من ذوي اللحى ، باللائمة على الشباب الذين يحلقون ذقونهم كل يوم دون مراعاة للتقاليد الموروثة !•• ومن يومها عنيت بأرسال لحيـة صغيرة ••

وفى أحد عصارى الربيع كنت مع عبدالرزاق النعمة وعبدالله صائب ، نائبي البصرة ، نتريض فى حدائق قاضي كوى فى استانبول وننعم بمناظر البحر الخلابة ، فاذا بثلاث فتيات مبرقعات بالبراقع الحريرية الشفافة يقبلن فى أتجاهنا • وشعرت أن أحداهن أطالت النظر الى ، فلما أقتربن من موضعنا قالت لزميلتيها :ـ أترون كم هي طريفة لحية هذا البيك الشاب ؟•• فضحكتا وشاركتهما هي فى القهقهة • أما أنا فقد التفت الى زميلي قائلا بالتركية :ـ

يكفينى ما سمعت اليوم وسوف أتخلص من لحيتى الليلة والى الأبد !••
فلما سمعت الحسناء قولى أردفت قائلة لرفيقتيها :

ـ لشد ما أنا مسرورة أذ خلصته من لحية لا تناسبه ••

وفى تلك الليلة رويت الحادث لبعض الاخوان المجتمعين فى داري ، وأخبرتهم بعزمى على حلاقة ذقنى فى الصباح اكراما للآنسة المجهولة ، وكان بين الحاضرين نورى السعيد فأصر الا أن يأتينى بآلة الحلاقة لتكون تذكارا منه لهذا الحادث الطريف •

وفى صباح اليوم التالى كنت أسير فى طريقى الى البرلمان بخفة الطير كأن حملا ثقيلا قد أزيح عن كاهلي •••

عزيز على المصرى باشا فى السجن

تخرج عزيز علي ضابطا فى الجيش العثمانى ، وتدرج فى سلم المراتب

حتى أصبح أمير لواء • ولما هاجمت ايطاليا طرابلس الغرب أشترك عزيز على فى المعارك وأبلى فيها بلاء حسنا • الا أنه حدثت بينه وبين أنور باشا مشادة أنتهت بأن يخلف عزيز على أنور باشا فى القيادة هناك • دارت الايام دورتها فاذا بأنور باشا وزيرا للحربية وصهرا للسلطان ، يرفع من يشاء ويخفض من يشاء بغير حساب ، ويسجن ويشنق دون وازع ولا رادع • وجاء دور خصمه عزيز على فأمر بتوقيفه فى ٩ شباط سنة ١٩١٤ تمهيدا لاحالته على المحاكم العسكرية بتهمتين : الاولى أختلاس ثلاثين الف ليرة فى الحرب الطرابلسية ، والثانية أهانة الضباط الاتراك وأخراجهم من ميدان القتال وأعادتهم الى تركيا •

أثار توقيف عزيز على أستياء شديدا فى استانبول وفى البلاد العربية ، فأرسلت برقيات الاحتجاج وأقيمت المظاهرات أنتصارا له • وشمل الاستياء بعض أقطاب جمعية الاتحاد وبعض الجمعيات التركية ، بالنظر لما يتمتع به المتهم من عطف الرأى العام التركى والعربى على السواء ، خاصة وأن الأمر بتوقيفه جرى بعد أن أعلنت الحكومة العفو العام عن جميع الجرائم السياسية التى وقعت قبل سنة ١٩١٣ •

وقد بذل رجال العرب الاحرار فى استانبول جهودا جبارة لانقاذه ، فكانوا يراجعون المقامات العليا وذوى النفوذ وسفارات الدول الاجنبية لاقناعها بالتدخل فى القضية • وحين علم أهل عزيز على بالخطر المحدق به جاءت الى استانبول شقيقته وأحد أقربائه • فرغب المشتغلون فى قضيته بالاجتماع بهما سرا ، وقد جرى الاجتماع فى دارى وأفهمنا قريبه بالمساعى والمحاولات المتعددة التى لم تثمر بعد • وكان عدد المجتمعين ثمانية :

مؤلف الكتاب ، قريب عزيز على المشار اليه ، نورى السعيد ، ثابت عبدالنور ، عبدالله الدملوجى ، عادل أرسلان ، أسعد داغر ، والدكتور أسماعيل الصفار •

وقد بلغ التحمس بثابت عبدالنور أن أعلن عن تطوعه لاختطاف عزيز

على من السجن اذا ساعدناه فى ذلك ، فلم نوافقه على اقتراحه لاستحالة نجاحه ٠

وبعد ذلك الاجتماع كان ثابت يطرق أبواب المفوضيات والسفارات متنكرا بأزياء مختلفة خوفا من جواسيس الحكومة ، حتى أنه أرتدى يوما ملابس قسيس وأخفى وجهه بلحية كثة مستعارة ودخل السفارة الانجليزية وطلب منها التدخل رسميا باعتبار ان عزيز علي مصرى التبعية وان لانجلترا الحق فى صيانة حياته بحكم أرتباطها الوثيق بمصر ٠

لم تجد كل هذه المحاولات نفعا ٠ وقدم عزيز على الى الديوان العرفى فى أول نيسان سنة ١٩١٤ ، وأستمع القضاة الى شهادات شهودالزور وأكاذيبهم الملفقة فحكموا عليه بالاعدام ٠

قابل الرأى العام التركى هذا الحكم بسخط شديد ، فتقدم وفد من الشبيبة التركية ، برئاسة الدكتور حسين حيدر بك الى جمال باشا وطلب منه أن يتدخل فى الامر لينقذ سمعة صديقه أنور باشا من الوصمة التى ستلحق به فيما لو نفذ حكم الاعدام ٠

بلغ سمع أنور باشا صدى الاستهجان والامتعاض فى كافة أنحاء الدولة العثمانية ، فأدرك خطأه فى مغالاته بالانتقام من عزيز على ٠ وقبل أن يقدم الحكم للسلطان للمصادقة عليه أقامت السفارة الفرنسية مأدبة فى دارها ، دعى اليها الوزراء الاتراك والسفراء الاجانب ، كان الغرض منها بحث قضية عزيز على ٠ وفى ركن من أحدى الغرف أختلى المسيو جورج ريموند المراسل الحربى لجريدة « الستراسيون » بجمال باشا ، وحثه على أقناع صديقه أنور بالعفو عن عزيز على ، وحذره بأن الحكم اذا نفذ فسوف يخسر أنور باشا مركزه الاجتماعى والسياسى فى الداخل والخارج ٠ وازاء هذا الضغط المتواصل أقنع جمال باشا أنور باشا بالعفو عن عزيز على ، فأصدر السلطان عفوه عنه ، بشرط أن يغادر استانبول حالا وأن لا يعود اليها وأن لا يتدخل مرة أخرى فى شؤون الدولة العثمانية ٠

أطلق سراح عزيز علي فسافر فى اليوم التالى الى مصر • وقد فضل المناضلون العرب ألا يتصلوا به ، لئلا يحرجوا موقفه ، وهو محاط بالجواسيس والأرصاد • وفى آخر ليلة قضاها عزيز على فى استانبول جاءنى نورى السعيد وبيده ربطة عنق وقال : هذه ربطة أهداها اليك عزيز علي رمزا للشكر وتذكارا للنضال المشترك •

بعد أن تم أبعاد عزيز علي باشا قامت الحكومة بسلسلة اضطهادات للضباط العرب ، فأنزلت رتب بعضهم ، ونقلت فريقا منهم الى أماكن نائية وأساءت معاملة الآخرين • فنقل ياسين الهاشمى الى أدرنة قبيل الحرب العالمية الاولى ، وطلبت وزارة الحربية من رشيد الخوجة وعبداللطيف الفلاحى الحضور الى استانبول ، وكان غرضها التنكيل بهما ، فلما وصلا بيروت سهل لهما صبيح نشأت رئيس الجندرمة فيها سبيل الفرار الى مصر • وكان صبيح نشأت اتحاديا فى ميوله ، ولكن شهامته أبت الا أن ينقذ صديقيه مما يراد بهما من سوء • وفى خلال اقامتهما فى مصر أرسل اليهما توفيق الخالدى الاتحادى كتب أمان ودعاهما للقدوم الى استانبول ، فتشجعا وحضرا الى استانبول حيث تسلما أمرا بالنقل الى أنقرا • فلما أشتعلت نيران الحرب نقلا للتفتيش على الحدود البلغارية • وبلغهما وهما فى الميدان أن الحكومة فتشت داريهما فلم تعثر على شيء يستحق الذكر •

ان هذه الاضطهادات المنظمة التى أرتكبتها الحكومة الاتحادية مع الضباط العرب كانت العامل الرئيسى الذى دفع السيد طالب الى مهادنة الحكومة ، رغبة منه فى حماية الضباط المضطهدين ، كما سبق البحث عنه •

مجلس النواب العثمانى عام ١٩١٤

جرى افتتاح المجلس النيابى فى ١٤ مايس ١٩١٤ بحضور السلطان محمد رشاد • وتلى سعيد باشا خطاب العرش ، ثم جرى تحليف النواب اليمين القانونية • وبعد ذلك وزع النواب فى أربع شعب ، فكان من نصيبى الانتماء الى الشعبة الاولى التى تضم من بين نوابها الشريف فيصل بك نائب

جدة (جلالة الملك فيصل الاول) • وكانت العـادة الجارية أن يجتمع نواب الشعب المختلفة قبيل الجلسات للمداولة فى الشؤون البرلمانية ، فحاز فيصل أعجابى بوقاره ورزانته وقوة شـخصيته •

وفى الجلسة الثانية والجلسات التى تلتهـا صادق المجلس على مضابط انتخابات النواب المحالة اليه من قبل لجنة التدقيق ، ولكن مضبطة أنتخـاب نواب البصرة لم تكن بينها • فأدركنا أن فى الامر سـرا • لذلك أمتنعنا عن الاشتراك فى الجلسات وأكتفينا بالجلوس فى شعبنا المختلفة ، وأبرقنا الى السيد طالب – بوصفه رئيس الجمعية الاصلاحية – نخبره بالامر • فجاءنا الرد التالى برقيـــا :

« أتركوا استانبول توجهوا الى مصر أنتظروا التعليمات هناك »

ولما كانت مراسلاتنا – نحن نواب البصرة – مراقبة ، فكان من الطبيعى أن يطلع طلعت بك وزير الداخلية على نص البرقيـة • وفى صباح يوم ١ حزيران ، بينما كان المجلس منعقدا وكنا نحن المضربين جالسين فى الشعبة نتداول فى أمر الذهاب الى مصر حالا أو التريث بضعة أيام ، واذا بطلعت بك يدخل الشعبة • وبعد أن حيانا تحية وديّة أبدى أستغرابه من عدم أشتراكنا فى الجلسة ، كأنه لا يعلم عن الامر شيئـا ، فلما أخبرناه بالسـبب تظـاهر بالتعجب ، ووعـدنا بأن يقـدم المضابط الى المجلس حالا ، ثم خـرج • ومرت دقائق عاد على أثرها ودعانا للدخول ، فلم نكد ندخل حتى كان رئيس المجلس يعلن المصادقة على مضابط نواب البصرة الخمسة • ومنذ ذلك اليـوم واظبنا على الحضور فى جلسات المجلس •

وراء الســـتار

برع الاتحاديون فى تدبير المؤامرات البرلمانية والمخاتلات السياسـية لتنفيذ مآربهم ، فاذا فشلت تلك المؤامرات لجأوا الى التهديد والعنف ، لالقاء الرعب فى نفوس المعارضين ، وكان من أساليبهم أيضا اثارة الضجيج فى الجلسات عندما يحرج أحد الخطباء موقف الحكومة • فباشارة بسيطة من أحد

الوزراء الاتحاديين يبدأ أنصار الحكومة فى القرقعة على الطاولات واحداث الضجيج والصراخ حتى ييأس الخطيب من اسماع صوته فيترك المنبر • وكانوا اذا عرض الرئيس قانونا ترغب الحكومة فى تصديقه ، أو طرح سؤالا للاكتفاء بالمذاكرة حول موضوع تخشاه الحكومة ، صرخ أنصارها بملء حناجرهم « قبول •• قبول » لكي لا يبقى للمعارضين مجال لطلب الكلام حوله • وكان منظر هؤلاء ، وفيهم بعض المعممين وذوى اللحى الطويلة وبعض الشيوخ والباشوات ، وهم يأتون من الاعمال ما يخجل من أتيانه الصبيان ، أقول كان منظرهم أحيانا يثير الضحك والاشفاق •

أما اذا لمس الاتحاديون من أحد النواب عنادا فى الرأى وأصرارا على المعارضة ، أرسلوا من يحمل اليه التهديد فى ثوب النصيحة • وقد حدث عندما ورد الى المجلس قانون يقضى بتخصيص راتب شهرى مدى الحياة قدره خمسون ليرة لعاطف بك لقاء خدماته الوطنية ، تلك الخدمات التى لم تكن فى الحقيقة سوى تطوعه لقتل شمسى باشا أبان الثورة الاتحادية فى سلانيك ، صارحت بعض النواب بعزمي على توجيه استيضاح الى الحكومة عن خدمات الرجل بقصد احراجها • رفعت الجلسة لكي يتناول النواب الغداء ، فأخذت مكاني على احدى الموائد فى مطعم البرلمان ، واذا بشكيب أرسلان نائب حوران الاتحادى يقبل علىّ ويشاركنى المائدة • فلما استقر به المقام همس لى بأنه سمع عن عزمى على طرح الاستيضاح وما سيؤول اليه ذلك من احراج لموقف الحكومة ، لأن عاطف بك قاتل بنظر الجميع ، وتخصيص راتب له معناه تشجيع الحكومة للقتلة ، ولذلك فانه – أى شكيب – ينصحنى بصرف النظر عن الاستيضاح المذكور • ولما كنت أعلم أنه مرسل من قبل الوزراء الاتحاديين أبديت له اصرارى على الاستيضاح ، وشكرت له نصحه • فترك المائدة وخرج من المطعم •

أنتهى النواب من تناول طعامهم فأعلن عن استئناف الجلسة • وبينما كنت سائرا الى مكانى سمعت الرئيس ، وكان هو وعدد من النواب الاتحاديين

قد أخذوا أمكنتهم قبل المناداة باستئناف الجلسة ، سمعته يقول : « القانون رقم كذا » ؟ فصرخ النواب الجالسون :ـ قبول • ثم انتقل الى قانون آخر • ولما طلبت الكلام حول راتب عاطف بك ، أجاب رئيس المجلس بان القانون المذكور تم قبوله وانه لا يرى مبررا لبحثه ثانية • حينئذ علمت ان القانون الذي لم يذكر الرئيس اسمه ، بل ذكر رقمه ، كان هو ذلك القانون الذى أزمعت على معارضته ؟ وان جلوس الرئيس وبعض الاتحاديين فى القاعة مبكرا كان حسب خطة مرسومة •

وفى حادثة مماثلة أرسل الي الاتحاديون صديقي توفيق المجالي ينصحني بالتخفيف من معارضتي • فأجبته صراحة بأن يذهب الى مرسليه ، ويخبرهم بأني حين تركت البصرة دونت وصيتي بأمل أن لا أعود اليها سالما ، وأني أعارض الحكومة لا لمجرد المعارضة بل خدمة للصالح العام ، وسوف يرون كيف أني أؤيد القوانين النافعة •

ان هاتين الحادثتين تمثلان السياسة التى أتبعها الاتحاديون فى كم أفواه العرب • وقد جاء فى كتاب « ثورة العرب » الصادر فى مصر سنة ١٩١٦ م ما يؤيد ذلك ؟ فيقول المؤلف مثلا :ـ

« لم تكتف الحكومة الاتحادية بانتخاب كثير من الاتراك عن البلاد العربية ، بل كمت أفواه العرب ، ولا سيما الأصلاحيين منهم ، ووضعتهم تحت المراقبة الشديدة ثم رغبت فى عدم قبول نوابهم ، وخصوصا نواب البصرة ، فى مجلس النواب ، وكادت تنجح فى ذلك لولا خوفها من زعماء العرب وأحزابهم ، لا سيما السيد طالب النقيب الذى كان قد أستقل تقريبا فى القسم الجنوبى من العراق »

وجاء فى مكان آخر من الكتاب نفسه :ـ

« وبديهي ان ما صرح به نواب العرب الكرام عن بلادهم كان دون الحقيقة بمراحل ، لأن حريتهم كانت محدودة ولانهم كانوا دائما مهددين بالمشنقة أو الاغتيال ان هم أعربوا عن آرائهم بصراحة ووضوح »

على المنبر

كانت تلك الدورة من الدورات غير الاعتيادية للمجلس النيابى ، وأمدها خمسة وثمانون يوما • وقد قدمت فيها الحكومة الى المجلس عددا كبيرا من اللوائح والقوانين والانظمة ، مر بعضها بسلام وقوبل البعض الآخر بمعارضة شديدة • وقد رأيت من المناسب أن أنقل جميع أقوال نواب العراق فى تلك الدورة ، مستخلصة من محاضر الجلسات الرسمية :ـ

المؤلف ـ نائب البصرة

(١) اعتراض حول قانون أستملاك الاملاك •

(٢) ملاحظة حول منهاج المدرسة الملكية • وهى المدرسة التى يعين خريجوها قائممقامين أو معاونى ولاة •

(٣) كلمة لتأييد جعل المدرسة المذكورة داخلية لكى يتسنى لابناء البلدان القصية الانتماء اليها ، بعد أن كانت وقفا على أهالى أستانبول والمدن المجاورة •

(٤) اعتراض على قانون الاوقاف فيما يخّص ببيع الاموال المنقولة وغير المنقولة ووجوب اناطته بدوائر الاجراء •

(٥) خطاب حول الخط الحديدى بين دمشق والمدينة المنورة وضرورة اصلاحه ووضع حد لتلاعب الموظفين فى المحطات •

(٦) فى فصل الميزانية : انتقاد الحكومة على تبذيرها واسرافها فى الوقت الذى يذهب وزير ماليتها للاقتراض من الدول الاوربية •

(٧) خطاب فى معارضة لائحة ذيل قانون الجزاء حول محاكمة الصحفيين وخنق حرية الصحافة جاء فيه :ـ

« أود أن أسأل الحكومة ومقرر اللجنة الحقوقية لماذا لا تشدد الحكومة هذا التشديد على المجرمين والقتلة بدل الكتاب القديرين والمتنورين وأرباب الاقلام الحرة • ان هذا القانون الذى يضيق الخناق على حرية النشر والصحافة ليتعارض مع الدستور تعارضا واضحا • واذا كان غرض الحكومة من تشريعه

اتقاء القدح والانتقاد على صفحات الجرائد والمجلات فمعنى ذلك أنها ترمى الى اخماد الاذهان وتكسير الاقلام ومحو الحريات ، ثم تتشدق بعد ذلك بحمايتها للدستور وتمسكها بروحه » .

(٨) رد على بلرصاميان نائب سيواس لمهاجمته حرية الصحافة .

(٩) خطاب فى بحث وزارة العدلية جاء فيه :ـ

« ان اسم وزارة العدلية يدل على أنها الوزارة التى ينبع منها العدل ثم يجرى فى محاكم الدولة ودوائرها ، وأنها الوزارة التى لا تعرف غير الاستقامة ديدنا والانصاف سبيلا . والحقيقة أيها السادة ان وزارة العدلية اليوم لا تخالف القوانين المشروعة فحسب ، بل القانون الاساسى نفسه ، لا سيما فى البلاد العربية »

ثم تناولت بالنقد الطريقة الشاذة التى سارت عليها الوزارة فى عزل الحكام ونقلهم ، وبالخاصة العرب منهم ، وضربت مثلا على ذلك عزل رئيس محكمة استئناف البصرة على أثر مقتل فريد بك بدون توجيه أى تهمة اليه . وتطرقت بعد ذلك الى ضرورة استعمال اللغة العربية فى المحاكمات ، فقلت بهذا الخصوص :ـ

« تصوروا أيها السادة محاكمة تجري فى احدى محاكم العراق . فالحاكم يجهل العربية ، والمتهم يجهل التركية ، ويقوم الكاتب أو المباشر بمهمة الترجمة ، فأى ظلم هذا الذى يجرى باسم القانون حين يخطىء المترجم . لقد قال لى يوما أحد الحكام الاتراك :ـ أن ضميرى معذب لانى لا أفهم ما يقوله المتهم نصا كما انه لا يفهم أسئلتي » .

ثم أشرت الى قضية خريجى مدرسة الحقوق العراقية الذين جاءوا استانبول لدخول الدورة التطبيقية فيها بناء على دعوة الحكومة ، وما أصابهم من الخيبة والضرر بعد ذلك .

ولما فرغت من القاء هذا الخطاب نهض توفيق الخالدى وأعتلى المنبر ،

فبحث أولا فى سيرة حياة فريد بك وبديع نورى ، واثنى على شجاعتهما ومقدرتهما ، وكيف أنهما لقيا حتفهما برصاص الخونة ، وأتهم رئيس محكمة الاستئناف – الذى دافعت عنه فى خطابى السابق – بأنه تعمّد توجيه التهمة الى ضابطين عثمانيين لاخفاء معالم المؤامرة • وقال ان الواجب كان يقضى على وزير العدلية بدعوته الى استانبول ومحاكمته لينال عقابه • ثم أردف قائلا : « ومما يؤسف له أن مقتل فريد وبديع نورى جاء تمهيدا لاحتلال ابن السعود الاحساء ، تلك البلاد التى خرجت من يد الدولة العثمانية » ••• كذا •

ولما وصل الى هذه المرحلة من خطابه طلبت الكلام ، فأوما طلعت بك الى رئيس المجلس برفع الجلسة فرفعت • وبينما نحن خارجون من القاعة لحق بي أحد الكتاب وأخبرني بأن وزير الداخلية ورفاقه يرغبون فى مقابلتى فى غرفة الوزراء • فذهبت اليهم وكان الحاضرون : طلعت بك ، ابراهيم بك وزير العدلية ، جاويد بك وزير المالية ، وصلاح الدين جيمجوز أحد الاقطاب الاتحاديين • أستقبلنى الجميع ببشاشة غير معهودة ، فلما جلست سألنى طلعت عما نويت أن أقوله عندما طلبت أذنا للكلام • فأجبت بأن توفيق الخالدى أتهم أهل البصرة بقتل فريد وبديع ، كما أتهمهم بأن عملهم المزعوم ذاك كان سببا لخروج الاحساء من البلاد العثمانية • وبصفتى نائبا عن البصرة ، يتحتم على أن أدفع هذه التهم الكاذبة ، كما أنى سأبرهن للمجلس العالى بأن سوء ادارة الحكومة هى التى سببت ضياع الاحساء ، وأقدم الأدلة الثابتة على ان احتلال الاحساء قد جرى قبل مقتل فريد بك •• الذى لم يقتله البصريون ••

فقال طلعت : أتعلم أن أكثرية النواب لا يعرفون ما هى الاحساء وأين تقع ، لذلك فأني لا أحب أن تفتح علينا هذا الباب •

فقلت : ولكن هل ترضى بأن يتهم البصريون فيسكت نوابهم ، والسكوت معناه الاعتراف بصحة التهم •

فقال : وهل تعتقد أن نواب البصرة الآخرين يوافقونك فيما ذهبت اليه ؟

قلت : نعـــم •

قال : فأذا دعوتهم ووجدتهم لا يؤيدونك ، فهل تقتنع بالعــدول عن الـــكلام ؟

فأجبت : لا أظن ذلك •

قال : فلندعهـــم •

وأرسل فى طلبهم ، فجاؤوا وأجابوه بأنهم متفقون معى فى الدفاع عن البصرة • فألتفت الىّ وخاطبنى قائلا :ـ

ـ هل تقبل ترضية لكي تلزم الصمت حول هذا الموضوع •

قلت : اذا كانت الترضية شخصية فلست بقابلها ، وان كان فيها نفع لبلادى فأنى أقبلهــا •

قال طلعت : أعرض شــروطك •

فتذاكرت مع زملائى الاربعة وأتفقنا على الشروط التالية :ـ

أولا ـ أن يأمر وزير العدلية بجعل اللغة العربية لغة رسمية فى محاكم العــراق •

ثانيا ـ أن ينقل فورا كل حاكم فى تلك المحاكم لا يحسن العربية •

ثالثا ـ على وزير العدلية عند أجابتــه على أقوال النواب أن لا يكذب الحقائق التى أوردتها فى خطابى السابق عن وزارته •

وهنــا تدخل وزيــر العــدلية قائــلا :ـ

أن الشرطين الاول والثانى يمكن قبولهما ، ولكنى لا آخالك ترضى بأن أصدق على أقوالك التى كلت لى فيها تهما بالغة • فهل يرضيك أن أمر على أقوالك دون أن أشير اليها لا مصدقا ولا مكذبا ؟

فأجبت بالقبــول • وقد برّ كل منــا بوعــده : فلزمت الصمت بقيــة

الجلسة ، وأصبحت اللغة العربية منذ ذلك الحين اللغة الرسمية فى المحاكم ، ونقل الحكام والقضاة الاتراك وأستعيض عنهم بحكام عـرب ، وبقيت الحال كذلك حتى الاحتـلال البريطـانى •

(١٠) طلب تأسيس محكمة تجـارة فى البصرة •

(١١) خطاب مطول حول المعارف ، استعرضت فيه الحالة السيئة التي وصلت اليها حالة التعليم فى العراق ، كما طالبت بفتح مدرسة سـلطانية فى البصرة • وقد وعد وزير المعارف فى تلك الجلسة بفتح المدرسة المذكورة ، وبالفعل تم تأسيس المدرسة المذكورة فى أيلول سنة ١٩١٤ م التى دامت حتى عهـد الاحتـلال •

(١٢) معارضة قانون التجنيد :ـ سنت الحكومة قانونا جـديدا يقضى بتجنيد المعيل والطلاب ، ونشرت الصحف لائحته قبل تقديمه الى المجلس ، فقوبل بأمتعاض شديد فى كافة الاوساط • وبعد أيام وردتني عريضة مرسلة من قبل حسيب العبيـدى وموقعة من قبـل العلماء والشيـوخ فى الموصل يستعطفون الحكومة لتعيد النظر فى مادة تجنيد المعيـل والطـلاب •

قدمت العريضة الى وزير الحربية وأحتفظت بصورة منها كي أطلع عليها النواب ، فأقتنع سبعون منهم بمعارضة القانون • فنظمت تقريرا خاصا برفض القانون وقع عليه هذا العدد من النواب • وجاءنى أحـد نواب اليمن وطلبها منى ليوقع زملاؤه عليها أيضا ، فلقيه طلعت بك وأخذها منه ، قائلا بأنه لم تعد هناك حاجة لهذا التقرير ما دامت الحكومة نفسها قد صرفت النظر عن القانون المذكور • فلما بلغنى ذلك كتبت تقريرا آخرا ، وبدأت بجمع التواقيع مرة ثانية ، حتى بلغت الاربعين • فلما علمت الحكومة بأمر هذا التكتل أخـذت تماطل فى تقديم القانون المذكور وتؤجله من يوم الى يوم ، وكان قصدها من ذلك أن تعتبره من القوانين المؤقتـة التى تصبح نافذة المفعول عنـد أقتضاء الظروف ، ومن غير حاجة الى مصادقة المجلس •

وهكذا كان : فالقانون لم يقدم الى المجلس ، ولكنه أصبح نافذا عندما أعلنت الحرب العالمية الاولى • ولا زلت أحتفظ بالتقرير وتواقيع النواب عليه حتى الآن •

جميل صدقى الزهاوى ـ نائب بغداد

(١) كلمة حول قانون الاستملاك •

(٢) خطاب جرىء فى الضرائب جاء فيه :ـ

« لماذا تجبى الضرائب من الفقراء عن دورهم ، ولا تؤخذ عن قصور ومصيفات أسرة آل عثمان وسائر أملاكهم ، مع أنهم يتقاضون رواتب ضخمة من خزينة الدولة » • ولما قوبلت هذه الكلمة بالضجيج أردف قائلا :ـ « اني أحترم آل عثمان أكثر منكم ولكني أطلب المساواة التامة »

(٣) كلمة حول نظام الحراسة الليلية •

(٤) عند بحث قانون المطبوعات قال منتصرا لحرية الصحافة :

« لقد أثبت تاريخ الامم أنه كلما أشتد تضييق الخناق على أصحاب الاقلام والافكار كلما كان الانفجار عظيما وسريعا • وها نحن اليوم نشرع قانونا يرمى الى محاكمة الكتاب والمفكرين قبل محاكمة المجرمين واللصوص »

(٥) كلمة حول المدرسة الملكية •

(٦) كلمة فى بحث قانون الزراعة •

(٧) مطالبة الحكومة بجعل الاحكام العرفية قابلة للتميز فى محكمة تمييز عسكرية أو مدنية •

(٨) المطالبة بجعل اللغة العربية لغة المحاكم الرسمية • وعندما وصل الى قوله :ـ « ان أهل العراق لا يعرفون التركية » ؛ نهض فؤاد الجيبه‌جي

نائب الديوانية معترضا فقال :ـ « يا جميل أفندى البغداديون لا يتكلمون كلهم العربية » ، ثم جلس كمن أدى واجبا عظيما !..

(٩) طالب بتأسيس مدرسة للطب فى بغداد أسوة بدمشق .

(١٠) طالب بجعل التدريس فى مدارس العراق باللغة العربية .

(١١) خطاب أنتقادى قال فيه :ـ

جاء فى الآية الكريمة : « ان الارض يرثها عبادى الصالحون » ، فلا يظنن أحد بأن القصد من الصالحين هم العبّاد والنساك ، وأنما القصد الصالحون لاعمارها . وهنا ضج النواب المعممون وصاحوا : انزل يا زنديق انزل ياكافر !. فلما أستمر فى خطابه هاجموه وهموا بضربه ، فتدخل نواب العراق لتهدئة الوضع ، وانزلوا الخطيب من المنبر .

(١٢) كان بعض القادة البحريين قد أوقفوا أوقافا تعطى غلتها الى الأئمة الذين يقرأون البخارى الشريف فى البواخر الحربية . فلما جاء بحث هذه الاوقاف نهض جميل صدقى الزهاوى وقال :

« اننا نعرف أن البواخر تسير بالبخار لا بالبخاري ، فلماذا لا تنفق تلك الواردات على نشر التعليم ليتقن الناس أستعمال البخار ما دام هو الذى يسير البواخر ، بدل أن ننفقها على قراءة البخارى الذى ليس له فى تسييرها منفعة أو أثر » .

فضج المجلس ، وكال له المتدينون الفاظ الكفر والالحاد ، وهجم بعضهم عليه يريدون ضربه ، فتدخل النواب العراقيون ثانية لانقاذه .

شوكت باشا ـ نائب بغداد

(١) بحث مختصر فى قانون الاعشار .

(٢) خطاب حول ادخال الأساليب الزراعية الحديثة فى البلاد .

(٣) خطاب حول مشاريع الري في العراق .

(٤) كلمة في بحث الاوقاف .

توفيق الخالدي ـ بغداد

(١) خطاب حول اصلاح الجندرمة والمطالبة بتشكيل قوات الهجانة .

(٢) خطاب كله مديح لوزارة سعيد حليم القائمة يومذاك وذم للوزارات السابقة . جاء فيه : ان الامة الآن برفاه وسعادة بفضل عناية الحكومة الحاضرة .

(٣) المطالبة بحفر نهر الخالص المندرس .

(٤) خطاب في رثاء فريد بك وبديع نوري مر ذكره آنفا .

(٥) كلمة حول المدرسة الملكية .

(٦) كلمة في بحث تشكيل محاكم الاستئناف .

فؤاد الجيبه‌جي ـ نائب الديوانية

(١) نبذة في موضوع الرسوم .

(٢) الكلمة التي اعترض بها على خطاب جميل صدقي الزهاوي وهي ان البغداديين لا يتكلمون العربية !..

ناظم نفطجي ـ نائب كركوك

(١) اعتراض على قانون الاستملاك .

(٢) طلب محاكمة المسؤولين عن فشل مشروع نهر الرشادية المتفرع من الزاب الكبير والذي كلف الخزينة مبلغا طائلا .

فوزي بك ـ نائب كربلاء

(١) بعض ايضاحات حول ميزانية وزارة الحربية .

خالد سليمان ـ نائب الديوانية

(١) خطاب القى فيه اللوم عى الحكومة ودائرة البوليس لاهمالهما حراسة اخيه الشهيد محمود شوكت باشا .

مراد سليمان ـ نائب بغداد

(١) خطاب مماثل لخطاب أخيه خالد سليمان حول مصرع أخيهما محمود شوكت .

العودة الى البصرة

قاربت الدورة البرلمانية نهايتها . فأقام السلطان فى **٢٣** تموز سنة **١٩١٤** حفلة شاى فى قصر يلدز للأعيان والنواب . ويلدز هى مجموعة القصور التى أنشأها السلطان عبدالحميد ، فجاءت آية فى الروعة والضخامة . وبانتهاء الحفلة تقدمنا لمصافحة السلطان محمد رشاد وتوديعه .

وقد حدد اليوم السابع من آب موعدا لختام الدورة ، فقررنا نحن نواب البصرة مغادرة استانبول قبل ذلك التاريخ ، خوفا من الاتحاديين الذين قد تسول لهم أنفسهم أضطهادنا بعد أن ترفع عنا الحصانة النيابية فى عطلة المجلس . وهكذا ركبت الباخرة (توفيقية) مع الحاج عيسى الامام وعبدالرزاق النعمة فى ١ آب متوجهين شطر بيروت ، اما عبدالله صائب فقد غادر استانبول ، قبل ذلك بيومين ، مستصحبا معه توفيقا ونجم الدين ولدى السيد طالب ، اللذين كانا فى ذلك الحين يتلقيان العلوم فى استانبول .

وكان من جملة رفاقنا فى الباخرة محمد فوزى باشا العظم نائب دمشق ، ومحمد بيهم بيك عضو مجلس الاعيان ذاهبين الى بلديهما . وصلنا بيروت فنزل فيها العظم وبيهم ، وأخذنا نحن الباخرة « برنس عباس » الى بور سعيد ومن ثم الى البصرة بحرا . الا أنه عند وصولنا بور سعيد أعلنت الحرب ، ولم يعد الحصول على مكان فى البواخر متيسرا ، لذلك عدنا أدراجنا الى بيروت على ظهر الباخرة « واشنطن » بقصد السفر الى العراق برا .

وعندما علم أصدقاؤنا بعودتنا احتفوا بمقدمنا ، وأولوا لنا الولائم ، وأقاموا

لنا الحفلات التكريمية ، وكان أبرزها وليمة بيهم بك فى قصره البديع • ومن بيروت استقلينا القطار الذاهب الى حلب ، فوصلناها واستقبلتنا الشبيبة الحلبية بحفاوة بالغة ، اذ كانت أخبار مواقف نواب البصرة الجريئة فى البرلمان قد ذاعت فى البلدان العربية كافة •

وفى حلب فاجأني شكري العسلي بزيارة غير منتظرة ، وقال حين رأى تعجبي من وجوده فى حلب :ـ لا تعجب ، فأنا أعمل الآن مفتشا اداريا فى دمشق ، وقد نذرت أن أقبلك يوما من فمك ، وها قد حان اليوم الذى أفى به نذري ، فما علمت أنك فى حلب حتى سعيت اليك فيها •

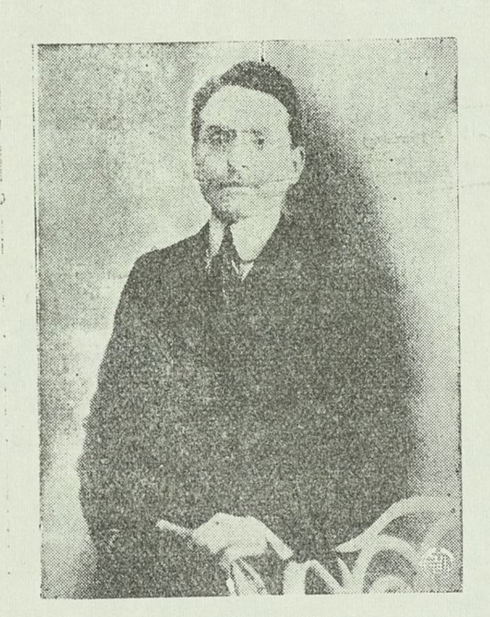
فشكرته على عواطفه النبيلة وشعوره الصادق • وتغدينا سوية ثم عاد الى دمشق •

زرنا والي حلب وطلبنا اليه أن يؤمن لنا حراسة كافية فى طريقنا المحفوف بالمخاطر • وعند خروجنا من لدن الوالى ، التقينا صدفة بجعفر العسكرى الذى كان مديرا للجندرمة فى حلب يومذاك • فرافقنى الى الفندق ، وجلسنا ساعات نتحدث فى الشؤون السياسية ، فألفيته متحمسا للقضية العربية •

وفى ١٥ آب غادرنا حلب فى ثلاث عربات : الاولى والثانية لركوبنا ، والثالثة لامتعتنا ، يرافقنا أثنان من خيالة الجندرمة • وكان فى توديعنا جعفر العسكرى وبعض الشبان الحلبيين • وسارت العربات فى تؤدة ، فبلغنا مسكنة ، ثم تركناها وأنحدرنا فى الطريق الوعرة المحاذية لنهر الفرات • وما أن مضت ساعات حتى رأينا قافلة مقبلة • فلما التقينا بها ، توقفنا للتعرف على أصحابها ، فاذا بها تتألف من ثابت السويدى وثلاثة من خيالة الجندرمة • فنزلنا وتعانقنا ، وأشرنا على الرجال بالاستراحة ساعة • وفى تلك الساعة روى لنا ثابت القصة التاليد ، قال :ـ كنت أشغل قائممقامية قضاء البشيرية فى ولاية ديار بكر ، وجاءت أوامر الحكومة الى الوالى رشيد بك الجركسى بذبح الارمن القاطنين فى تلك الولاية ، فأرسل هذا عصابة من الجراكسة تولوا ذبح الارمن

والمسيحيين على أختلاف مللهم ، بصورة وحشية لا يمكن وصفها • حتى لم ينج من أيديهم طفل ولا شيخ ولا أمرأة • وكان من الطبيعى أن أعترض على قتل المسيحيين العرب ، الذين يشهد الجميع بأنهم لم يعصوا أمر الحكومة ولم يكن لهم أدنى علاقة بالارمن • وكتبت الى الوالى أصف له المذابح البربرية التى أرتكبها رجاله • فغضب مني وشكاني الى استانبول ، وأتهمني بحماية الارمن ، فأمرت الحكومة بنقلى الى قضاء « روم قلعة » من أعمال حلب ، وها أنا ذاهب الى القضاء المذكور •

انتهت فترة الاستراحة ، فودعنا بعضنا واستأنفت القافلتان سيرهما فى اتجاه معاكس • ومررنا بعد ذلك بدير الزور ، والبوكمال ، وعنه ، ثم وصلنا بغداد فى ٣١ آب • فنوافد الاصدقاء لزيارتنا ، واحتفى بنا الشعراء والادباء ورجال الصحافة • وقد افتقدت من بين زائرى يوسف السويدى ، الذي كنت أعلم مقدار حبه لي • فعجبت للامر ، وذهبت اليه فى داره ، فلما دخلت وجدته



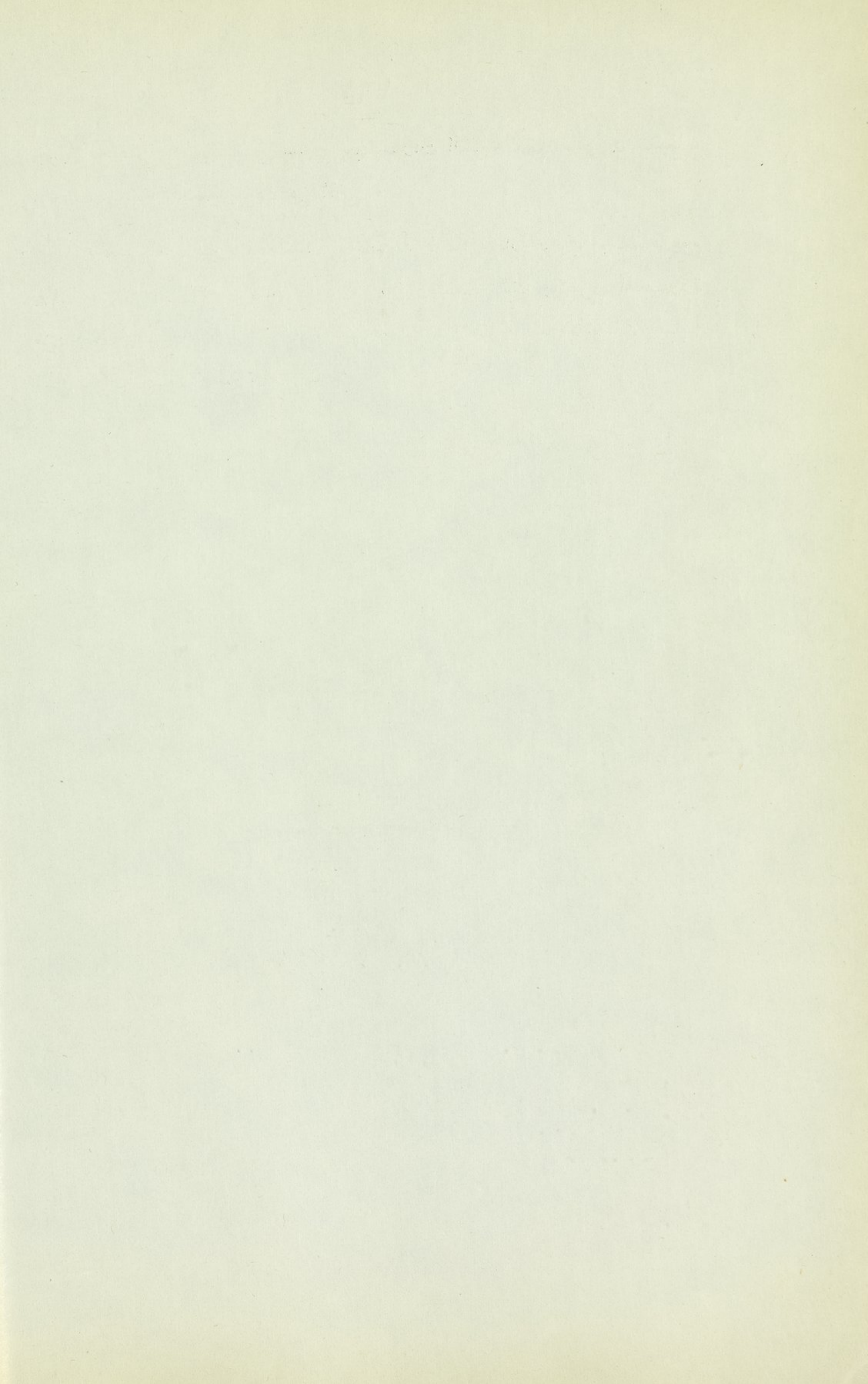
ثابت السويدى

كئيبا حزينا ، وكانت نبرات صوته تدل على تأثر شديد ، فعلمت ان فى الامر سرا ، فلم أشأ أن أسأله ، بل طفقت أحدثه عن استانبول وعن الطريق التى سلكتها ، فلما جئت على ذكر مقابلتى لابنه بكى بكاءً مرا ، وقال بصوت متهدج : لقد قتل ثابت •• أغتالته الحكومة الظالمة قبل أن يصل الى مقر وظيفته • فوقع علىّ النبأ وقع الصاعقة ، ولم أتمالك نفسى من البكاء • نعم بكيت على ثابت الذى أحببته منذ اللحظة التى عرفته فيها ، فقد كان شهما

جريئا مخلصا • ولم يسعفنى لسانى بغير عبارات التعزية ، ثم أنصرفت مبتئسا ، ونحيب الشيخ المكلوم يتردد فى أذنى •

وبعد أقامة قصيرة فى بغداد توجهنا الى البصرة بالباخرة ، فوصلناها يوم ١٨ ايلول • وكان يوما مشهودا ، اذ كان رصيف الميناء والطرق المجاورة مزدحما بالمستقبلين • وكان سرورهم عظيماً بسلامتنا ، بعد الاشاعات المتباينة التى دارت حول مصيرنا •





بيني وبين نوري السعيد

بيني وبين نوري السعيد

هذا فصل معترض فى الكتاب كالجملة المعترضة فى حديث المرء . وهو قصة وقعت حوادثها فى فترات متباعدة ، قصة متسلسلة ذات حلقات محكمة الاتصال ببعضها .

واني أستميح القارىء الكريم عذرا اذا ما أنتقلت به فجأة من سني الحرب العالمية الاولى الى عام ١٩٣١ لأتم عليه سرد الحلقات الأخيرة من القصة . ولا يحسبن أحد أن من وراء هذا الفصل قصداً غير رواية حوادث شيقة ، وتسجيل تاريخ حري بأن لا يهمل . ولا يظنن أمرؤ اني أعتب أو ألوم ، وما اللوم والعتب الا تفريج هم ، وقصتي هذه ليست من الهموم .. فقد مرت على حوادثها السنون ، وطمست معالمها الأيام ، واني اليوم أستعرض صورها كمن اعتلى جبلا وراح يحدق فى الوادى السحيق الذى تركه وراءه ، فلا يرى فيه غير هوة مظلمة يكتنفها الضباب ، تساوت أجزاؤها فى ناظريه .. أما الأشجار ، وأما الصخور ، وأما الأكواخ فلم تعد تبدو للعيان ، ولو ان رسومها ما زالت عالقة بالذاكرة .

كذلك أنا اليوم ، وقد بلغت الشيخوخة ، سيان عندى مر الايام وحلوها ما دامت قد أنقضت وأدبرت . ولكن الذى يثلج صدري كلما عدت بذاكرتي الى الوراء ، انني لم أرتكب اثما ولم أصب أحدا بسوء عن قصد . أما اذا كان أحد غيرى قد أرتكب الأثم وأصاب الناس بسوء ، فان هذا لا يؤلمنى البتة ، حتى ولو كنت أنا الضحية ..

زمالة فى الدراسة والسياسة

لعل القاريء الكريم يذكر ان اسم نوري السعيد قد ورد فى الفصل الاول من هذا الكتاب فى عداد طلاب المدرسة الرشدية العسكرية فى بغداد ، تلك المدرسة التى قضيت فيها عدة سنين . ولا عجب فى أن تسفر هذه الزمالة عن نسيج من الصداقة والألفة ، الفة يعرف مداها كل الذين جلسوا على رحلة واحدة ، وأكلوا من مائدة واحدة ، وأقاموا فى غرفة واحدة أعواما طويلة .

ثم لعله يذكر أيضا كيف انى أخرجت من المدرسة الرشدية فأتخذت لى فى الحياة سبيلا آخر ، واذا بطالب الحربية يغدو محاميا ، ومن بعد نائبا فى مجلس المبعوثان باستانبول •

هناك التقيت بنورى السعيد زميل الصبا ، وكان هو فى السنة الأخيرة من دراسته العسكرية التي تؤهله لكي يكون ضابط ركن فى الجيش العثماني • أقول التقيت به فى استانبول ، فكان لقاء حارا وكان عناقا • وتوثقت من بعد ذلك بيننا أواصر الصحبة ، فكان هو كثير التردد على دارى دائم الاتصال بي • أما أنا فلشد ما أعجبت باخلاصه وحبه لي ، وبنشاطه فى مضمار الدعوة للقضية العربية ، واقدامه على المخاطر واستهانته بالصعاب • لقد كان ـ والحق يقال ـ من أشجع المشتغلين فى تلك القضية فى استانبول ، بالرغم من كونه طالبا فى الحربية ذات القيود الثقيلة والشروط القاسية ، وبالرغم من الخطر الذى يتهدده فى أية لحظة فيما لو اكتشف أمره • وقد ألمحت الى جانب من نشاطه فى موضوع سجن عزيز على المصرى باشا ، وفى الحقيقة ان اتصال نورى وعبدالله الدملوجى بعزيز على المصرى بعد خروجه من السجن وقبيل سفره الى مصر قد أثار حولهما الشبهات ، ونبه الحكومة الى خطرهما ، فأحاطتهما بالجواسيس يتعقبون أثريهما ويتشممون رائحة التمرد فيهما • حتى ضاقت عليهما شبكة التجسس ، فأحسا بالخطر الكامن وراء هذه المطاردة الصامته ، وعولا على الهروب • ولكن كيف السبيل الى ذلك ؟ ومن ذا الذى يدبر لهما أمره فى عاصمة الدولة التى تعج بالجواسيس والأرصاد ؟ والى أين يلتجئان بحيث لا تصل اليهما يد الحكومة ؟ ثم هب انهما وصلا الى الملجأ الأمين فماذا عساهما يفعلان هناك ؟

وفى حالة من القلق الشديد ، وبذهنية مشوشة بمثل هذه الاسئلة المحرجة ، قدم نورى السعيد وعبدالله الدملوجى دارى ذات ليلة وأخبرانى بأن الحكومة الاتحادية قد عقدت العزم على أغتيالهما • وانه حين بلغهما ذلك حاولا تضليل الجواسيس والافلات من شبكة المراقبة للوصول الى دارى ،

وها هما فيها الآن ، أما الخطوات التالية فى سبيل النجاة فقد تركا تدبير أمرهما الى .



نوري السعيد باللباس العربي

كان علي أن أحيط أمر أختفائهما فى داري بكتمان شديد ، ولما كانت الدار مشتركة بيني وبين العائلة الأرمنية ، كما أسلفت ، لذا كان من الضروري أن أشتري سكوت أفراد تلك الأسرة بأي ثمن . قلت ان هذه العائلة تتألف من مدام آغاوني ، وأبنتها الشابة ، وأبنها الصيدلي ؛ وهم يقيمون فى الطابق الثالث من البناية . وتتعهد المدام داري بالعناية ، وتقوم باعداد الطعام لي ، فهي وثيقة الاتصال بي دائمة التردد على غرف البيت . وقد سبق ان لاحظت هذه السيدة تعدد الاجتماعات فى داري منذ ان سكنتها ،

وتردد أبناء العروبة عليها للمشاورة والمداولة ، كما أدركت اننا نحيط جلساتنا تلك بكتمان شديد ، فانها ، أي مدام آغاوني ، حين كانت تأتي بالقهوة للضيوف قطعوا حديثهم أو أبدلوه ، حتى اذا ما أدبرت استأنفوه . فلما ضاقت ذرعا بهذا الحذر من جانبنا صارحتني يوما بما يدور في خلدها قائلة :ـ

« اني أرمنية ، وقد ذبح الاتراك آلافا من الارمن الابرياء ، فأرجو أن لا تحسبني جاسوسة ، بل على العكس ، اني أفرح اذ أراكم تتآمرون على الحكومة القائمة وتعملون على مقاومة ظلمها ، وأقسم لك بشرفي بأني سوف لا أفشي لكم سرا . »

وقد وفت المرأة بعهدها حقا ، وكتمت أسرارنا حتى النهاية . ومن طريف ما يذكر اني التقيت بمدام آغاوني في استانبول عام ١٩٣٩ ـ أي بعد مرور ربع قرن على تلك الحوادث ـ وذكرتني هي بالايام الخوالي ، وقالت :ـ أريد أن أبوح لك بسر كتمته عنك في وقته ، خشية أن أثير أوهامك ومخاوفك ؛ ذلك انه بعد انتقالك للاقامة في داري أرسل طلعت بك وزير الداخلية بطلبي ، فذهبت لمقابلته في بيته ، فطلب مني مراقبتك ، ووعدني بمكافأة كبيرة ان أنا أخبرته بأنباء مهمة عنك . فأجبته بالطاعة ، ولكني علمت في سري أن نزيل داري رجل يناضل في سبيل الحق ... لذا كنت دائما في جانبك .

نعود الآن الى صلب الموضوع ، فأقول ان مدام آغاوني كان لا بد وان تعلم باقامة نوري وعبدالله لدي ، لذلك دعوتها في الحال وأفهمتها خطورة الوضع ، وطلبت منها ان لا تسمح لزائر أو ضيف بالدخول الى البيت في غيابي ، واذا ما سأل أحد عن نوري وعبدالله فلتجب بعدم وجودهما هناك .

قضينا تلك الليلة في قلق شديد ، فكانت قلوبنا تخفق بشدة لوقع أقدام المارة في الشارع ، وتثور أعصابنا كما سمعنا طرقا على أبواب الدور المجاورة ، وكانت عقارب الساعة تدور ببطء شديد كأن الاعياء قد أصابها ..

مرت الليلة بسلام ، فلما أصبح الصباح جاء بعض أصحاب نوري

وعبدالله بأمتعتهما الى داري سرا • وفى ذلك اليوم أتخذت فندق طوقا تليان مقرا لي ، كي أدفع الشبهة عن داري ، ومن هناك أرسلت أحد الزملاء للتحري عن أول باخرة تغادر استانبول ، فعاد وأخبرنى بوجود باخرة متجهة الى مصر بعد يومين ، فدفعت له ثمن تذكرتين فى الدرجة الاولى وطلبت منه أن يقتنيهما فى الحال •

وفى اليوم المعين للسفر حررت كتابا الى السيد طالب أشدت فيه بأعمالهما الجليلة فى سبيل القضية العربية ، ورجوته أن يؤويهما فى داره ، ويعنى بهما ، ويدفع عنهما كل شر تريده بهما الحكومة • وسلمت الكتاب الى نورى ، وزودتهما ببعض المال ، ودبرت أمر وصولهما الى الباخرة بحيلة بارعة • ذلك اننى اتفقت مع مدام آغاونى على أن تكتب أسمها على الحقائب وتتظاهر هي بالسفر ، ويصعد فى أثرها نورى وعبدالله متنكرين متظاهرين بتوديعها • وقبيل أن تقلع الباخرة من الميناء بدقائق تغادرها المدام وحدها ، فيرحل الهاربان آمنين •

وحانت ساعة السفر ، فركبت المدام ونورى وعبدالله عربة أسدلت ستائرها ، وتوجهوا صوب الميناء ، ولم نشأ أن نودعهما لئلا نثير فضول البوليس • لبثنا فى الدار ننتظر عودة المدام بقلوب واجمة • ومرت الدقائق كالساعات ، فاذا بالباب يطرق ، ثم تدخل المدام مستبشرة ، والقت بنفسها على الكرسى ، لفرط ما أصابها من أجهاد فى تلك اللحظات الحرجة ، وراحت تحدثنا عن براعتها فى التمثيل والتضليل •••

وبعد أيام على سفرهما جاءتني برقية من السيد طالب بالرمز المتفق عليه :
« هديتكم الربطتين وصلت كونوا مطمئنين »

البصرة عام ١٩١٤

عندما عدت الى البصرة فى ١٨ أيلول ١٩١٤ ، بعد انتهاء الدورة النيابية ، لقيت السعيد والدملوجى فى دار السيد طالب معززين مكرمين ، فعبرا عن شكرهما العميق لي وعن أمتنانهما العظيم للسيد طالب • وبعد أيام عين الدكتور

الدملوجي طبيبا لابن السعود فى الاحساء بمساعي عبداللطيف المنديل ، فسافر اليها ، وبقى نورى وحده فى البصرة • فكنت أجتمع به كل يوم تقريبا ، ولم يكن هو ليقل عنى اعجابا بالسيد طالب ومحبة له • حتى انه حدث ذات يوم أن قدم البصرة ضابطان يحملان رسالة من أنور باشا الى السيد طالب ، فأنزلهما فى داره وكان برفقتهما خادمان • وقد اكتشفنا ، نورى وأنا ، ان هذين الخادمين كانا فى الحقيقة مجرمين شهيرين حكم عليهما بالسجن المؤبد فى بغداد ، وانهما لأمر فى نفس الحكومة أخرجا من السجن وأرسلا فى رفقة الضابطين • فاعتقدنا بوجود مؤامرة على حياة السيد طالب ، واتخذنا للمحافظة على حياته تدابير محكمة ، وتولى نورى بنفسه مراقبة الخادمين • فكان اذا جن الليل التف بعبائة ممزقة وحمل فراشا مهلهلا الى غرفة الضيوف ، وتظاهر بالنوم والشخير وراح يرقبهما من ثقوب العباءة ، حتى تمكن من أكتشاف ما لديهما من أسلحة ، فأحطناهما بمراقبة شديدة ألجأتهما الى الفرار •

مرض نورى ، وكانت تداهمه الحمى ليلا ، فآلمنى ذلك ، وكنت أمرضه بنفسى وأسهر على راحته ، حتى انى كنت أبيت الى جانبه بعض الليالى حين تشتد عليه وطأة المرض • وعندما عزمت على السفر مع السيد طالب الى نجد ، كما سيأتى ذكره فى الفصل القادم ، رغبنا فى أن نصحب معنا نورى السعيد ، اذ كنا نخشى أن تنتهز الحكومة العثمانية فرصة غياب السيد طالب فتبطش به ، خاصة وان الجيوش العثمانية أخذت تتوافد على البصرة للدفاع عنها بعد أعلان الحرب • الا أن الدكتور رامى الذى كان يعالجه أصر على عدم ذهابه معنا ، وأخطرنا بان السفر سيقضى على حياته لا محالة • حينئذ نقله السيد طالب الى المستشفى الاميركى ، وتركه وديعة عند الدكتور بنت والقس وانيس ، وأهاب بهما أن يكتما سره ويبدلا أسمه ويعنيا بصحته ريثما يعود من نجد ، وتعهد بدفع مصاريفه كلها من نفقته الخاصة ، أى نفقة السيد طالب ، فوعداه خيرا • وعندما عدت من نجد كان الانجليز قد أحتلوا البصرة ، فلقيت نورى لا يزال فى المستشفى آمنا بعد أن نجاه الله من شر الاتراك • وبعد ذلك أجتمعت به مرات عديدة ، وكنت أصحبه أحيانا فى

عربتي الى المتنزهات القريبة لأسرى عنه . وذهبت اليه يوما كعادتي فلم أجده في غرفتـه ، فسألت عنه الأب وانيس ، فأخبرني ان الحـكومة الانجليزية أسرته باعتباره ضابطا عثمانيا ، ثم أرسلته الى الهند .

وبعد أسره بمدة ، وفي يوم لم أدونه بوقته من عام ١٩١٥ دعاني السر برسي كوكس الحاكم العام لمقابلته ، فذهبت . وكان أستقباله لينا لين الأفعى ، فسألني عن صديق حميم لي من الضباط أسمه نورس ، وعما أستطيع أن أدلي به عن مبادئه وميوله . فأجبته بأني لا أعرف شخصا بهذا الاسم . فقام الى المنضدة وقلب بعض الاوراق ، وقال : عفوا ، ان أسـم صديقك الضابط هو نوري سـعيد وليس نورس . وهنا دافعت دفاعا حارا عن نوري ، وأخبرته بنضاله ضد الاتراك ، وباخلاصه للقضية العربيـة ، وقصة فراره من استانبول ولجوئه الى البصرة ومطالبة الاتراك برأسه . فقال كوكس : أتطمئنني بأننـا اذا كلفنا نوري بمهمة تنفع العرب فهل يؤديها بأمانة ؟ .

فأجبته : ان نوري يؤديها بأمانة ، وبمقدرة أيضا ، وربما يضحي بحياته في سبيلها اذا أقتضت الحال ؟ فشكرني على هـذا التطمين وقال انه سـوف يعتمد على تزكيتي لنوري لأنه يثق بكلامي .

وعلى أثر هذه المقابلة نقلت الحكومة الانكليزية نوري من الهند الى مصر ، كي يتصل بالشريف حسين أمير مكة تمهيدا للثورة العربية الكبرى .

لقد جاء نوري السعيد على هذا الجزء من سيرة حيـاته في الأحاديث الصحفية التي نشرها عام ١٩٤٧ ، ولكن الذي يطالع تلك الاحاديث لا يفوز منها الا ببعض الحقيقة ، وليس بها كلها ، ولست والله أدري على من يقع اللوم ، عليه أم على ذاكرته ، ولا أدري كيف يبيح السياسي المحنك لنفسه اغفـال الحقائق التاريخية الثابتة من مذكراته ؟ .

يقول نوري السعيد : كنت شخصيا من الذين يعتنقون هذه الفـكرة ـ فكرة القومية العربية ـ فسفرت أنا والدكتور عبدالله الدملوجي فوصلنا

البصرة • وكان الوسيط لتحقيق هذه الفكرة المرحوم السيد طالب وجماعة آخرون من بينهم المحامي سليمان فيضي الذى كان يومئذ نائبا فى مجلس النواب العثمانى • وفى هذه الاثناء أصابنى المرض فبقيت فى البصرة حيث أندلعت نيران الحرب وأنضمت الدولة العثمانية الى جانب المانيا فذهب الدكتور الدملوجى الى ابن السعود ريثما أتماثل للشفاء والحق به • ولكننى لم أشف الا بعد مدة طويلة من دخول الانجليز البصرة فمكثت فى المستشفى ومن ثم أخذونى الى الهند حيث بقيت مدة من الزمن نقلت بعدها الى مصر ولا أعلم سبب هذا النقل الى الآن وكان ذلك فى سنة ١٩١٥ ••• الخ)

رد الجميـــــل

بعد تأسيس الحكم الوطنى فى العراق قدم نورى السعيد بغداد عام١٩٢٠ وسكن دارا مجـاورة لدارى فى (خضر الياس) فى جانب الكرخ ، وكنت آنذاك حاكماً فى محكمة الاستئناف، فكنا نجتمع بين حين وآخر بقدر ما تسمح به أوقاتنا • أما هو فقد تقلد المناصب الكبيرة ، كسائر اخوانه الذين اشتركوا فى الثورة وانضموا تحت لواء الحسين •

وفى سنة ١٩٢٢ قدمت استقالتى من الحاكمية ، وأصررت عليها رغم الحاح رئيس الوزراء بسحبها وعرضه شتى العروض لترضيتى • ولم يكن قصدي من ذلك غير التحرر من قيود الوظيفة والعودة الى الحيـاة الحرة • فعدت الى البصرة ، وزاولت مهنـــة المحاماة غير نادم على ما فعلت ، وغمرنى شعور بالراحة والطمأنينة بأبتعادي عن الحياة القلقة التى تفرضها المناصب فى عاصمة الدولة الناشئة •

وفى الحقبة التى تلت ذلك كان نورى السعيد ، وهو فى دست الحكم يأتى البصرة بين حين وآخر فنتبادل الزيارات الودية ، ولم يحدث ما يكدر صفو العلاقات بيننا حتى حدث ما لم يكن فى الحسبان •

ففى الخامس عشر من تموز عام ١٩٣١ أعلن الاضراب العام فى البصرة ،

على أثر صدور قانون رسوم البلديات ، وقد اتخذ فور اعلانه شكلا غير سلمي .
فسار المضربون فى الشوارع فى شبه مظاهرات مسلحة ، وأخذوا يتحرشون
بالمؤسسات الحكومية . والتقى فريق منهم بسيارة متصرف البصرة آنذاك
فخري الملي فأحاطوا بها وكسروا زجاجها ، مما اضطره الى الالتجاء الى
دار المجتهد السيد عبدالله الموسوى طالبا حمايته ، فأرسله هذا بحماية بعض
السادة والعلماء الى دار المتصرفية . ومن هناك طلب المتصرف الى المتظاهرين أن
ينيبوا عنهم ممثلين لاجراء المفاوضات ، فتذاكر رؤساؤهم فيما بينهم ،
وأخبروا المتصرف بأنتخابهم أياي والمحامي محمد زكي . أما أنا فلم أكن قد
علمت بأمر الاضراب الا بعد الحادثة المذكورة ، ولا أعرف مدبريه ، ولم أكن
أعلم حتى ذلك الحين شيئا عن مطاليب المضربين . وكنت فى تلك الساعة جالسا
فى مكتبى ، فخابرنى المتصرف تلفونيا وأعلمنى برغبة المضربين الآنفة الذكر ،
فأعتذرت ، فرجا منى قبول التوسط وانهاء الازمة بسرعة ، فرفضت . وفى
أثناء تلك المخابرة رأيت الناس يتوافدون على مكتبى ، وبينهم كبار التجار
وأصحاب المخازن ورؤساء العمال ، حتى ضاق بهم . وكانوا يلحفون فى
قبولي التوسط بينهم وبين الحكومة . ثم سمعت هتافا من الخارج ، فخرجت
لاستطلع الخبر ، فرأيت آلاف المتظاهرين يحملون العصى متجمهرين أمام داري
هاتفين بحياتي . وفى ذلك الموقف جاء محمد زكي الى مكتبى ، وكان قد
حدث له نفس ما حدث لي . أما المتصرف فلم ينقطع عن مكالمتي تلفونيا كل
بضعة دقائق ، وهو يلحف فى الالتماس والرجاء حتى انه كان يستنجد بي
لانهاء خطورة الموقف وانقاذ سمعته ومركزه من هذه الورطة . فلم يسعنى
أزاء هذا الاصرار الا القبول مكرها . فتذاكرت ومحمد زكى مع المضربين
بشأن مطاليبهم وشروطهم لانهاء الاضراب ، ثم توجهنا الى العشار فى سيارتى ،
وكانت هى السيارة الوحيدة التى خرجت فى ذلك اليوم الى الشوارع ، لذا
فقد كانت عرضة للاعتداء عليها من قبل المضربين والشرطة على حد سواء مالم
يتأكدوا من هوياتنا . وفى منتصف الطريق أعترضتنا جمهرة من المتظاهرين
كانوا قد أحاطوا بمدير الشرطة درويش لطفى وأحد معاونيه ، وأوسعوهما

لكما وضربا ، فأسرعنا الى أنقاذهما ، وحلنا بينهما وبين الجمهور الغاضب ، وأخذناهما بسيارتنا الى العشار •

وصلنا المتصرفية فأستقبلنا المتصرف ، وكان يقبلنا ويتوسل الينا أن نقوم بدور الوسيط وأن نهدىء الخواطر الهائجة ، وأخبرنا بأنه قد دعى المجلس البلدى للاجتماع بأمر وزير الداخلية للقيام بتعديل بعض المواد ،ورجا منا أن نبلغ المتظاهرين قرارات المجلس المذكور وأن نقنعهم بالتزام الهدوء والسكينة • فخرجنا منه ، وفى طريق عودتنا لقينا أحد رجال الشرطة وهو يلاقى صنوف الضرب والتعذيب من المتظاهرين ، فخلصناه منهم ، وأركبناه السيارة ، ولكن أحد المتظاهرين أراد الا أن يتم أنتقامه فألقى عليه حجرا ثقيلا أصاب محمد زكى بدلا عنه ، فتدفقت الدماء بغزارة من رأسه ، مما الجأنى الى نقله الى المستشفى فى الحال والعودة وحدى الى المعمعة •

وفى أثناء أنعقاد المجلس البلدى عملت المستحيل لمنع هجوم الجمهور على دار البلدية ، فكنت أخطب فيهم مهدئا ، وممنيا ، وكنت احذر رؤساءهم من وخامة العواقب ، حتى بح صوتى فلم أعد أستطيع الكلام • وفى تلك الساعة قدمت سيارة مسلحة متوجهة صوب دار البلدية ، فهجم عليها الناس وتعاونوا على القائها فى النهر بمن فيها من رجال الشرطة ، مما أضطر قائدها الى توجيه الرشاشات عليهم مهددا باطلاق النار ، ولكن الجمهور الغاضب أستمر فى محاولته لقذفها الى النهر • حينئذ أسرعت الى مكان الحادث وتوسلت الى المضربين أن يكفوا عن هذا العمل الخطير الذي قد يؤدي الى اراقة دماء المئات منهم ، وأعتليت جناح السيارة وأمرت سائقها بالسير بطيئا ، فأفسح المتظاهرون لها المجال حتى مرت بسلام •

استمر الاضراب على شدته وعنفه ثلاثة أيام ، ثم انتهى على أثر تعديل بعض مواد الرسوم • ثلاثة أيام بذلت فيها من الجهود لتقريب وجهات النظر بين الشعب والحكومة ، ولحقن الدماء ، ولصون كرامة الموظفين وسمعة الحكومة ، ما جعل الجميع يسعون لتقديم الشكر والدعاء لي • وجاءني المتصرف يقدم

شكره ، فعانقني وقبلني وهو يقول ان لسانه ليعجز عن التعبير عن مدى شكره . وجاءني مدير الشرطة ومعاونوه لتقديم شكرهم أيضا . وحسبت وحسب الناس ان الامر قد انتهى .

الا انه في مساء ١٩ تموز اتصل نوري السعيد رئيس الوزراء بابراهيم الراوي آمر حامية البصرة يومذاك وطلب اليه القاء القبض على وتوقيفي ، فاعتذر الراوي قائلا انه يعرف الدور الذي لعبته في تسوية الخلاف ، ولهذا فانه لا يستطيع القيام بهذه المهمة . وفي صباح ٢٠ منه قدم الباشا بنفسه بالطائرة وأمر بتوقيفي ، فأوقفت . وطلبت الشرطة من المحكمة تمديد مدة التوقيف ، فأمتنعت المحكمة عن الموافقة ، وكانت هيئتها مؤلفة من الحكام ابراهيم الشابندر وتوفيق النائب وكامل سعيد . وكان رأيهم مطابقا لرأي ابراهيم الراوي آمر الحامية . ولكن الشرطة أبقتني موقوفا رغم ذلك الى يوم ٢٤ منه . وفي مساء ذلك اليوم ، بينما كنت أتناول عشائي مرتديا ملابس النوم ، أتاني مدير الشرطة وأخبرني بعزمه على نقلي الى مكان ملائم تتوفر فيه وسائل الراحة والنظافة ، فطلبت منه أن يمهلني كي أرتدي ملابسي ، فأجاب بأن المكان قريب ولا حاجة بي الى ذلك ، أما أمتعتي فوعد بنقلها بعد ذلك . فتوهمت انه صادق في دعواه . ولما خرجنا الى فناء البناية أحاط بي رجال الشرطة المسلحون وأقتادوني الى سيارة مسلحة وجدت فيها رفاقي الموقوفين الخمسة وهم : الحاج ابراهيم البجاري ، وحبيب الملاك ، وطه الفياض ، وحسن الناصح ، وكاظم الحاج شويش . وسارت بنا السيارة ، ومن أمامها وخلفها سيارات مسلحة ، الى محطة القطار . وهناك أركبنا في عربة من الدرجة الثالثة برفقة أثني عشر شرطيا ومفوض واحد . وسار بنا القطار ونحن لا نكاد نصدق ما يجري حولنا ، ولا نعلم ما يراد بنا . وكنا جميعا بملابس النوم ، ولم يكن أحدنا ليحمل معه فلسا واحدا ، ولم يكن لدينا زاد أو ماء للطريق . وما هي الا ساعات حتى علت وجوهنا الأوساخ والاتربة ، واشتد بنا الجوع والعطش ، فتصدق علينا رجال الشرطة بكسر من الخبز .. ونتف من الرقي .. وجرع من شربة مكسورة ..

أما أنا فلم يغمض لي جفن ، وكنت ساهما كمن استغرق فى حلم مزعج .. فلما دارت عجلات القطار الى الامام ، مزمجرة صاخبة ، انسابت ذكرياتي الى الوراء ، راجعة بي رويدا رويدا الى الماضى السحيق . فأراني واقفا فى مجلس المبعوثان أصرخ بصوتي الجهوري ، مطالبا بحقوق هذه الامة ، بينما يحدجني صناديد الاتحاديين بنظراتهم شزرا ، يودون لو يخمد هذا الصوت الى الأبد ...

وأرانى ساهرا أسطر المقالات النارية فى جريدة « الايقاظ » ، داعيا الى تحرير هذه الامة من نير العبودية ، فتتلاقفها الايدي فى الصباح ، وتقرأها الافئدة قبل العيون ، معجبة بروح الكاتب الحر ، ثم يقتادني الجندرمة لأنال العقاب ، فألتقاهم باسما غير هياب ...

وأراني فى سواد الليل ، أصدر الاوامر ، وأوزع العتاد على المدافعين عن حياض الجمعية الاصلاحية ، ليلة لقى فريد بك وأعوانه مصرعهم على أيدي رجالنا ، وما ذاك الا دفاعا عن كرامة هذه الامة ..

وأرانى متنكرا أجوب المدن العراقية ، وأنظم الجمعيات السرية ، وأبث روح النضال ، وأشد عزائم المنافحين عن قومية هذه الأمة ، فيطاردنى الاتحاديون ، ويتربصون بي الفرص ، ويطالبون برأسى حيا أو ميتا ، ثم يرجعون خاسئين .

وأرانى فى مواقفى المعروفة مع الانجليز فى بداية الاحتلال ، أرفض مساوماتهم بشمم وأباء ، وأصد عنهم يوم أقبلوا علي ؟ ويوم لاذ بهم الكثيرون ، فبذلوا كرامة الأمة لقاء جاه فارغ ، وباعوا حقوقها بأبخس الاثمان

يسير هذا الشريط السينمائي شوطا فى التاريخ ، فيبلغ اليوم الذي أعلن فيه الحكم الوطني فى العراق ، يوم قيل ان الامة نالت استقلالها وانها تحكم ذاتها بنفسها . الأمة التى كافحت لأراها متحررة من نير العبودية والرق ، وناضلت فى سبيل أعلاء كلمتها ؟ أقول انه فى عهد الاستقلال

والدستور والحرية ، فى عهد الحكم الذاتى ، فى هذا العهد نفسه أرانى جالسا على مقعد مهشم فى عربة القطار ، بجلبابي القذر ووجهي الأشعث ، من غير زاد ولا مال ، يحيط بي أنفار من الشرطة ينظرون الي نظرهم الى مجرم أثيم ، ويقتادونني الى منفاي .. بعيدا عن أهلي وبلدي ... ألا ما أعظمها خاتمة للمطاف الطويل ، ألا ما أبدعها نهاية للنضال المرير ...

ويصفر القطار صفيره الحاد ، فيصحو الحالم ويعود الى الواقع ؛ ولكن الكابوس لا ينفك يرهق باله فيحاور عقله مشفقا .. رويدك أيها العقل المتعب ، أما آن لك أن تنعم ببعض الراحة ؟ علام تصر على أن تخترق الحجب والأستار ، فتنفذ الى دخائل بعض القلوب ، لتعلم ما الذي دهاها ، وأين تكمن شياطينها التي توسوس لها ؟.. ولكن هيهات أن يستطيع العقل الهمود ما دامت هناك أجراس تدق حوله ، وهيهات أن تنطفي جذوة النار ما دامت هناك وقود تتدفق اليها . أبى العقل الا أن يستكشف المجاهل ، فأوغل فيها وأوشك أن يتيه مرارا ، ثم آب بالخبر اليقين ، وبالعلم الأكيد . لقد ساء (الباشا) أن يعلم بأنتسابي الى حزب الأخاء الوطني ، وساءه أن أكون معارضا للمعاهدة التي أبرمها مع الحليفة العزيزة .

وفى طرفة عين أصبحت فى نظره خطرا على الأمن ، ومبعثا للشغب ، ومصدرا للمتاعب ، ومثارا للقلاقل ... فوجب عليه أن يدرأ عن البلد خطرى ، وأن يحفظ الامة من شرورى وآثامى ، فيعزلنى عن الناس كما يعزل الأجرب عن الصيح ...

وصلنا بغداد ، فأركبنا فى سيارة مسلحة الى الرمادى ، حيث تناولنا طعاما خفيفا للمرة الاولى بعد ثلاثين ساعة !.. واستأنفنا السير الى عنه ، فاستقبلنا القائممقام شاكر محمود المعروف بشاكر (قنبر علي) ، وأخبرنا بأننا سنبقى فيها مبعدين حسب قانون العشائر !! وتصدق علي (بدشداشة) وملابس داخلية ، فأستحممت وأخذت قسطا من الراحة بعد تلك السفرة النحسة .

وقد لقينا من أهالى عنه وراوة اكراما بالغا ، فأولموا لنا الولائم ، وأجزلوا لنا الهدايا • حتى ان السيد أحمد الراوى المحامى فى بغداد أرسل كتابا الى أحد أقربائه فى راوة أوصاه بى خيرا • فحضر هذا القريب ، وعرض على كل مساعدة ، وقدم لي رزمة من الاوراق المالية ، أعدتها اليه شاكرا صنيعه • واستمر من بعد ذلك يرسل الينا الفواكه والاطعمة •

وجاءت أوامر الباشا بعد أيام تقضى بمنع السكان من الاختلاط بنا ، وبتكليفنا بأعالة أنفسنا ، وبقطع المصروفات الحكومية عنا ، خلافا للقوانين المرعية ، وبنقلنا الى البناية المتهدمة من بقايا السراى العثمانى المهجور • وفى هذا المكان الهادىء قضينا مائة يوم ، الا ان الامور من حولنا لم تكن هادئة • فقد راحت جرائد حزب الأخاء والحزب الوطنى تهاجم الحكومة فى موضوع ابعادنا • وطيرت برقيات الاحتجاج على ابعادنا من الموصل وبغداد وعنه وراوة تحمل مئات التواقيع •

وقدم جميل المدفعى احتجاجا بصفته رئيسا لمجلس النواب • أما بعض أهل البصرة ، الذين أصابنى ما أصابنى من أجلهم ، فقد كتبوا مضبطة الى الحكومة يشكرونها على عملها الصائب • فلله درهم من رجال !•• ويا تاريخ سجل !••

كانت التقارير المرسلة من شرطة التحقيقات فى البصرة تشيد بأعمالى فى الاضراب ، مما أثار استغراب موظفى وزارة الداخلية ، فذهب عبدالرزاق حلمى متصرف لواء بغداد الى مزاحم الباجهجى وزير الداخلية وأطلعه على تلك التقارير وعبر عن استغرابه من موقف الحكومة تجاهى • فأجاب الباجهجى :ـ ان هذه هى رغبة الباشا • فقال عبدالرزاق :ـ ولكن سليمان فيضى صديقك وصديق الباشا حسب ما أعلم • فأجاب : هذا صحيح ، ولكنه مغرور ومتعجرف فينبغى أن يعاقب !••

كان المغفور له جلالة الملك فيصل الاول متغيبا عن العراق فى تلك الاثناء ، وكان يقوم بمهام العرش نيابة عنه المغفور له جلالة الملك علي ، فلم يشأ أن يتدخل فى الأمر • وعند عودة جلالته بلغه نبأ الابعاد ، فأمر باطلاق سراحنا •

عدنا الى بغداد ، ونزلت وحبيب الملاك فى أحد الفنادق • فتوافد علينا القوم للتهنئة ، وبينهم زعماء الاحزاب ، ورجال السياسة ، والصحفيون ، والاصدقاء • وكان ياسين الهاشمى يزورنا صباحا ومساء • وفى مساء اليوم التالى دعينا للتشرف بمقابلة جلالة الملك فيصل • وفى المقابلة المذكورة جرى الحديث التالى :ـ

قال المغفور له : انى عفوت عنكما وأرجو أن لا يحدث بعد اليوم شيء مما جرى •

فأجبته : انى أتقبل هذا اللطف بكل شرف ، ولكنى لا أعتبر كلمة العفو الا لطفا ، لاني لست مجرما ولم يكن تصرف نوري معي من العدل فى شيء •

فقال جلالته : لا تجادلنى يا سليمان •

قلت : ليس هذا جدال بل هو بيان حقيقة ، أني لا أقبل أن أصبح مجرما يعفى عنى بمجرد أن يرمينى نورى السعيد بتهمة وهمية •

فقال جلالته : على كل حال أتمنى أن أسمع عنكما أخبارا سارة •

وفى مساء اليوم الثالث جاء لزيارتنا ياسين الهاشمى وعلى جودت الايوبى وعبدالاله حافظ ، وأخبرنى بأن الشبيبة البغدادية ستقيم حفلة شاى عصر اليوم التالى احتفالا بنا • وبالفعل فقد وزعت بطاقات الدعوة على عدد كبير من رجال الاحزاب • الا انه فى صباح اليوم الرابع اتصل بى عبدالرزاق حلمى تلفونيا ، وأخبرني بأن الباشا قد علم بأمر هذه الحفلة ، وأنه يطلب منا أن نعتذر عن قبولها • فأجبته بأن هذا غير ممكن ، أما اذا كانت الحكومة غير راغبة فى اقامتها فلتمنعها بالقوة • وفى أثناء هذه المخابرة كان علي جودت وعبدالاله حافظ قريبين مني ، فذهب الاول ليخبر الهاشمي بأزماع الحكومة على أحباط الحفلة • وبعد دقائق كلمني عبدالرزاق حلمي قائلا :ـ ان الباشا أمر بالغاء الحفلة بالقوة وبتسفيركما حالا بالسيارة على طريق العمارة • فلما علم الهاشمى بهذا أتصل فورا بجلالة الملك محتجا على الاعتداءات التى يرتكبها نورى السعيد ، خلافا للقوانين وللحرية التى كفلها

الدستور للأفراد • فأجاب جلالته بأن رئيس الوزراء هو المسؤول عن أعماله وليس للملك أن يتدخل فيها •

حضرت ثلة من الشرطة أمام الفندق ، ففرقت الحاضرين ، ووضعت أمتعتنا فى سيارة ، ثم أركبتنا فيها قسرا وأرفقت معنا مفوض شرطة •

أسلمنا أمرنا الى الله ، وسرنا بدون توقف حتى وصلنا العمارة ليلا ، فاستقبلنا الشيخ محمد العريبى ، ودعانا لتناول العشاء والمبيت فى داره • ولم نكد نفرغ من العشاء حتى جاءنا على خالد الحجازى مدير الشرطة آنذاك ، وأخبرنا بأوامر وزير الداخلية التى تقضى بالسفر حالا الى البصرة ، فأستأنفنا السفر ليلا ، ودخلنا البصرة قبل بزوغ الشمس • وكانت ترافقنا من القرنة الى البصرة سيارة معاونى الشرطة فأوصلوا كلا منا الى داره • وقد علمنا بعد ذلك ان الغرض من تعجيل وصولنا الى البصرة كان للحيلولة دون استقبالنا من قبل الاهلين استقبالا شعبيا ، خاصة بعد أن علم المسؤولون ان فى نية أصحاب سيارات الاجرة التبرع بسياراتهم لركوب المستقبلين احتفاء بمقدمنا •

وبعد أن أصبت بعض الراحة خرجت الى الديوان لاستقبال المهنئين ، وكانوا كثيرين جدا ، بينهم بعض الذين وقعوا على المضبطة في اتهامنا • وكنت أشفق عليهم اذ أراهم يدخلون وعلى وجوههم شحوب الجبن ، لا يجسرون على رفع أنظارهم الي ، حتى اذا ما غالبوا خجلهم قالوا : (وجهنا أسود وياك يا أبو محمد • والله مضونا المضبطة وما ندرى شكو بيها •••)

الصلح

في عام ١٩٣٥ قدم البصرة نوري السعيد ومحمد زكي ، الوزيران فى وزارة الهاشمى ، فأقام تحسين على متصرف البصرة مأدبة غداء على شرفهما • وبينما كنت فى مكتبى اترأس لجنة المهرجان ، الذى أقيم ابتهاجا بقانون خدمة العلم ، اتصل بى المتصرف وبلغنى دعوة لحضور المأدبة ، فأجبته بانى لن أحضر مجلسا يضم نورى ، فقال : ولكنى دعوتك بناء على رغبته ، لأنه

يود أن يعتذر اليك عما جرى في الماضى . فكررت الاعتـذار ، ولكنه أصر فرضيت .

استقبلني نوري من الباب معانقا مقبّلا وهو يقول : ألا قاتل الله السياسة ، فأنها تفسد بين الاخ وأخيه ، والابن وأبيـه .

ولم أشأ أن أقتنع بهذا العذر أو أسلم بهذه النظرية في السياسة ، بل لمته لوما شديدا ، فكرر الاعتذار ، والتفت الى نجـله صباح وقال له : « ترى سـليمان فيضي عمك الصدك » . فضحكنا ، وزال في الحال أكثر ما كان بقلبي من حقد وبغض ، وتركت للأيام ما بقى منهما تزيله وتمحوه .

الحرب العالمية الأولى

البصرة على فوهـــة بـركان

في الثامن والعشرين من تشرين الاول عام ١٩١٤ أعلنت الدولة العثمانية الحرب على الحلفاء فكان اعلانها ايذانا بزوال الاختلافات الداخلية وبتوحيد صفوف الأمة للدفاع عن الوطن الغالى • وقد وردتنى ، كنائب عن البصرة ، بعد أعلان الحرب بيوم واحد برقية من أنور باشا يرجو منى فيها التعاون التام مع الحكومة وحث الشعب على التطـوع فى الجيش • فشرعنا نعمل بهمـة ونشاط ، وأسسنا جمعية الهلال الاحمر فى البصرة ، وبدأنا بجمع التبرعات السـخية لهـا •

تواترت الانباء على ان الانجليز يتهيأون لانزال قواتهم فى البصرة ، وان قطـع الاسـطول البريطانى وعددا من البواخر المشـحونة بالجنـود قد تجمعت أمام البحرين منتظرة الاشارة ببدء الهجوم • لذلك سارعت الحكومة العثمانية بارسال جيوشها الى البصرة ، مما أشاع بعض الاطمئنان فى نفوس البصريين ، خاصة وان جاويد باشا القائد العام فى بغداد راح يطمئن صبحى بك آمر حاميـة البصرة عن قـرب وصول النجـدات •

كان القنصل البريطانى فى البصرة قد غادرها الى المحمرة غداة اعلان الحرب ، ومن هناك أرسل أحد رجال الشيخ خزعل حاملا رسالة سرية الى السيد طالب ، يقترح حضوره لعـرض بعض المقترحات البريطانيـة حـول مسـتقبل العـراق •

ذهب السيد طالب ليلا بزورق بخاري الى قصر الفـيلية ، وتوجه من هناك برفقة الشيخ خزعل الى دار الحاج رئيس التجار ، التى اتخذها القنصل مقرا له ، حيث استمع الى المقترحات البريطانية التى تتلخص فى أن يقـدم السيد طالب للحلفاء جميع المساعدات الفعلية لاحتلال البصرة ، مقـابل تعهد الانجليز بتنفيذ الوعود التالية بعـد أنجاز الاحتلال :ـ

١ ـ تنصيب السـيد طالب حاكما عاما على ولايـة البصرة ولوائي النـاصرية والعمـارة •

٢ ـ جعل اللغة العربية لغة رسمية فى الدوائر الحكومية والمدارس .

٣ ـ تعيين موظفين عراقيين فى جميع مناصب القضاء وفى الدوائر الرسمية.

٤ ـ جعل ادارة الاوقاف أهلية تحت اشراف الحكومة .

٥ ـ اعفاء أملاك السيد طالب وأملاك أسرته من الرسوم الاميرية .

٦ ـ تعنى الحكومة البريطانية بأمر المصارف والشؤون الاقتصادية والزراعية عناية خاصة لغرض تقدم البلاد ورقيها .

وقد المح القنصل البريطانى للسيد الطالب عقب عرض شروط حكومته الآنفة الذكر الى الفوائد التى جناها راجات الهند الذين آزروا بريطانيا ، والى النكبات التى حلت بالذين رفضوا التعاون مع الانجليز .

فاستمهل السيد طالب القنصل بضعة أيام للتفكير فى المقترحات الآنفة الذكر قبل البت فيها . وقد اطلعنى عند عودته على تلك المفاوضات ، وعلى تلميح القنصل عن راجات الهند الذى كان ينطوى فى الحقيقة على تهديد صريح . وبعد تمحيص ومداولة عاد السيد طالب الى المحمرة سرا بعد يومين ، وقدم بنفسه المقترحات التالية الى الحكومة البريطانية :ـ

١ ـ ان البلاد العربية ترغب فى التخلص من نير الاستعمار التركي لتعيش مستقلة لا لتبتلى بأستعمار جديد . لذلك فانه ـ أى السيد طالب ـ يتعهد باعلان الثورة ضد الترك ، مستعينا بالضباط والجنود العرب وبالعشائر العراقية ، بدون تدخل الجيش البريطانى .

٢ ـ على الانجليز أن يمدوه بالسلاح ، والذخائر ، والمال ، والطائرات ، والطيارين ، والفنيين فقط .

٣ ـ أن تبقى البواخر والقطعات البحرية الانجليزية فى الخليج الفارسى خارج مياه شط العرب وأن لا تدخل الاراضى العراقية الا عند اقتضاء الضرورة .

٤ - فى حالة اشتراك جيوش المانية ضد العرب فيحق حينئذ لبريطانيا أنزال جيوشها فى البـلاد ٠

٥ - اذا تم أخراج الترك من البلاد ، تؤسس دولة مستقلة دستورية تحت حماية الانجليز ، ملكية أو جمهورية حسب رغبـة الشعب ٠

٦ - يمنح الانجليز أمتيازات أقتصادية فى العـراق ، ويكون المستشارون الفنيون من الانجليز دون سـواهم ٠

٧ - ان النفقات التى يتكبدها الانجليز فى مساندة الثورة تعتبر قرضا على البلاد ، يسدد على شكل أقساط من الميزانية وتنتهى الحماية بتسـديده ، وتبقى الامتيازات الاقتصادية وحـدها نافذة ٠

٨ - ان تصبح هذه الشروط أساسا لمعاهدة دولية يوقع عليها مندوب رسمى عن الحـكومة البريطـانية ٠

قابلت الحـكومة البريطانيـة هـذه المقترحات بالرفض وأصرت على مقترحاتها الاولى ٠ فأرسل السيد طالب رأيه النهائي فى رسالة ضمنها الجملة التـالية :ـ

« اني لا اوافق على ذلك بتاتا واني ساعاضد الترك مهما كلف الأمر » ٠

طـالب عـدو الانجليز والترك معـا

خيب السيد طالب أمل الانجليز ، فلم يكتف برفض المحالفة معهم ، بل أعلن عن عزمه على مقاومتهم تضامنا مع الترك ٠

وفى تلك الظروف العصيبة ، وبينما كان كل فرد منا قد نذر حياته للدفاع عن البصرة وكرس جهوده لتأييد الحكومة العثمانية ، وردت رسالة سرية من عبدالكريم السعدون الذي كان يزور بغداد آنذاك ، يفضح فيها نوايا الحكومة تجاه السيد طالب وأقطاب الجمعية الاصلاحية ، ويكشف النقاب عن محتويات كتاب سري أرسله جاويد باشـا قائد الجيش فى بغداد الى صبحي

آمر حامية البصرة ، يوعز اليه بالتظاهر بالامتنان لزعماء الجمعية والسيد طالب ، بقصد أبقائهم فى البصرة ريثما تصل الجيوش العثمانية اليها ، فيسهل حينذاك القاء القبض عليهم .

على أثر ورود هذا الكتاب أجتمع كل من السيد طالب ، وأحمد باشا الصانع ، وعبداللطيف باشا المنديل ، ومؤلف الكتاب ، وعبدالله صائب ، وعمر فوزى المحامى ، وتشاوروا فى الأمر ، ثم قرروا أن يغادر السيد طالب ومؤلف الكتاب – عدوا الحكومة اللدودان – البصرة بأسرع ما يمكن . فذهب عبدالوهاب باشا المنديل الى الزبير ، لغرض اعداد العدة للسفر من خيام وجمال وركائب[١] ومؤونة وماء وغير ذلك ، فجمعها بمعونة شيخ الزبير ابراهيم العبدالله وعبدالكريم الدخيل ، وأرسلها سرا الى منطقة الرافضية القريبة من الزبير .

وفى فجر اليوم المعين للسفر تشاورت مع السيد طالب ، ففضلنا أن يكون سفرنا علنيا ولكن بصورة مفاجئة بالنسبة للحكومة المحلية ، وأن يكتسب صبغة رسمية وطنية . وقد تم ذلك فعلا ، بأن دعونا عمر فوزى المحامى الذى كان يجيد حل الشفرة وكتابتها ، وطلبنا اليه أن يكتب شفرة موقعة من قبل أنور باشا وزير الحربية ، يلتمس فيها من السيد طالب السفر الى نجد لاقناع ابن السعود وابن الرشيد بمعاونة الجيوش العثمانية فى الدفاع عن البصرة ، ثم وضعنا الشفرة داخل غلاف برقية . ولما توارد القوم على ديوان السيد طالب فى الصباح ، دخل أحد الخدم يحمل البرقية المزورة ، ففضها السيد طالب وناولها الى عمرفوزى ، وطلب اليه أن يحل رموزها ويقرأها على الحاضرين . فلما قرأها اعتقد الجميع بانها حقيقية ، حتى ان صبحى بك قائد الحامية لما بلغه خبرها حضر لدى السيد طالب وعرض عليه خدماته .

وفى عصر ذلك اليوم ٥ تشرين الثانى ١٩١٤ خرجنا من البصرة ، وكان

---

(١) الجمال الاصلية المخصصة للركوب .

فى توديعنا الوالي والقائد وجمع غفير من الاهلين والموظفين ، فلما وصلنا الرافضية وجدنا كل شىء جاهزا ومهيأ .

وقبيل سفر القافلة بدقائق حضر الحاج مصطفى النورى معتمد الشيخ خزعل وبيده رسالة سرية الى السيد طالب ، جاء فيها التعديل الآتى للمقترحات الانجليزية :

« أن يلتزم السيد طالب جانب الحياد أثناء الحرب مقابل وعد الانجليز بجعله حاكما عاما مدى الحياة على العراق من الفاو الى آخر نقطة يصل اليها الاحتلال » .

فكتب السيد طالب على ورقة الجواب التالى ، وسلّمها الى معتمد الشيخ خزعل ليوصلها الى القنصل البريطانى فى المحمرة :ـ

« انى أرفض كل أقتراح من هذا القبيل ، وقد عزمت على السفر الى نجد ، فابحثوا عن من يعينكم على أستعمار بلاده ، واعلموا ان الذى لا يرضى بحكم الاتراك اخوانه فى الدين حري به ان يأبى حكم الانجليز » .

معضلة فى الكويت

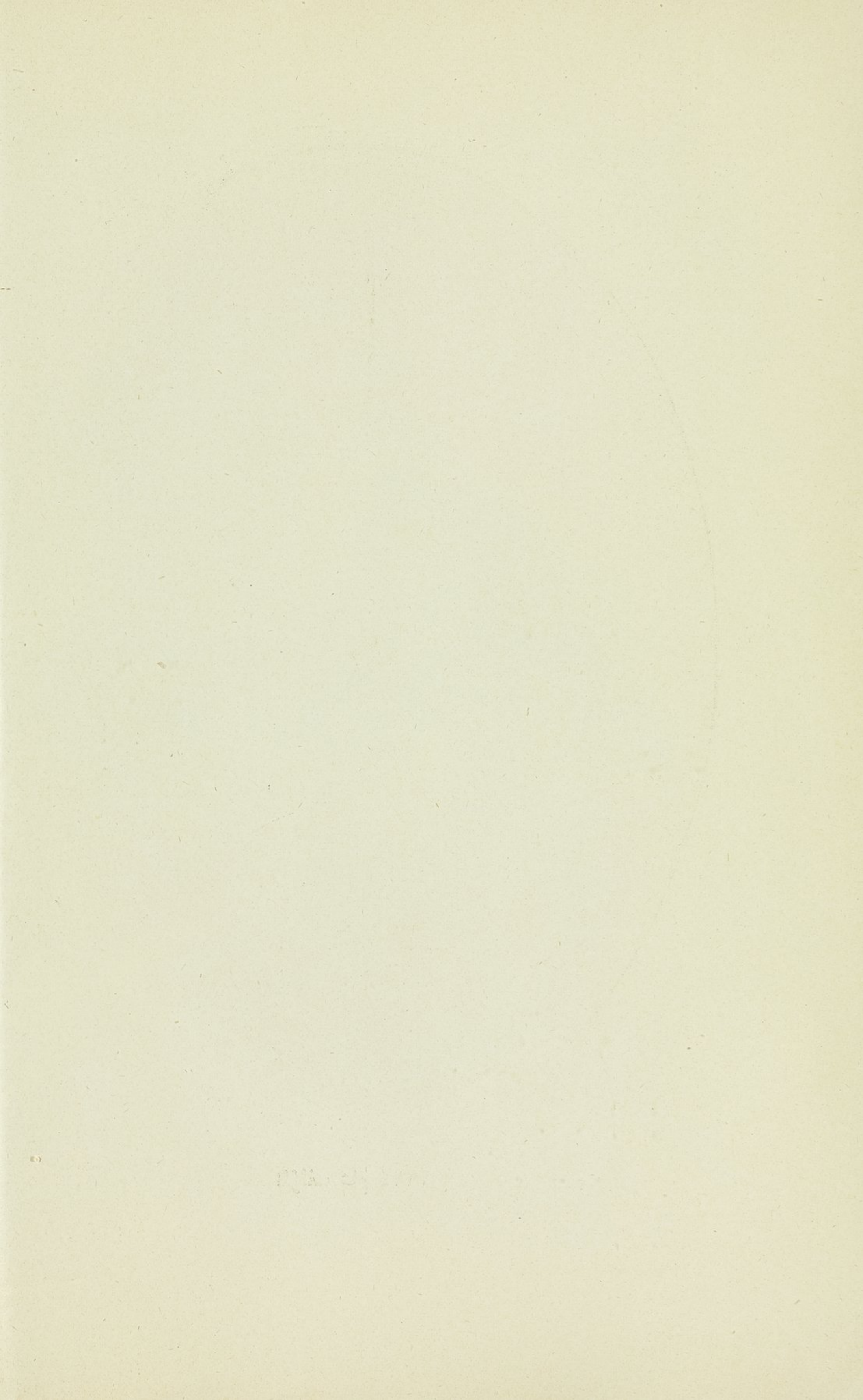
سارت القافلة من الرافضية عند الغروب فى طريقها الى الكويت ، وكان فيها ـ عدا السيد طالب ومؤلف الكتاب ـ كل من عبدالوهاب المنديل ، والشيخ احمد الابراهيم ، وعبدالكريم الدخيل ، وعبدالعزيز المكنزى ، وتوفيق الحموى ، وهو أحد الضابطين اللذين جاءا بمهمة خاصة لدى السيد طالب وكان قد أبدى رغبة شديدة فى الذهاب معنا ، ونحو من أربعين رجلا بين جمّال وخادم وطاه وسائس خيل .

وصلنا الجهرة صباح ٧ منه فأستقبلنا الشيخ جابر الصباح ولفيف من آل صباح والوجهاء ، ثم دخلنا الكويت وحللنا فى قصر الامير .

وفى مساء ذلك اليوم زار القنصل البريطانى الكرنل كرى قصر الامير ، وأجتمع بالسيد طالب والشيخ مبارك ، وأعاد عرض المقترحات البريطانية .



المؤلف عام ١٩١٤



ثم حضر فى صباح اليوم التالى للغرض نفسه • وفى المرتين رفض السيد طالب المطاليب الانجليزية رفضا باتا •

وفى مساء ذلك اليوم أرسل القنصل معتمده الحاج عبدالله وليمس الى السيد طالب يرجو منه الحضور فى دار القنصلية • فطلب منى السيد طالب مرافقته الى هناك • ولما ذهبنا أخبرنا القنصل بأن آخر التعليمات التى لديه تقضى بأن يؤخـذ السيد طالب الى الباخرة الراسية قرب الفاو ، والتى تحمل على ظهرها السر برسى كوكس ، وأن يبقى فيها ريثما يتم احتـلال البصرة فيدخلانها سوية ؛ السيد طالب كحاكم عام والسر برسى كوكس كممثـل للحكومة البريطانية • فأجابه السيد طالب بأنه لو جرى ذلك حقـا لكانت وصمة شنيعة وجريمـة وطنية لا تغتفر • فأخذ القنصل يحـاول اقنـاعه ، فاستمهله السيد طالب للتفكير فى الامر • ولما خرجنا سألنى رأيي ، فأجبته بأنى لن أزيد حـرفا على جوابه الذى أفاد به الى القنصل ، فأبدى ارتيـاحه لهذا التأييد وسرنا الى قصر الامير •

عندما وصلنا القصر اختلى السيد طالب بالشيخ مبارك فى احدى الغرف وجلست أنا فى الشرفة المطلة على البحر ، وبعد حين سـمعت السيد طالب يقول بنبرة عصبية : كنت الى الآن أدعوك بعمّي ، اما الآن فأقول لك يا مبارك اذا منعتنى من الخروج من الكويت فسأطلق من مسدسى هذا طلقتين تستقر الاولى فى رأسك والثانية فى رأسى •

وبعد هذه المشادة فتح الشيخ مبارك باب الغـرفة ، ورآنى جالسـا فى الشرفة فنادانى قائلا : تعال احضر معنا وشوف رأى صاحبك المجنون – يعني طالباً – •

فلما دخلت أخبرنى السيد طالب محتدا بأن الشيخ مبـارك يمنعنا من مغادرة الكويت الى نجد بناء على توصية الانجليز • فقال الشيخ مبـارك انه مضطر الى تلبية طلب الانجليز ،وانه لايستطيع مخالفةأوامرهم ،وان طالباً لا يقدر موقفه هـذا بل هـدده بالقتـل •

استطعت أن أهدىء خواطر الحليفين المتخاصمين ، فجلسنا نحن الثلاثة تدبر الامر بيننا ، ثم انتهينا الى حل معقول ؟ ذلك انه عندما يدخل الشيخ مبارك الى دائرة الحرم عقب الغداء لينام ، حسب عادته ، نسرع نحن بمغادرة القصر ، تاركين له خطابا مغلقا ، حتى اذا افاق من نومه وفض الغلاف اكتشف أمر سفرنا المفاجىء ، فيكون له حينذاك العذر أمام الانجليز .

أوعز السيد طالب الى جميع رفاقنا بالذهاب حالا الى الجهرة حيث تنتظرنا الجمال والاثقال ، واستبقانى وعبدالوهاب المنديل وأحد الخدم مع أربعة من الخيول السريعة . ولما كان عبدالله صائب وعمر فوزى قد أصابهما الاعياء والمرض ، لعدم تعودهما على الركوب ، فقد اعتذرا عن مواصلة السفر مع الباقين وفضلا العودة الى البصرة .

وبعد أن تغدينا مع الشيخ مبارك ذهب هو الى الحرم ، فغادرنا نحن الاربعة القصر على خيولنا تاركين له الخطاب المتفق عليه . فلما وصلنا الى الجهرة رأينا الجميع على أتم استعداد ، فواصلنا السفر متجهين الى بريدة ، وكان ذلك عصر يوم ٩ تشرين الثانى ١٩١٤ .

النخوة العربية

فى صباح ١٨ تشرين الثانى ١٩١٤ وصلنا بريدة ، وكان فى استقبال القافلة بعض أنجال الامام ووزرائه ونحو من ثلاثمئة فارس . سار الموكب الكبير الى قصر الامام حيث اجتمعت جماهير غفيرة من الناس لتحيتنا . وعند باب القصر استقبلنا الامام عبدالعزيز آل السعود . ثم صعدنا بعد ذلك الى القاعة الكبيرة ، وقام الفرسان السعوديون بعرض العابهم البارعة فى الفسحة الكائنة أمام القصر الكبير . وبعد أن تناولنا القهوة قال طالب للامام : ان أخانا سليمان يود أن يلقى كلمة على الجماهير المحتشدة قبل تفرقها لأن مهمتنا تتطلب ذلك . نزل الامام والسيد طالب والحاضرون الى ساحة القصر فتقدمت والقيت خطابا ارتجاليا جاء فيه :ـ

« سيدى الامام الاعظم ، سادتى الحضار الكرام

السلام عليكم ورحمة الله • وبعد فقد جئنا من البصرة نحمل اليكم تحيات أهلها ، ونعبر عن آمالهم الكبار بشهامتكم الاسلامية ونخوتكم العربية • لقد هاجم الانجليز البصرة بلد اخوانكم فى الدين قاصدين احتلالها وفرض الرق والعبودية على سكانها ، وهذا لا شك مما لا ترضاه حميتكم الدينية • فالنجدة النجدة يا آل يعرب ، والنخوة النخوة يا بنى عدنان وقحطان • أغيثوا من استجار بكم من اخوانكم وأبناء عمومتكم ، وادفعوا عنهم كيد الكائدين وبطش المستعمرين • ان المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها كالجسم الواحد اذا تألم عضو فيه تألمت له سائر الاعضاء ، فأملى وطيد فى أنكم ستتألمون لما أصاب اخوانكم أهل البصرة ، فتهبون لنصرتهم وتسارعون الى نجدتهم ، ان الله فى عون المرء ما دام المرء فى عون اخيه •

وهنا قام الامام وصاح بأعلى صوته « لبيك •• لبيك »

فقلت : جزاكم الله خيرا انه لا يضيع أجر من أحسن عملا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته • »

بقينا بعد ذلك فى ضيافة الامام ، فخصص لنا جناحا مستقلا فى قصره • وكان موقف كل من السيد طالب والامام فى غاية الحراجة • فطالب يعلم انه لو عاد الى البصرة قبل انسحاب الاتراك منها لألقوا عليه القبض وبطشوا به ، وانه اذا عاد اليها بعد احتلالها من قبل الانجليز لواجه فيهم خصومه الجدد • اما ابن السعود فكان هو الاخر فى حيرة من أمره ، فقد ورده كتاب من الكابتن شكسبير معتمد بريطانيا فى البحرين ينصحه فيه بالتزام الحياد التام ، ويحذره من معاداة بريطانيا ، لأنها قادرة على احتلال الموانىء السعودية وفرض الحصار على البلاد ، ويذكر له بأنه سوف يحضر نجد قريبا للمباحثة فى هذا الشأن •

وفى اليوم الثانى من وصولنا حامت شبهة الامام حول الضابط العثمانى

توفيق الذى كان فى معيتنا ، بعد ان رآه يتربص له فى طريقه الى الحرم ، فأمر بتسفيره حالا الى الاحساء • وقد بقى فيها مدة ثم توفى هناك •

وفى اليوم الثالث طلب منى الامام مرافقته الى مكتبه الخاص ، وكلفنى بتحرير رسالة الى الشريف حسين أمير مكة ، يخبره بوصول السيد طالب وتحريضه اياه على محالفة العثمانيين ضد الانجليز ، ويعبر له عن حيرته فى الامر ، وخشيته من احتلال الانجليز لمرافئه ، ويسأله ابداء رأيه فى الموضوع ومعالجة الامر بحكمته المعهودة • ثم ختمت الكتاب بعبارات التودد والاحترام التى أملاها على ، مما يشابه كتابة الابن الى أبيه • ولما أنهيت الرسالة قرأتها على الامام ، فأبدى استحسانه وأمر بارسالها على جناح السرعة •

وبعد ذلك بثلاثة أيام دعانى مرة أخرى للحضور الى مكتبه ، وأملى علي رسالة ثانية الى الشريف حسين ، يخبره فيها بعزمه على السفر الى العراق تلبية لرغبة السيد طالب ؛ الا انه فى الوقت ذاته سيصدع لأى أمر أو ارشاد يرده من الشريف • وبعد الفراغ من كتابة هذه الرسالة أبدى الامام رغبته فى ابقائى بمعيته ، فيكفل لى أعلى المناصب وأرغد العيش ، فأعتذرت بانى متزوج وأخشى أن يكون فى اقامتى بنجد مضايقة لزوجتى وأطفالى • فنال عذرى قبوله •

النجدة المتأخرة

عقد الامام اجتماعا حضره السيد طالب ومؤلف الكتاب وعبدالوهاب المنديل ، وأعلن عن موافقته على السفر الى العراق بجيشه ورجاله ، وقد أدرك السيد طالب كما ادركت من لهجة الامام انه لم يكن مجدا فى زحفه هذا ، وانه يقصد كسب الوقت ريثما تنجلي نتيجة المعركة المنتظرة بين الانجليز والعثمانيين فى البصرة •

أبرق السيد الطالب الى أنور وطلعت برقيتين ينبئهما بموافقة الامام على مساعدة العثمانيين ، وأرسل أحداهما عن طريق المدينة المنورة والثانية عن طريق البصرة ، وأوصى الحكومة بالاستعداد لتجهيز الجيش الوهابى بالمؤن

والذخائر • وفى فترة الاستعداد للسفر ذهبنا الى عنيزة صحبة الامام ، استجابة لدعوة أميرها • فاستغرقت السفرة يومين عدنا بعدهما الى بريدة •

وفى خلال الاحاديث التى كنا نتبادلها مع الامام فى اجتماعاتنا المتعددة فهمت أنه لم يكن يرغب فى نشر التعليم بين أفراد الشعب ، وان اصراره على تحريم التدخين انما يعود الى رغبته فى أن ينبذ الشعب السعودى جميع المكيفات بما فيها الدخان • وقد روى لنا يوما قصة العقال المقصب ، فقال ان آل سعود يرتدون العقال المقصب من قديم الزمان ، الا انه ـ أى عبدالعزيز ـ أقسم أن لا يلبسه حتى ينتقمن من عدوه ابن الرشيد ، وبقى يرتدى العقال الاسود حتى اليوم الذى حملوا اليه ختم ابن الرشيد بعد مقتله ، حينئذ نادى ان ائتونى بعقال مقصب ، فلما أحضروه وضعه على رأسه بين الهتاف والاهازيج •

غادر الركب بريدة فى صباح ١٩١٤/١١/٢٨ ، وكان عدد رجال الامام لا يزيد على خمسمائة فى بداية الأمر ، الا انه كان ينضم اليهم كل يوم حوالى السبعين رجلا من الاماكن التى يمر بها الركب • كنا نسير كل يوم أربع ساعات ، ثم نستريح فى الخيام حتى اليوم التالى • وكنت أنا والسيد طالب نقيم فى خيمة كبيرة معا • وصلنا الزلفى فى ١٩١٤/١٢/٤ واذا بمجموعة من الرسائل تنتظرنا فيها من أصحابنا وأقربائنا فى البصرة ، يخبروننا بدخول الانجليز الى البصرة بعد ان حلت الهزيمة بجيش العثمانيين فى ١٩١٤/١١/١٩ فوقع علينا النبأ وقوع الصاعقة • وكانت الصدمة عنيفة جدا بالنسبة للسيد طالب ، الذى يعلم مدى كره الانجليز له ، واستحالة التحاقه بالعثمانيين ، بعد ان أصبح محققا لديه رغبتهم فى التخلص منه بالرغم من المساعدات الجمة التى قدمها اليهم مؤخرا •

وفى الحال اجتمع أصحابنا فى خيمتنا للمداولة فى التطورات الجديدة • ثم دخل الامام أيضا وتلى علينا الرسائل التى وردت اليه من البصرة بهذا الشأن ، وأبان عقم المحاولة التى نحن مزمعون القيام بها بعد هزيمة الجيش العثمانى • لذلك اقترح التوقف عن السير ، فسلمنا جميعا برأيه • ثم انتقل

الحديث الى موقف السيد طالب الذى أصبح معضلة عويصة . فأبدى الامام استعداده لأن يولى السيد طالب امارة الاحساء ، فأبى طالب ذلك وشكر الامام على كرمه وعطفه .

وبعد مداولات طويلة قر رأى الاكثرية على أن يستسلم السيد طالب للانجليز ، بشرط أن يوافقوا على ذهابه الى بومبى ، ويضمنوا له حرية العيش والتنقل فيها ، ريثما تضع الحرب أوزارها فيعود حينذاك الى بلده .

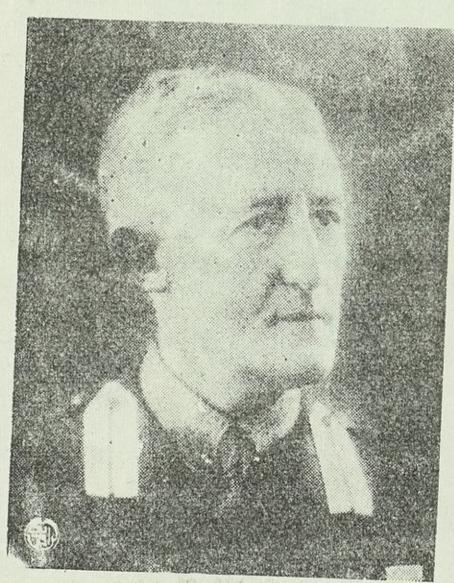
حرر الامام كتابا الى السر برسى كوكس يعرض فيه هذه المقترحات ، وكتب السيد طالب رسالة الى كوكس أيضا بهذا الشأن . بقى اختيار من يقوم بمهمة حمل الرسالتين الى كوكس ومفاوضته واقناعه ، فاقترح الامام أن أقوم أنا بهذه المهمة ، ونال اقتراحه ترحيبا من طالب وبقية الحاضرين ، فوافقت عن طيب خاطر . وفى الحال أمر ابن السعود بتهيئة لوازم القافلة الصغيرة المؤلفة مني ومن ثلاثة من البدو ، أحدهم شمرى وثانيهم مطيرى وثالثهم من العجمان ، وهم ينتمون الى القبائل الثلاث الرئيسية التى تقطن فى الطريق بين الزلفى والبصرة .

تحركت القافلة مساء ذلك اليوم فى طريق (الباطن) المعروف ، وكنت أطوي الليل والنهار فى السير ذلولى النشيطة ، وكان جل طعامى من المعلبات التى زودنى بها الامام . ولما أوشكنا على اجتياز موقع « الرقعى » القريب من الكويت ، هاجمتنا كوكبة من الفرسان الشمريين لا يقل عددهم عن ثمانين ، فاضطررنا الى التسليم ؛ وأبقونى فى الأسر ظنا منهم بأننى السيد طالب . وكان علىّ أن أحاول الافلات من هذا الأسر بأى وسيلة كانت لكى أصل البصرة قبل فوات الأوان . ولما كان مثل هذا الغزو منتظرا فى مسالك الصحراء ، فقد احتطت للامر بأن أوصيت رفاقى الثلاثة باخفاء شخصيتى الحقيقية ، متظاهرا بأنى ضابط عثمانى أرسل الى نجد لغرض التقريب فى وجهات النظر بين الامام وابن الرشيد وحثهم على توقيع الهدنة . فانطلت الحيلة على الشمريين ، وتكفلوا باطلاق سراحى حالا ان أنا أقسمت ألا

أخبرن أحدا من السابلة بأمر ذلك الكمين ، فأقسمت وأستأنفت السير بأقصى سرعة ، حتى وصلت الزبير فى مساء ١٩١٤/١٢/٨ · نزلت فى ضيافة الشيخ خالد والشيخ عذبى آل صباح ، وأرسلت كتابا الى أحمد الصانع أستفسر منه عن وجود محذور من دخولى البصرة بالنسبة للسلطات البريطانية ، فأجاب بالنفى ، فدخلت المدينة ليلا ·

طالب فى الأسر

فى صباح ١٩١٤/١٢/٩ قابلت السر برسى كوكس ، وقدمت اليه كتابى الامام والسيد طالب ، وأنكرت القصد الحقيقى من ذهابنا الى نجد ، مدعيا بأن سفرنا الى هناك كان فرارا من الترك ، ورويت له خبر الكتاب السري الذى أرسله جاويد باشا الى صبحى بك حول اغتيال السيد طالب · ولشد ما عجبت اذ أخرج كوكس الكتاب المذكور بالذات وقال ، مؤمنا على قولى ، بأن رجاله عثروا عليه فى حقيبة صبحى بك عند وقوعه فى الأسر قرب القورنة ·



السر برسى كوكس

أطرق كوكس مليا بعد هذا الحديث ، ثم طلب الي أن أوافيه فى صباح اليوم التالى · فلما ذهبت أخبرنى بموافقته على الاقتراح ، وسلمنى كتابا الى الامام وآخر الى السيد طالب ، ووعدنى وعدا قاطعا بأن طالبا سوف يلقى من السلطات المسؤولة فى بومبى غاية الاكرام · ثم زودنى بجوازات سفر له ولولديه وبعض خدمه ، واختار الباخرة التى تغادر الكويت فى ١٩١٥/١/٩ واسطة لسفرهم ·

أرسلت الكتابين مع كافة المعلومات الى نجد بيد ساع خاص ، ولبثت فى البصرة حتى يوم ١٩١٥/١/٦ ، أى قبل موعد سفر سيد طالب الى الهند بثلاثة أيام . حينئذ ذهبت الى الكويت لتوديعه ، فلما وصلتها وجدته قد بلغها قبلى بسويعات فقط .

وجدت طالباً فى هذا اللقاء غير طالب الذى عهدته من قبل ، فقد كانت معنوياته منهارة ، وقد ساورته الهموم وأنتابته الوساوس ، فاختفت تلك القوة الكامنة وراء نظراته ، وتضاءلت تلك الصلابة المتناهية فى شخصيته . فرثيت فى سرى لحاله ، وعصف بي الالم ، وتمنيت لو استطعت التسرية عنه . ثم ناولنى كتاباً من ابن السعود هذا نصه :—

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل فيصل الى جناب الاكرم الأمجد الافخم حضرة الاخ المكرم سليمان فيضى المحترم دامت معاليه امين .

بعد أهداء مزيد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام والسؤال عن تلك الذات البهية والاخلاق الرضية . ان سألتم عنا فله مزيد الشكر طيبين ولروابط المحبة والصداقة مراعين . أحوالنا جميلة تسركم من كافة الوجوه . أخذنا كتبكم الكرام سرنا سلامتكم وبما ذكرتم صار لدى المحب معلوم خصوصا عما أبديتموه شاكرين همتكم ولا زلتم موفقين . ومن خصوص أحوالنا وجميع مافى الخاطر حضرة محب الجميع الأخ السيد طالب بك يبلغكم به شفاها أن شاء الله .

وهذا ما لزم بيانه نرجو دوام مودتكم واتصال أخبار سلامتكم والسلام على من يعز عليكم ومنا الاخوان والاولاد يسلمون والسلام .

فى ١٥ صفر سنة ١٣٣٣ هـ
عبدالعزيز بن عبدالرحمن السعود

حان يوم سفر السيد طالب ، فأرسل الي كتابا مفتوحا معنونا الى أخيه السيد يوسف النقيب فى البصرة يوصيه فيه بأن يعطينى احدى عرباته مع خيلها • فلما قرأت الكتاب رحت أجول فى أنحاء القصر باحثا عنه ، فوجدته متكئا على سياج الشرفة ينظر الى البحر ، وقد علت وجهه سحابة من الكآبة ؛ فبادرته قائلا بأن اهداءه العربة الي ليس الا مظهرا من مظاهر الكلفة التى كانت قد رفعت بيننا منذ زمن بعيد • لذا اقترحت عليه أن يهديها الى غيري من أصدقائه • فأجابني قائلا :

أخي سليمان ، والله لا أدري كيف أكافئك على اخلاصك لي وحبك ولكن •••

فلأشكرنك ما حييت وان أمت فلتشكرنك أعظمي في قبرها

وما ان أكمل هذا البيت الا وسالت الدموع من عينيه • فتأثرت لمنظره تأثرا شديدا •• ذلك الرجل الحديدي الذي دوّخ الدولة العثمانية واستهان بسلطانها وصرع قادتها •• انه الآن يبكي فى انتظار الباخرة التي تقله الى منفاه • فقبلته وقلت له :

لا تيأس من رحمة الله ، ان الله يدبر الأمور •

ثم ناولته جوازات السفر له ، ولولديه نجم الدين وتوفيق ، وللطاهى والخادم •

وصلت الباخرة بعد الظهر ، فصعد اليها طالب وصحبه ، وأبحرت بهم ميممة شطر بومبي • وقفت على ساحل البحر أرقبها وهي تختفي عن الانظار وقد حملت على ظهرها أعز أصدقائي وعضيدي فى الكفاح ، فوجدتني وسط فراغ هائل لا يمكن سده ، واستسلمت لحزن عميق وألم ممض • وفى صباح

اليوم التالي قفلت راجعا الى البصرة ، بعد أن قبلت هدية الشيخ مبارك ، وهي عبارة عن عباءة فاخرة .

أخذت كتابا من طالب ينبئني بوصوله بومبي واقامته فيها . ثم جاء الكتاب الثاني يقول فيه ان الانجليز نقلوه من بومبي الى قرية تسمى (بانكالور) ، ويرجو مني أن أذكر السر كوكس بالعهدالذي قطعه لي فيالأمس القريب .

راجعت كوكس وأطلعته على الكتاب ، فأجاب بأنه كان صادقا فى وعده ، الا ان حكومة الهند لم توافق على بقاء طالب فى بومبى ، وانه ليس فى استطاعته ارغامها على ذلك ، فبعثت الى السيد طالب بجواب كوكس .

علمت بعد ذلك أنه بعد مغادرتي نجد وصلها الكابتن شكسبير ، وقابل الامام فى (الخفية) قرب (المجمعة) ومن ثم أقام عنده . فلما حدثت المناوشات بين ابن السعود وبين سعود الرشيد فى ١٩١٥/١/٢٤ التى حضرها الامام بنفسه مستصحبا معه الكابتن شكسبير ، لقي هذا الاخير حتفه فى المعركة ، فتأثر الامام تأثرا بالغا لمقتل صديقه .

البصرة فى عهد الاحتلال الانجليزى

أدى انتقال الحكم من أيدى العثمانيين الى الانجليز الى حدوث تبدلات جوهرية فى حياة الناس ، وفى القيم الاجتماعية والسياسية للافراد ؛ أو بالاحرى ان الاحتلال الانجليزى للبصرة كان بمثابة انقلاب حاسم فى مختلف نواحى الحياة فيها . فحين عدت الى المدينة كان الكثير من أوصافها قد تغير ، فبرزت الى الميدان طبقة جديدة من التجار والمتعهدين والوجهاء ، بالغت فى الترحيب بالمحتلين الجدد ، وربطت مصالحها بمصالحهم . بينما ناوأ المستعمر اولئك الذين أعرضوا عن التمرغ على أعتابه ، وربأوا بأنفسهم من التهالك على نيل مرضاته .

أغلق الانجليز المحاكم المدنية فى البصرة ، فاضطررت الى امتهان مهنة أخرى غير المحاماة ، وأسست محلا تجاريا للاستيراد والتصدير فى البصرة ، ثم وسعته ونقلته الى العشار التى أكسبها الاحتلال أهمية تجارية عظيمة .

وقد ظننت بادىء الامر ان اشتغالي فى الامور التجارية سوف يبعدني عن جو السياسة ، ويوفر عليّ الاتعاب التى قد تنجم عن الاحتكاك بالسلطات الحاكمة . ولكن الأمر فى الحقيقة لم يكن كذلك ، فان الجواسيس الذين بثهم الانجليز فى أنحاء المدينة كانوا يهددون السكان الآمنين بوشاياتهم وتقاريرهم، وكان العقاب الذى يلحق بالضحايا الابرياء هو النفي الى الهند ، حتى جاوز عدد المنفيين من أهالى البصرة المئات . وكنت أرى ان الجو بيني وبين الانجليز آخذ بالتلبد . عدت يوما الى داري فوجدت بطاقة زيارة باسم الاستاذ محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار المصرية ، وقد كتب على ظهرها ما يأتي :-

ان محب الدين الخطيب وعبدالعزيز العتيقى قد توجها الى البصرة بمهمة سياسية فأرجو أن تروج مهمتهما .

أسرعت الى محل اقامتهما فعلمت أن البوليس قد أوقفهما ، فذهبت الى الموقف وعبثا حاولت مكالمتهما هناك . وبعد أيام علمت ان الانجليز أعادوهما الى مصر مخفورين . وحدثت بعد ذلك بعض الحوادث التى كشفت عن غطرسة الانجليز ، واعتدادهم بأنفسهم ، ونظرتهم الى الشعوب الخاضعة لحكمهم ، مما جعلني أسرف فى الابتعـاد عنهم . ومن جملة تلك الحوادث ان المستر بولارد ، الذى كان قنصلا لبريطانية فى البصرة فى عهد العثمانيين ، والذى كان يعتز بصداقتى الشخصية حتى اننا كنا نتبادل الزيارات فى المناسبات والاعياد ، أقول انه أصبح بعد الاحتلال مديرا للمالية فى البصرة . وصادف اني رغبت فى استئجار أرض تعـود للوقف لوضع بعض البضائع عليهـا ، فاتفقت واياه - بصفته مديرا للمالية - أن نخرج للكشف عليها لتقدير ايجارها . فحضر لديّ فى الموعد المعين ، ولم تكن عربتي قد حضرت بعد ، فاقترح أن نستأجر عربة توفيرا للوقت ، فوافقت ، وصعد هو قبلي فجلس على مقعدها الخلفي وأشار اليّ بالجلوس على المقعد الصغير أمامه . فاشمأزت نفسى من هـذه العجرفة

الطارئة ، وقلت له بلهجة قاسية : اذهب أنت بهذه العربة وسوف اوافيك الى هناك بعربتي الخاصة .

فلما حضرت عربتي ذهبت بها ، فوجدته ينتظرني ، واستقرض مني روبية دفعها لسائق العربة . وبعد ان كشف على الارض عدنا بعربتي ، فلما أوصلته الى دائرته قلت له :ـ لا تتعب نفسك بتقدير هذه الارض فلست أرغب فى استئجارها بعد اليوم . قلت هذا وانصرفت بعربتى مسرعا . وفى صباح اليوم التالى وردني كتاب اعتذار وشكر على الروبية !..

وفى تلك الفترة كنت مواظبا على مراسلة السيد طالب فى منفاه . وكانت رسائله تصلنى بصورة منتظمة مرة كل اسبوع ، كما ان رسائله الى عائلته كان يرسلها بواسطتى . وفى ذات يوم أرسل الى أحمد الصانع كتابا يشكو فيه الوحدة ، ويتمنى لو ان أحمد الصانع يستطيع اقناعي أو اقناع عبدالله صائب للذهاب الى الهند والاقامة معه وتسليته فى منفاه ، وكان عبدالله صائب فى ذلك الحين قد غادر البصرة سرا الى بغداد ، ليجد فيها عملا يكسب منه بعد أن سد الانجليز أبواب الرزق . ولكنه بمجرد وصوله الى بغداد القى الاتراك القبض عليه ، وأودعوه السجن مكبلا بالقيود ، بتهمة صداقته للسيد طالب وفوزه بنيابة البصرة خلافا لرغبة الحكومة الاتحادية .

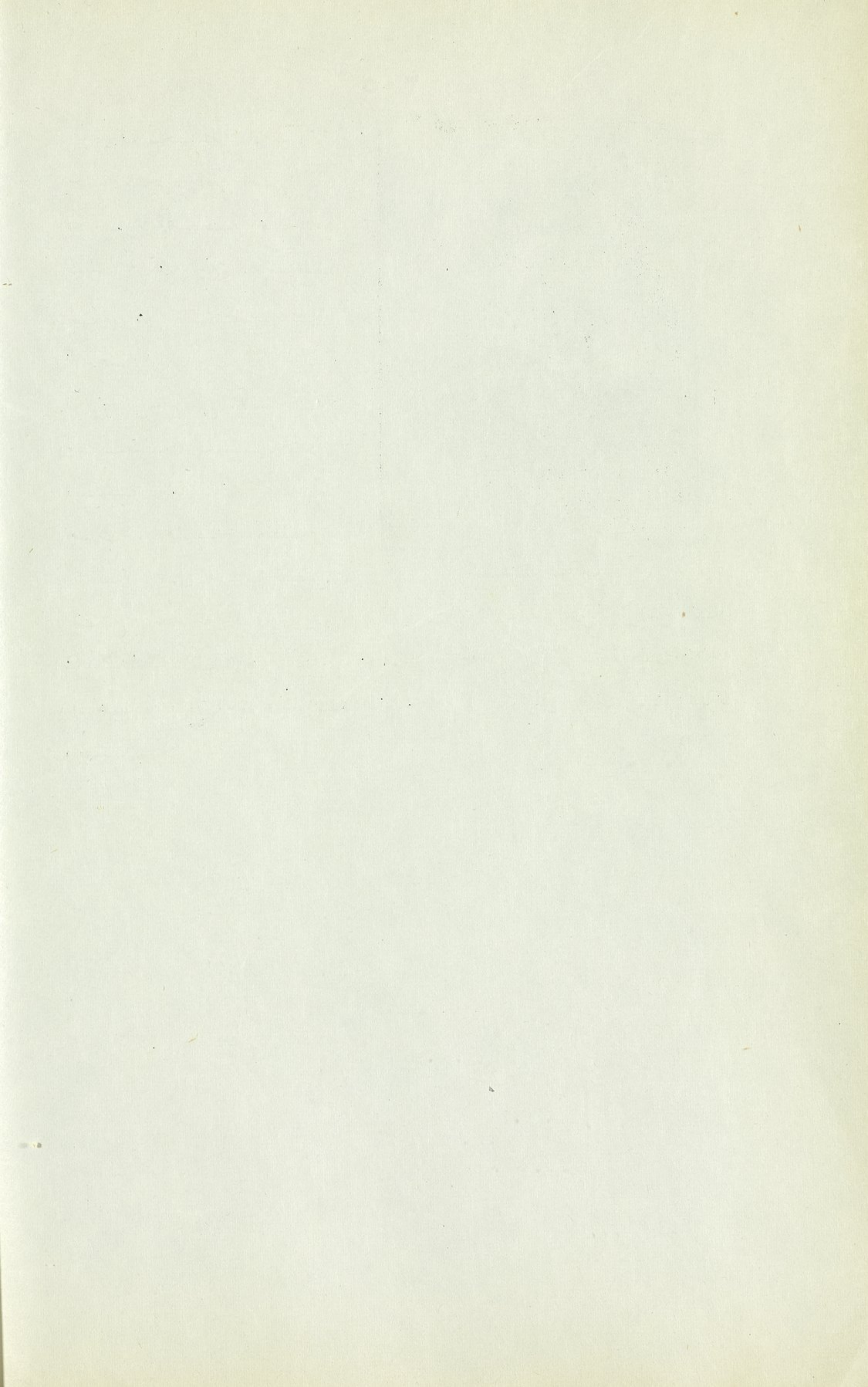
فلما اطلعني أحمد الصانع على الكتاب الآنف الذكر آلمتني اللهجة الحزينة التى عبّر فيها طالب عن تعاسته وشقائه فى منفاه . فأخبرت أحمد باشا باستعدادى للذهاب الى بانكالور ، حالما توافق السلطات الانجليزية على ذلك ، تاركا ورائي زوجتي وأطفالى ، ومودعا تجارتى بيد عمى الحاج طه .

فما كان من أحمد باشا ، ازاء هذا الاخلاص المتناهي والتضحية العظيمة ، الا ابداء اكباره واعجابه الشديد بوفائي . قدمت فى الحال طلبا الى كوكس لاخذ موافقته ، فأجاب هذا بكتاب مؤرخ فى ١٠/٣/١٩١٥ بالرفض رفضا باتا .



عبدالله صائب

وهنا يتحتم عليَّ أن أسرد الخاتمة المحزنة التى انتهى اليها المرحوم الشهيد عبدالله صائب . فانه حين أوشكت بغداد على السقوط بيد الانجليز ، صدرت الأوامر الى الجيش التركى بالانسحاب ، مستصحبا المسجونين السياسيين ومن بينهم عبدالله صائب ، فاقتيدوا مكبلين بالسلاسل وراء الجيش المنهزم . حتى اذا صاروا الى الجسر العائم فوق دجلة أطلق الحراس النار على عبدالله صائب فأردوه قتيلا ، وألقوا بجثته فى النهر . فلحقت روحه الطاهرة بأرواح اخوانه الشهداء الاحرار تشكو الى بارئها ظلم الترك وبطشهم .



لورنس في العراق

الكابتن لورنس فى البصرة(١)

فى الساعة التاسعة من صباح الجمعة ٧ نيسان ١٩١٦ ، بينما كنت جالسا فى مكتبي التجاري دخل عليّ رجلان أحدهما المدعو الياس يلدا من أهالى البصرة ، وثانيهما شاب مصرى لم أعرف اسمه ، وقدما اليّ الكتاب التالى :ـ

البصرة ٧ أبريل ١٩١٦

لحضرة الأكرم الافخم سليمان فيضي أفندي المحترم

أسعد الله أوقاتكم . بعده أرجوكم تشرفون الى محلي اليوم نومرة ٦ درب الاعوج فى العشار لاجل المواجهة ودمتم .

دائرة الاخبار العسكرية

C.C. More, Capt.
General Staff, Intelligence.

والكابتن مور هذا كان قبل عهد الاحتلال قنصلا لبريطانيا فى الكويت ، ولم تكن لي به معرفة سابقة . فلا غرو أن يثير كتابه هذا مخاوفي في زمن كان الرجال يساقون فيه الى السجون والمنافي سوق الاغنام الى المجازر .

طلبت من الرجلين أن ينصرفا اولا ثم الحق بهما ، فأبيا وأخبراني بأنهما أمرا بأحضاري حالا الى دائرة الاستخبارات . فأوجست خيفة وتعوذت بالله . ثم استمهلتهما لحظة ، وأخرجت ما كان فى صندوقى الحديدي من أوراق نقدية ، وأسررت الى كاتبي بكتمان الخبر ريثما أعود ؟ فاذا لم أعد فى المساء فليعتبرنى موقوفا ، وليخبر أهلي وأصحابى ليرسلوا الي فراشى والبستى .

خرجت مع الرسولين فأخذنا عربة ، ولحظت أنهما كانا يكلماني بلطف وتأدب ، ثم أخبرانى بأن الكابتن مور أوصاهما بوجوب معاملتى بكل تجلة

---

(١) نشر هذا الفصل فى ثمانية أعداد من جريدة « صوت العراق » لسان حال حزب النهضة . وذلك فى الاعداد ٥٥ و٥٦ و٥٧ و٥٨ و٥٩ و٦٠ و٦١ و٦٢ وتأريخ ١٠ و١١ و١٢ و١٣ و١٤ و١٥ و١٧ و١٨ تشرين ثانى سنة ١٩٢٩ .

واحترام ، فتذكرت الاحترام والتودد الذى لقيته من الماجور كريكس مدير الشرطة ، ورغبته فى تناول الشاي فى ضيافتي فى نفس اليوم الذي أجرى فيه تفتيش داري • فأيقنت أن توصية الكابتن مور لا شك مقدمة لنفيي أو سجني • وطفقت أفترض الفروض السيئة فيما لو أرسلت الى المنفى ، وتوقفت أعمالي التجارية ، وتبعثرت أموالي ، وما سوف يحل بعائلتي من نكبات ••• الخ بينما كانت العربة تدلف الى الزقاق القذر الذي أسماه الكابتن درب الاعوج •

توقفت العربة أمام بناء قديم ، فترجلت وزميلاي ودخلنا الدار ، فطلبا مني الانتظار برهة فى فنائها ريثما يشعران الكابتن بحضورى • وما أسرع ما خرج هذا فاستقبلني بالترحاب ، ثم أدخلني الغرفة •

كانت الغرفة فسيحة ، صفت فى جانب منها بضعة كراسى حول طاولة صغيرة ، ووضعت فى الجانب الآخر منضدة الكابتن مور • وكان واقفا بجوار الطاولة ضابط آخر بهي الطلعة برتبة كابتن ، يحلي كتفيه بشارات الاركان القرمزية ، افتر ثغره عن ابتسامة عريضة غير متكلفة • قدمني الكابتن مور اليه ثم قدمه الي قائلا :ـ أقدم اليك الكابتن لورنس الذى طلب تنظيم هذه المقابلة الخاصة والتى أعتقد انها على جانب من الخطورة والاهمية •

فتقدم لورنس وصافحنى مصافحة تنم عن صداقة أكيدة خالصة ، وراح يرحب بي ويعبر عن اشتياقه الشديد للتعرف بي ، وتلهفه لهذه المقابلة ، كل ذلك بلهجة مصرية متقنة تكاد لا تدرك اللكنة الاجنبية فيها الا بعد لأى •

أما أنا فقد زايلني الكابوس الذى استولى على مشاعري فى الطريق الى هذا المكان ، وبدأت الطمأنينة تتسرب الى نفسي تدريجا •

جلسنا نحن الثلاثة حول الطاولة ، ورحت أرشف القهوة التي قدمها لورنس الي ، واسترسل هو فى التودد الي وأكثر من السؤال عن صحتي واشغالى وراحتي ؛ وكان بين حين وآخر يعتذر عن ازعاجه اياي بهذه المقابلة •

وكنت أجيب على أسئلته باقتضاب وحذر ، بينما رحت أحث الفكر عن سبب معقول لهذا التودد • اذ لم يكن من الجائز أن يبدي ضابط فى جيش محتل ضروب المجاملة والملق لمواطن من بلد مستضعف • وكنت أخشى أن يكون قد حدث فى الامر التباس ، وان المقصود بهذه الدعوة رجل سواى ، أو لعل هذا الضابط قد التقى بي يوما وجمعتنا صحبة عابرة فأراد أن يجددها ويحييها لأمر فى نفسه ••• ولكن أين التقينا ومتى ؟ لست أذكر ، أو لعلني أكاد أجزم ان شيئا من هذا لم يقع البتة • ولما ضاق صدري ، بادرت بتوجيه بعض الاسئلة اليه ، لعلها تلقي على الغموض ضوء ؟ فسألته عن كيفية تعلمه اللغة العربية واتقانه لها ، فأجاب قائلا :ـ اني ربيت فى بلاد العرب واني أحب العرب كثيرا •



لورنس

وباشارة من لورنس غادر الكابتن مور الغرفة وأغلق خلفه الباب ، فبقينا نحن الاثنين وحدنا •

لم تكن الثورة العربيه فى الحجاز قد نشبت حتى ذلك الحين ، ولم اكن أعلم من أمر لورنس شيئا ، فقد كانت أعماله واتصالاته فى الحجاز والجزيرة العربية تحاط بالكتمان قبل نشوب الثورة • أما الشهرة التى اكتسبها لورنس ، وأخباره العجيبة ، ومغامراته الجريئة ، فقد ذاعت بعد الثورة المذكورة فى ١٠ حزيران عام ١٩١٦ ، أي بعد مقابلتي له بشهرين •

وبعد انفرادنا فى الغرفة جرت بيننا المحادثة التالية ، أسوقها الى القاريء الكريم بأمانة ، واذا كانت السطور الآتية تختلف عن حديثنا فى شيء فانما فى الالفاظ وليس فى المعانى . ورغبة مني فى الاختصار فسوف أرمز الى لورنس بالحرف « ل » والى اسمى بالحرف « س » :

ل ـ اني وصلت البصرة هـذا الصباح قادما من مصر لغرض الاتصال بك شخصيا ، لذلك طلبت حضورك الى هنا حال وصولي .

س ـ أشكرك ، وأرجو أن تسامحني اذا سألتك عما اذا كان أحدنا قد تشرف بمقابلة الآخر قبـل اليـوم .

ل ـ كلا ، لم يسبق ان تعرف أحدنا على الآخر ، ولكنني أعرفك جيـدا ، أو بالاحرى أعرف عنك الشيء الكثير ، خاصة عن أعمالك .

س ـ كيف ولماذا عرفتني ؟ ثم ما الذي تعنيه بأعمالي ؟ .

ل ـ أعني أعمالك السياسية . قلت اني أعلم كل شيء عنك فأرجو أن تخبرني بالحقيقة كاملة . حدثني عن جمعية العهد وعن مدى قوتها .

س ـ لا توجد جمعية بهذا الاسم ولا بغيره ، كما واني لم أسمع عن وجود أية جمعية فى البصرة منـذ الاحتلال .

ل ـ أرجو أن لا تخف عني شيئا .

س ـ تأكد انه لم يبق لتلك الجمعية أو لغيرها أثر فى عهد الاحتلال ، كمـا وانني شخصيا نفضت يدي من كل موضوع يمت الى السياسة بصلة ، وقد حصرت جل همي فى اشغالى التجارية وأمورى الخاصة .

ل ـ ألم تكن قبل الحرب نائبا معارضا للاتحاديين فى مجلس النواب العثمانى ؟

س ـ نعم كنت .

ل ـ ألم تكن منتسبا الى حزب اللامركزية وجمعية العهد ؟ .

س ـ نعم كان ذلك قبل الحرب أما الآن ..

ل – ألم تعمل على بث الفكرة القومية العربية فى العراق لا سيما فى الموصل ؟

س – نعم هـذا صحيح .

ل – أخالك لا تزال حذرا مني ، فلكي أزيل هذا الحذر أبلغك تحيات بعض أصدقائك ، الذين طالما أثنوا على كفاحك فى سبيل القضية العربية ، وأطروا جهادك فى مضمار القومية ، مما حدا بي الى مقابلتك والاعتماد عليك لانجاز مهمتي الخطيرة . اما أولئك الاصدقاء فهم عزيز علي ، والسيد رشيد رضا ، ورفيـق العظم ، وحقى العظم ، وحسن خالد الصيادى .

س – أشكرك على ثقتك بي ، كما أشكرهم على حسن ظنهم وجميل ثنائهم . اني فى الحقيقة لم أقم بعمل يستحق الذكر .

ل – هذا تواضع . على كل فاني أرجو أن تكون الآن فى غاية الاطمئنان ، وأن لا تخش بأسا . اني أثق بك وأصدق كل ما تقوله ، فأخبرنى عن جمعياتكم وعن مدى قوتها . انك تعلم اننا أعداء الترك ، وزيادة على ذلك فاني أعاهدك على كتمان المعلومات السرية التى سوف تدلني بها الي .

س – تأكد انه لا توجد الآن فى البصرة آية جمعية . وكل ما ذكرته كان قبل الحرب .

ل – ما هو مدى اتصالك بعزيز علي ؟

س – لم يسبق ان قابلته ، وانما تجمعني واياه رابطة المبدأ . عرفته قبل أن يعرفنى لصيته الذائع . أما هو فقد عرفني يوم سجن فى الاستانة وحكم عليه بالموت ؛ فكان فريق من أصحابه ، وبعض أقربائه ، ولفيف من أعضاء جمعية العهد والضباط العرب يجتمعون فى دارى بالاستانة لتدبير أمر نجاته ، حتى يسر الله امر خروجه من السجن وسفره الى مصر .

ل – كيف ومتى عرفت السيد رشيد رضا ورفيق العظم وحقى العظم وحسن خالد ؟

س ـ تعرفت بالسيد رشيد رضا حين زار البصرة قبل خمس سنين ، ثم التقينا مرارا فى مصر • أما الآخرون فقد تعرفت عليهم أثناء زيارتي لمصر فى الطريق الى الاستانة • هذا علاوة على الاتصال الكتابي والمراسلة المستمرة التى كانت بيني ، بصفتي سكرتيرا للجمعية الاصلاحية ولحزب الائتلاف ، وبينهم بصفتهم أقطاب الفكرة العربية •

ل ـ ما هي علاقتك بياسين الهاشمي ؟

س ـ اني أعرفه مذ كنا طلابا فى المدرسة ، ثم توثقت صداقتنا عندما ذهبت الى الموصل عام ١٩١٢ لغرض تأسيس جمعية اصلاحية فيها ، ولبث الفكرة القومية العربية بين أبنائها • وكان ياسين فى ذلك الوقت قائدا لحامية الموصل ، وكان هو الآخر متحمسا للفكرة ، فكان يعينني فى مهمتي ويسهل لي الاجتماع بالضباط العرب سرا •

ل ـ أتدري أين هو الآن ؟

س ـ كلا •

ل ـ انه فى أدرنة قائدا لحاميتها • وقد أرسلته الحكومة الاتحادية الى هناك بعد أن افتضح أمر انتمائه الى جمعية العهد •

س ـ لم أكن أعلم ذلك •

ل ـ أتعرف نوري الشعلان ؟

س ـ كلا •

ل ـ ماذا تعلم عن محمد النجيفي من أهالي الموصل ؟

س ـ أعرفه • فهو من وجهاء الموصل •

ل ـ انه اتحادى أليس كذلك ؟

س ـ حينما كنت فى الموصل علمت انه اتحادى ، كذلك كان الكثيرون غيره •

ل ـ هل تربطك بالامير عبدالعزيز السعود معرفة أو صداقة ؟

س – عرفته شخصيا منذ سفرتى الى نجد بصحبة السيد طالب النقيب • لقد نزلنا فى ضيافته ولقيت منه محبة وتوددا ، حتى انه فاتحنى أكثر من مرة طالبا بقائي فى خدمة امارته ، فاعتذرت •

ل – هل تعرف الشريف حسين شريف مكة ؟

س – نعم قابلته مرتين أو ثلاثة فى مكة سنه ١٩١٠ أثناء وجودي فيها لاداء فريضة الحـج •

ل – هل تعرف أحـدا من أولاده ؟

س – تعرفت على الشريف فيصل نائب جدة فى مجلس النواب العثمانى حين كنت نائبا عن البصرة • ورأيت الشريف عبدالله فى مكة والاستانة دون أن يحصل بيننا تعـارف •

ل – أتدري أين الشريف فيصل الآن ؟

س – كـلا •

ل – انه الآن فى الشـام •

س – ليس لي علم بكل ما يجرى فى البلاد العثمانية ، بسبب انقطاع البريد بين البصرة وبين الاقطار العربيـة التى لا تزال فى قبضة الاتراك •

ل – من تعرف من أهل سـوريا ؟

س – لي أصدقاء كثيرون هناك مثل محمد كرد علي واخوانه ، وشـكيب أرسلان ، وفوزى العظم ، وشكرى العسلى ، وعادل أرسلان ، وبديع المؤيد ، وعبدالحميد الزهراوى ، وسليم الجزائرى ، وفارس الخورى ، ومحمد بيهم ، وسلام علي سلام ، واحمد طبارة ، والشـيخ عباس الازهرى ، وبشير القصار ، وعبدالغنى العريسى ، وطه المدور ، وعمر حمد ، وعبدالكريم قاسم الخليل ، وغيرهم •

ل – هل تعرف عبدالرحمن باشـا اليوسـف ؟

س – نعم .

ل – كيف ترى وضع الضباط العرب فى الجيش العثمانى الآن ؟

س – أعتقد ان أكثرهم غير مرتاح من الترك .

ل – هل تعلم السبب الذى حدا بي الى القدوم الى البصرة ومقابلتك ؟

س – لا أبدا .

ل – غاية جليلة جدا ، فيها استقلال بلادك وسعادة العرب فى مختلف أقطارهم ، وفيها تقدمك معنويا واستفادتك ماديا اذا عاضدتنى وأنجزت المهمة التى سوف أعهد اليك القيام بها .

س – ياحبذا سعادة البلاد واستقلالها . ولكن كيف يتسنى لي أن أعاضدك وأنا فرد . وما هو هذا العضد الذي ترتجيه مني يا ترى ؟

ضرب على الوتر الحساس

وهناك اعتدل لورنس فى جلسته ، وأطرق قليلا كمن يستجمع شتات فكره ليصوغ عبارات الحديث الخطير الذى سوف يدلي به ، ثم تابع حديثه قائلا :–

ل – اني شغوف بحب العرب ، مفتون بسجاياهم ، حريص على كل ما ينفعهم . وقد سنحت لي الفرصة الآن لتحقيق أمنيتي بتقديم خدمة عظيمة اليهم ، وخاصة العراقيين منهم ، بأن أعمل على انالتهم استقلالهم .

انها يا سيدى فرصة ذهبية ، ذلك ان أكثرية الشعب الانجليزى لا ترتاح الى استعمار بلاد جديدة بعيدة عن الجزر البريطانية ، وهذه الاكثرية الشعبية تسند حزب الاكثرية فى البرلمان . فمن الواضح اذن ان لا تفكر الحكومة البريطانية فى استعمار البلدان التى سوف تصبح تحت الاحتلال البريطانى بعد الحرب ، وهى بدون شك عازمة على افساح المجال للشعوب العربية كي تتمتع باستقلالها وتنال حقوقها ، بشرط ان

يساهم العرب أنفسهم فى الحصول على ذلك الاستقلال ، وان يبرهنوا على رغبتهم فيه .

وهناك على ما أعتقد وسيلة واحدة لتحقيق ذلك ، ألا وهي الثورة ؛ فاذا أعلن العرب الثورة على الاتراك وحاربوهم بجانب الجيوش البريطانية فسيكون لهم الاستقلال والحرية . أما اذا قبعوا فى دورهم ، آملين أن تمنحهم بريطانيا الاستقلال بعد نصرها ، فذلك أمر غير معقول ، خاصة وان بريطانيا مسؤولة أمام حلفائها عن تصرفاتها تجاه الشعوب الخاضعة للحكم العثمانى . اذن فلا بد من الثورة لتنال البلاد العربية استقلالها . وقد فوضتنى الحكومة البريطانية لاشعال تلك الثورة وبذل ما يلزم لها من المال والسلاح وغير ذلك ، كما خولتنى حق اتخاذ جميع الوسائل والطرق التى تكفل نجاحها . واني قد اخترتك لتقوم بمهمة اذكاء نار الثورة ، بعد الذى علمته عنك من رجال القضية العربية البارزين فى مصر . فان أقدمت فانك واجد كل ما تحتاج اليه من وسائل هذه الثورة ، فسأضع تحت تصرفك البنك بكل أمواله ، وسيمدك الجيش بما تشاء من السلاح . فهيا الى العمل فى سبيل القضية العربية وفى سبيل استقلال بلادك وحرية قومك .

س ـ انك غير موفق على ما أظن فى اختيارك اياي للقيام بمثل هذا العمل الجبار . فأنا رجل متحضر لا تعضدني عشيرة ، وأنا متوسط الحال ليس لي نفوذ الاثرياء وسطوة الاقطاعيين . انك بحاجة الى رجل ذي نفوذ عظيم وشهرة واسعة بين الناس ، وأنا لست بهذا ولا ذاك . أضف الى هذا شعور العداء الذى يكنه العراقيون لبريطانيا بعد الذى لمسوه من معاملة سيئة وازدراء مشين على أيدى رجالها العسكريين .

ل ـ ربما كنت أنت الواهم ياسيدى فيما ذهبت اليه ، فليس النفوذ والثروة هما كل شيء فى الموضوع ، وسيكون المال الذى وعدتك به كفيل بسد احتياجك وعامل على جذب الجمهور اليك . أما النفوذ الذى ذكرته

فليس أهون من تدبير أمره ؟ ذلك بأن تنصب لك خياما عديدة فى جهة من البصرة ، وتلحق بخدمتك عددا كبيرا من الحرس والخدم والتابعين ، وتهيء الزاد للوافدين والضيوف ، وتجزل الهدايا وتمنح العطايا للانصار والمؤيدين • حينئذ سيقبل عليك الناس أفواجا أفواجا ، ويلتف حولك الاعراب ، فتصبح رئيسا مطاعا وسيدا لجيش كبير • أما ما ذكرته من كره الشعب العراقى للانجليز فليس بذي بال ، وهو شعور موقت سيزول حتما فى مدة وجيزة •

س ـ ان خطتك قد تنجح على شرط ان يقوم بها رجل آخر ، ولعل السيد طالب باشا النقيب يستطيع أن ينجز هذه المهمة على الوجه الاكمل ، فلماذا لا تفاوضه فى منفاه بالهند •

ل ـ ان الحكومة تفضل بقاء السيد طالب فى الهند • فأرجو أن تعتمد على نفسك وأن تثق بمقدرتك ، واعلم ان للاخلاص والمقدرة أهمية أعظم بكثير من النفوذ والمال •

س ـ لقد أبنت رأيي صراحة بأنني لا أستطيع القيام بهذا الامر ، فابحث عن غيرى ، ولك مني الارشاد • اذهب الى أحمد باشا الصانع وفاوضه لعله يقبل ، فهو ذو كلمة مسموعة فى البصرة وذو علاقة متينة بعشائر المنتفك •

ل ـ ان المقدرة والعلم يؤهلان المرء القيام بأخطر المهام • فأرجو أن توافق على قيامك شخصيا بهذا الواجب المقدس دون أن ترشدني الى أحد سواك •

س ـ قد يكون للمقدرة والعلم المقام الاول فى تقدم الرجال عندكم ، أما هنا فالناس يلتفون حول ذوي الالقاب وأصحاب الجاه العريض والغنى الفاحش •

ل ـ دعنا من الجدل ، واقدم على الامر اقدام الواثق من الفوز ، ولك من المال الذى أضعه تحت تصرفك عونا وأي عون •

س – لا يخفاك اني أمارس التجارة في الوقت الحاضر ، ولي مع سائر أنحاء الهند والخليج علاقات تجارية واسعة . أفلا تتصور مقدار الاضرار التي سوف تلحق بي وبعملائي لو اني أقدمت على هذا العمل .

ل – تفضل وقدّر الاضرار التي تتصور انها ستلحق بك ، فأدفعها لك شيكا على البنك حالا .. كعربون . ان الثروة التي تنتظرك لو أقدمت على العمل لعظيمة جدا ، وما أرباح التجارة بالنسبة اليها الا كقطرة في بحر .

س – هب اني نلت ثروة عظيمة . أفلا تظن ان الترك سوف ينتقمون من أبي وأخوتي وأقربائي في الموصل ، وربما أصاب السوء أصدقائي ومعارفي فيهـا أيضا . ان الترك لا يغفرون لي مثل هذا العمل ، ولا أهلي الذين سيذهبون ضحية اقدامي عليه .

ل – ان من يطلب الاستقلال لبلاده ، والمجد لشعبه ولنفسه ، يهون عليه حتى مقتـل أبنـائه في سـبيل ذلك .

الصراحة أجـدى ...

وهنا اعتدلت في جلستي ، وعـزمت على أن أصارحه بوجهـة نظري الحقيقية :ـ

س – أريد الآن أن أصارحك بالحقيقة كاملة ، اذا ضمنت لي السلامة وكتمان الحديث .

ل – اني أرجو أن تصرّح بكل ما يجول في خاطرك ، ولك عهـد بكتمان السر .

س – اني شخصيا لست أرى مبررا الى الانتقام من الترك ، اذ ليس بيننا وبينهم عداء ، وانما العداء مستحكم بينهم وبينكم فحسب .

ل – عجيب ما تقول . أليس الترك أعداءكم ؟ ألم يستعبدوكم القرون الطوال ؟ ألم تحاربوهم بالسنتكم وأقلامكم ؟ أما انتظمتم في جمعيات سرية وتآمرتم على حكمهم ووددتم لو أخرجتموهم من دياركم ؟

س – لا تعجب مما قلت . فالترك لم يستعبدونا بالمعنى الصحيح ، لقـد كان

العربى والتركى سواسية أمام القانون ، وكانت أبواب الوظائف الحكومية ومراتب الجيش مفتوحة للجميع ، فبأمكان التركى أن يرقى فى المناصب حتى يصبح واليا أو وزيرا ، كذلك العربى ان هو أثبت أهلية وجدارة ؛ ولم يكن بين الموظفين فى البلاد العربية غير القليل من الاتراك ، أما الاكثرية فقد كانت من أبناء البلاد . أما نضالنا فى السر والعلن ضد الحكومة العثمانية فكان فى نطاق الشؤون الداخلية ، ولغرض الحصول على بعض الحقوق المشروعة التى كانت الحكومة قد أنكرتها على الشعوب العربية ، وللمطالبة بالاصلاح الداخلى بعد أن عم الخراب الدولة من أقصاها الى أقصاها . فكفاحنا والحالة هذه كان أشبه باختلاف حصل بين ورثة ، كل يطالب بحصة أكبر . واني أستطيع أن ألخص نقاط الخلاف الرئيسية بين الترك والعرب فى : عدم عنايتهم بالمعارف فى البلاد العربية ، واستعمالهم اللغة التركية فى المحاكم والدواوين الرسمية ، واستغلالهم موارد الاوقاف فى بلادنا لاصلاح الاستانة ، وفى بعض الامور الثانوية الاخرى . فلو ان الترك تساهلوا فى تحقيق هذه المطاليب لزال الخلاف بيننا وبينهم . وانه لو لم تفاجئنا الحرب لكانت البلاد العربية قد نالت أكثر مطاليبها بدون اللجوء الى القوة . فمثلا ان الحكومة الاتحادية يوم شعرت بانتوائي فضح سياستها فى الاحساء استرضتني باتخاذ اللغة العربية لغة رسمية فى محاكم العراق وذلك قبل نشوب الحرب العالمية بأشهر .

ل ـ اذن أنت تحب الترك مع انهم لو ظفروا بك لاعدموك .

س ـ تأكد اني لا أحبهم مطلقا ، بل وأنقم عليهم أكثر من ذي قبل بسبب اشتراكهم فى الحرب وجرهم المصائب والويلات على بلادنا .

ل ـ انك لو علمت ما صنع الترك بأخوانك السوريين لما ترددت فى الانتقام منهم . ومهما يكن من أمر فأنتم يا معشر العرب ترزحون تحت نير الحكم العثمانى ، ولا بد لكم من تدبير حل لنيل حريتكم واستقلالكم .

واستطرد لورنس يقول بلهجة مشجعة :

لا تستصعبن الاقدام على العمل ، فانه هين ونجاحه مضمون ، واذا شئت فباستطاعتي أن أجلب الى صفك من تعتمد عليهم من الضباط العرب العاملين فى القضية العربية ، وان أحداً منهم لن يتقاعس عن الانخراط فى ثورتك لو دعوته الى ذلك . أكتب اليهم وأنا أتعهد بايصال كتبك . وثمة طريقة أخرى تمهد أمامك السبل لغزو جبهات العدو : المال ... ابعث الى القائد الفلاني (وهنا ذكر اسمه) بصرة من الذهب فيغمض عينيه قليلا ، حين تكون قواتك مندفعة صوب خطوطه ..

س — أما القائد فلا أعرفه ، وأما الضباط فلن يصدقوا ما يجيء بكتبي ، ظناً منهم بأنني كتبتها مكرها ، وان هي الا مكيدة انجليزية .

ل — ما رأيك لو ختمت الرسائل بختم الجمعية الاصلاحية الذى بحوزتي الآن . هل ياترى يبقى لديهم أدنى شك فى صحة الرسائل ؟ . ثم هناك الاصطلاحات السرية والاشارات الخاصة بالجمعية ، الجأ اليها ليطمئنوا الى كتبك .

س — لو أسلمنا جدلا بأنهم آمنوا بدعوتي ، فقدموا الي واشتركوا معي فى الثورة ، فمن ذا الذى يضمن مستقبلهم ، ويصون حقوقهم ، ويعيد اليهم مناصبهم التى ضحوا بها من أجل الثورة .

ل — اذا شئت فاني أقدم اليك تعهدا رسميا ، وبموجب هذا التعهد تستطيع ان تعدهم بضمان مستقبلهم ومستقبل البلاد .

س — هب انني اختلفت مع الانجليز ، فماذا تفيدني العهود ؟ . غدا سوف يقولون لي : اذهب الى لورنس فهو الذى تعهد لك .

ل — اني اتعهد باسم الحكومة البريطانية ، وزيادة فى تطمينك ، فسيوقع عليها السير برسى كوكس ممثل حكومة جلالة الملك .

س — لو فرضنا ان حكومتكم تنصلت من وعودها ، فماذا عساني أفعل بتلك الوريقة التى تحمل توقيع ممثلها ؟ وأي سلطة أراجع كي أرغم الامبراطورية البريطانية على تنفيذ أحكام التعهد ؟

ل ـ انك سيء الظن فى شرف الحكومة البريطانية وفى صدق عهودها ..
ثق ان حكومتى اذا قطعت على نفسها عهدا وفت به .. ثم لا تنسى ان
العمل الذى عهدت به اليك انما هو لمنفعتكم ليس الا . ولست أغالى
اذا قلت ان بريطانيا فى غير حاجة الى معونتكم الحربية .

س ـ لقد اتفقنا فى بدء الحديث أن نتكلم بمنتهى الصراحة ، فدعني أجيبك
هنا بصراحة بأن مفهوم السياسة لدى السياسيين يعني (الغاية تبرر
الواسطة) وان مفهوم الشرف السياسى لديهم يعني (المصلحة الحكومية) ؛
فلا غرابة اذن ان أسأت بكم الظن . لقد أخذت بريطانيا هذه البلاد
بالحرب ، ولا يخفى على أحد ما تتطلبه الحرب من دماء وأموال
وتضحيات ؛ فكيف تريدني اؤمن على قولك بأن بريطانيا ستعيد هذه
البلاد الى أهلها بمجرد انتصارها قائلة لهم :ـ هذه بلادكم خذوها
وأودعناكم !.. أتراها تعمل كل ذلك لأن سليمان ـ مؤشرا الى
نفسى ـ قام على رأس شرذمة ضد الترك !..

ل ـ ثق بأن مصلحتنا تقضى بطرد الترك من هذه البلاد واعطائها الى أهلها ،
وما الثورة التى أريدها الا وسيلة لتحقيق ذلك . لقد قلت ولا أزال
أقول بأن أكثرية الشعب البريطاني لا تريد استعمارا جديدا .

س ـ اذا كان الامر كما تقول ، فهذه مصر أمامنا ، وقد مضى عليها سنون وهى
تناضل فى سبيل استقلالها ، فلماذا تبخلون عليها به ؟

ل ـ ثق ياسيدى بأن مصر سوف تنال استقلالها قريبا ، وان الحكومة البريطانية
عازمة على ذلك .

س ـ حقق الله ذلك . والآن كيف توفق بين رغبة الشعب البريطانى فى نبذ
الاستعمار وبين الوضع الحالى فى الهند والمستعمرات المجاورة لها .

ل ـ بقاء الانجليز فى الهند أمر ضروري . فالشعب الهندى لا يمكنه الاتفاق
على حكم واحد أو على تنصيب ملك واحد . فى الهند مذاهب متنافرة

وراجات متنافسون • وفى اليوم الذى تتوحد فيه كلمة الهند ستتركها بريطانيا بدون تماهل •

س – قد تكون هذه الفكرة حديثة التخمر فى أذهان الساسة الانجليز ، أما عقلى فمتردد فى تصديقها ••

ل – دعنا من الهند ، ولنعد الى بحثنا الاصلى • فهمت انه يوجد بين الاسرى هنا بعض الضباط العرب ، فهل تعرفهم ؟

س – أعرف ثلاثة منهم وهم أصحابي : مولـود مخلص ، وعلي جـودت ، وعبدالله الدليمي •

ل – اذاً فقد سهلت المهمة • اذا أقنعتهم فسيكونون فى مقدمة العاملين معك •

س – أعتقد انهم لا يوافقون •

ل – أرجو منك أن تقابلهم الآن وتقنعهم ، ثم تعود الي فى الساعة الخامسة فى دار القيادة العامة فتبشرنى بموافقتك على البدء فى المشروع الخطير •

س – تأكد ان رأيي لن يتغير قط ، وليس بوسعى القيام بهذا العمل ولا بغيره ، كما اني معتقد بعدم موافقة الضباط المومى اليهم على مؤازرتي •

ل – اني لا أقبل لك عذرا أبدا • واني واثق من شهامتك واخلاصك لبلادك ، ومن رغبتك الاكيدة فى سعادة قومك • فاترك الاصرار جانبا واغتنم هذه الفرصة الثمينة •

س – أما طوعا فجوابي الرفض ، وأما اذا أردت الاكراه ، فربما فضلت النفي أو الحبس •

ل – لا يمكن أن يتحقق شيء بدون الرضى والعقيدة ، ولن أسلك معك سبل الاكراه • أرجو الآن أن تذهب الى أصحابك الاسرى ثم تعود مساء لمقابلتي • أرجوك •• أرجوك ، وألح فى الرجاء •

س – سوف أعود لمقابلتك فأخشى أن يعترضنى الحراس •

ل ـ هاك توصية مني • ثم تناول قصاصة من الورق وكتب عليها بقلم رصاص ما معناه :ـ

«يرجى السماح لحاملها بمقابلة الكابتن لورنس في دائرة الاستخبارات في مركز القيادة العامة •

تي • أي • لورنس كبتن جي • اس»

وبعد أن أخذت منه الورقة خرجت ، فودعني الى خارج الغرفة ، وأكد لي ضرورة مقابلته في المساء •

كانت الساعة قد جاوزت الثانية عشرة حين وجدت نفسي حرا طليقا في طريقي الى مخزني • فتنفست الصعداء ، ولكنه لم يكن صعداء بالمعنى الصحيح • فالعرض الذي عرضه علي لورنس أقلق بالي وشغل فكري ، وهو وان لم يبدر منه أي تهديد أو وعيد ، الا انني كنت أخشى أن يلجأ اليهما آخر الأمر اذا طال اصراري واشتد عنادي • وجدت كاتبي في قلق واضطراب ، ففرح بعودتي سالما ، وأرسلته بطلب عمي • وتوجهت توا الى الدار التي يقيم فيها الضباط الأسرى الثلاث ، ورويت لهم الحديث بأكمله ، فلقيت منهم تصويبا لي واستحسانا لاجاباتي • وجلسنا نتداول في الامر ، حتى أزف وقت المقابلة الثانية ، فخرجت من بينهم في الساعة الخامسة والدقيقة الاربعين قاصدا دار القيادة العامة •

خيبة أمل •••

سمح لي الحراس بالدخول ، ورافقني أحدهم الى قاعة فسيحة يتصدرها الكابتن مور مدير الاستخبارات الذي مر ذكره في مقابلة الصباح • فاستقبلني هاشا ، وأجلسني بجانبه ريثما يحضر الكابتن لورنس • وانكب هو على أوراقه ومنضدته ، بينما رحت أرقب الحركة الدائبة في القاعة الفسيحة • كان هناك عدد كبير من الكتبة والموظفين بين عسكري ومدني رائحين غادين ، وعدد آخر من الجواسيس الاهلين يدخلون ويخرجون ؛ فمنهم من يسر الى أحد الضباط

بكلمة لا شك انها وشاية ببريء ؟ والآخر يناول ضابطا آخرا مظروفا مختوما لا يعدو ان يكون افتراء على مسكين غافل . وهناك باب كنت أرى خلالها بعض الرجال المخفورين ، جيء بهم للتحقيق بناء على وشايات الجواسيس وتقاريرهم . وكنت قلقا في مجلسي ، خوف أن يظن بي هؤلاء الظنون ، فيتصورون اني من عملاء الانجليز يجلسونني في الصدارة .

وفي الساعة السادسة دخل الكابتن لورنس فحياني ، ثم قبض على يدى بكل لطف وأصعدني الى الطابق الاعلى من الدار ، حيث اخذنا مكانينا في غرفة هادئة ، ودار بيننا الحديث التالي :ـ

ل ـ لا شك انك جئت تحمل الي البشرى بالقبول .

س ـ كلا ، مع الأسف ، فاني لا زلت عند رأيي السابق .

ل ـ لماذا ؟ هل قابلت أصحابك الضباط ؟

س ـ نعم قابلتهم فاستصوبوا رأيي .

ل ـ أعتقد انك لو كنت مقتنعا لما عارضوك . انهم يوافقون حتما متى رأوا فيك اقداماً على العمل واطمأنوا الى ثقتك بنجاحه .

س ـ اسمح لي أن أجمل لك رأيي النهائي . اني لا اوافق مهما حاولت ، فلا تزعجن نفسك باعادة الجدل .

ل ـ يظهر انك صعب المراس ، وان اقناعك لا يتم بجلسات قصيرة ، وحيث اني قد عزمت على السفر الى جبهة القتال في علي الغربي هذه الليلة ، فأرجو ان تقبل دعوتي لك بالسفر معي ، كي يكون لنا متسع من الوقت لتمحيص الموضوع ودراسته . ولن تستغرق سفرتنا أكثر من ثلاثة أيام .

س ـ لو تكلمنا أسابيع فلن أتخلى عن موقفي . فلماذا لا تدعني أعود الى داري حرا طليقا ؟ .

ل ـ ماذا يضيرك لو رافقتني الى ساحة الحرب •

س ـ كثيرا جدا ياسيدى • فذهابى بصحبتك سيحمل الناس على الاعتقاد بأننى جاسوس وفى هذا الكفاية لتحطيم سمعتي •

ل ـ لا أرى فى ذلك ما يخل بسمعتك • أما اذا كنت تعني الاضرار المادية التى تلحق بك من جراء غيابك عن البصرة فهذا ما أستطيع أن أعوضك عنه أضعافا •

س ـ المال لا يصلح سمعة المرء • ثق بأن دخولي الى دار القيادة اليوم جعل مني فى نظر بعضهم جاسوسا أو عميلا ، فكيف بي اذا ذهبت الى جبهة القتال •

ل ـ الأولى أن ترسل بطلب فراش لك فتسير الى علي الغربى فورا ، ولا تلتفت الى ما يقوله الناس •

وهنا أجبت متضايقا :

س ـ اذا أرسلت بطلب فراشى بنيّة السفر فليس الى علي الغربى ، بل الى معسكرات الاسرى فى الهند •

فأجاب لورنس مهدئا ، وكأنه شعر بتضايقى من الحاحه :

ل ـ معاذ الله أن اكرهك على ذلك • اذاً اسمح لي أن أودعك الآن آملا ان اراك عند عودتى •

س ـ أرجو لك السلامة ، ولا تنتظرن أن تلقى تبدلا فى معتقداتى عند عودتك •

وهنا نهض كلانا ، فودعني الى باب القيادة ، وكان الظلام قد اشتد ، فطلبت منه أن يزودنى بكتاب خشية أن يعترضني الحراس ، اذ كان التجول آنذاك محظورا على الاهلين بعد الغروب بساعة ونصف • فتناول ورقة موقعة من الكابتن مور وناولها الي ، ثم ودعته وانصرفت بعربتى الى البيت •

لم أعلم بعد ذلك متى عاد لورنس من علي الغربى ، ولماذا أحجم عن مقابلتى ، ولكني سمعت بعد مدة طويلة أنه أصبح العقل المدبر للثورة العربية فى الحجاز . وقد بلغنى من الضباط العراقيين المشتركين فى تلك الثورة انه صرح مرارا بأنه سعى حثيثا لايقاد الثورة فى البصرة فلم يفلح . كما بلغني ان السير جلبرت كلايتن الذى أصبح فيما بعد مندوباً سامياً لبريطانيا فى العراق والذى توفى مؤخرا ، كان قد كلّف عزيز علي المصرى بالقدوم الى العراق واشعال الثورة فيه ، وذلك بعد نشوب ثورة الحجاز ، غير انه رفض .

هذا حديث ولا كالأحاديث . مرّ عليه أكثر من ثلاثين عاما دون أن يفقد من أهميته قليلا أو كثيرا . هذا حديث طالما استعدته كلما خلوت الى نفسي ، فأقول لها : أتراني جنيت على البلاد يوم رفضت دعوة لورنس فحرمتها سعادة أكيدة واستقلالا هنيئا ؟ أم ترى انني حقنت دماء بريئة ووفرت جهودا كادت تذهب أدراج الرياح ؟ . أتراني تجنيت على بريطانيا وعلى صدقها بعهودها ؟ أم اننى كنت فى حكمى عليها من العادلين .

وأنت أيها القلب ماذا دهاك حتى نفرت من دعوة لورنس قبل أن ينبذها العقل الممحص ؟ . أكنت تعلم ما يدور فى الخفاء ؟ أكنت تشعر بأن وراء الستار مكيدة تدبر ، ومعاهدة لاقتسام الغنائم تبرم ؟ وما هى تلك الغنائم أيها القلب المرهف ؟ أهى بلاد المغلوبين فى الحرب من هضاب الاناضول وسهول الراين ووادى الدانوب ؟ أم ترى انها بلاد المساكين ، الذين أبى عليهم الدهر الا آن يرزحوا تحت نير العبودية وأن يذوقوا لوعة الحرمان ومرارة الاستعباد ؟

لقد أجاب القلب قبل ثلث قرن .. وأجاب التاريخ اليوم .. فما رأيت بين الجوابين كبير اختلاف .

على هامش الثورة العربية الكبرى

معـاهدة سايكس بيكو

فى الوقت الذى كان فيه الثوار العرب يستعدون لخوض معركة الحرية والاستقلال ، وفرسانهم يعدون العدة للانقضاض على قلاع الجيش العثمانى ، دارت فى القـاهرة مفاوضات سرية بين المسيو جورج بيكو المنـدوب السامى الفرنسى والسر مارك سايكس المندوب السامى البريطانى ،لوضع الاسس التى بموجبها تقتسم كل من انكلترا وفرنسا البلدان العربية بعد كسبهما الحرب !.. وقد تم فى مايو ١٩١٦ التوقيع على بنـود الاتفاقية الاثنى عشر ، والتى نورد ادناه الثلاثة الاولى المهمة منها :ـ

المادة الاولى ـ ان فرنسا وبريطانيا العظمى مستعدتان لان تعترفا وتحميا دولة عربية مستقلة أو حلف دول عربيـة تحت رئاسـة رئيس عربى فى المنطقتين (أ) داخلية سوريا (ب) داخلية العراق . ويكون لفرنسا فى منطقة (أ) ولانكلترا فى منطقـة (ب) حق الاولوية فى المشروعات والقروض المحلية ، وتنفرد فرنسا فى منطقـة (أ) وانكلترا فى منطقة (ب) بتقـديم المستشارين والموظفين الاجانب بناء على طلب الحـكومة العربيـة أو حلف الحكومات العربيـة .

المادة الثانية ـ يباح لفرنسا فى المنطقة الزرقاء (شقة سوريا الساحلية) ولانكلترا فى المنطقة الحمراء (شقة العراق الساحلية من بغداد حتى خليج فارس) انشاء ما ترغبان فيه من شكل الحكم مباشرة أو بالواسطة أو من المراقبة بعد الاتفاق مع الحكومة أو حلف الحكومات العربية .

المادة الثالثة ـ تنشأ ادارة دولية فى المنطقة السمراء (فلسـطين) يعين شكلها بعد استشارة روسيا وبالاتفاق مع بقية الحلفاء وممثلى شريف مكة .

جمـال السـفاح وأحـرار العـرب

أرسلت الحكومة العثمانية أثر اعلانها الحرب جمال باشا ، وزير الحربية اذ ذاك ، الى سوريا قائدا عام لجيوشها وخولته صلاحيات واسـعة . وكان الاحرار السوريون قد تكتلوا لمناصرة الدولة العثمانية فى ظروفها العسيرة ،

وتناسوا الاحقاد التى كانت بينهم وبين الحكومة • ولما أنسوا من جمال باشا رغبته فى الدفاع عن البلاد ضد الغزو الاجنبى ، التفوا حوله وعرضوا عليه خدماتهم ، فاظهر لهم مودته وتقديره بادىء الامر ، ثم ما لبث بعد بضعة أيام ان القى القبض عليهم وساقهم الى الديوان العرفى ، فحكم على صفوتهم بالاعدام شنقا ، وعلى بعضهم بالسجن والنفى وبتشريد عوائلهم •

وفى يوم مكفهر من أيام النضال القومى الخالدة صعدت الى بارئها أرواح شهدائنا من أجسادهم الطاهرة ؛ فاشهد اللهم اننا نبجل أسماءهم ونقدس ذكراهم ؛ وآشهد اللهم اننا ببطولتهم مقرّون ولبأسهم خاشعون • واعلم أيها العربى ان السعادة ، ان رفرفت يوما بأجنحتها عليك ، فهى هبة تقدمها اليك أرواح الشهداء الخالدة ؛ واعلم انك مدين بالكثير مما تنعم به اليوم ، ومما سينعم به أبناؤك وأحفادك ، الى وطنية الشهداء وتضحيتهم • فانقش على قلبك أسماءهم بأحرف من نور ، وترحّم عليهم فى صلواتك ودعواتك ، وخلّد ذكراهم ما عشت وما عاش أبناؤك من بعدك •

أما الشهداء فهم :-

عبدالحميد الزهراوى ، شفيق المؤيد ، شكرى العسلى ، عبدالغنى العريسى ، سيف‌الدين الخطيب ، محمود المحمصانى ، محمد المحمصانى ، صالح حيدر ، عبدالوهاب الانكليزى ، رفيق رزق سلوم ، عمر حمد ، عارف الشهابى ، عبدالكريم القاسم الخليل ، الشيخ أحمد طبارة ، أمير عمر ، علي الارمنازى ، حافظ السعيد ، ألبير حمصى ، محمود العجم ، نايف تللو ، محمد مسلم عابدين ، سعيد الكرمى ، سليم الاحمد العبدالهادى ، سليم الجزائرى ، أمين لطفى ، عبدالقادر الخرسا ، رشدى الشمعة ، محمد الشنطى ، جورجى حداد ، سعيد عقل ، بترو بالى ، بيطر علي ، نورى القاضى ، توفيق البساط ، جلال البخارى •

ولم يسلم حتى بعض الاحرار العراقيين من شر جمال السفاح ، فقد أمر بجلب أحمد عزت الاعظمى ، ويوسف السويدى ، وعاصم الجلبى ، وابراهيم

حلمى العمر ، الى بيروت وأحالهم الى الديوان العرفى ، الا انه حكم ببراءتهم ، فأطلق سراحهم بعد أن ذاقوا عذاب السجن .

الشريف حسين وفكرة الثورة

أثارت مذابح جمال السفاح فى سوريا حفائظ العرب وحفزتهم على الثورة . وكان وقعها سيئا فى نفس الشريف حسين ، فقد تأثر لتلك الانباء المحزنة أيما تأثر وعزم على اعلان الثورة على العثمانيين فى أقرب فرصة . وكان يحول بينه وبين اعلان الثورة ، عدم توفر المال والسلاح لديه ، ووجود الامير فيصل فى الشام تحت رحمة العثمانيين . لذلك كاتب الانجليز سرا ، وعرض عليهم الحلف على أن يمدوه بالمال والسلاح ، وأن يطلقوا سراح الاسرى من الضباط العرب لينضموا الى صفوف الثوار .

وقد استمرت تلك المفاوضات الكتابية أمدا ، وانتهت بابرام اتفاقية وقعها الشريف حسين من جهة ، والسر مكماهون المعتمد البريطانى فى مصر من جهة ثانية ، والتى كان أهم بنودها :ـ

(١) تتعهد بريطانيا بتشكيل حكومة عربية مستقلة استقلالا تاما فى الداخل والخارج يحدها خليج فارس شرقا ، والبحر الاحمر وقناة السويس والبحر الابيض غربا ، وحدود ولاية حلب وولاية الموصل شمالا ، والبحر العربى جنوبا ، ما عدا مستعمرة عدن الخاضعة للحكم البريطانى . وتتعهد أيضا برعاية المعاهدات والاتفاقيات التى سبق ان عقدتها بريطانيا مع أي فرد داخل هذه الدولة العربية ، أميرا كان أو فردا اعتياديا .

(٢) تتعهد بريطانيا بالمحافظة على هذه الدولة ، وصيانتها من أى تدخل خارجى أو اعتداء على سلامة حدودها البرية والبحرية .

(٣) تبقى البصرة تحت الاحتلال البريطانى حتى تتم تشكيلات الحكومة العربية الجديدة .

(٤) تتعهد بريطانيا بتزويد ربيبتها الحكومة العربية الجديدة بالاسلحة والذخائر والاموال اثناء الحرب ، وبتزويدها بالمال اللازم بعد انتهاء الحرب لانعاشها ريثما تستقر الاوضاع الاقتصادية فيها .

وفى الوقت الذى جرت فيه المكاتبات بين الفريقين كانت الاسلحة والذخائر والذهب الانجليزى تتدفق على الحجاز من مرافىء سرية ، فتوزع على القبائل الحجازية بتكتم شديد .

وبحيلة بارعة تمكن الشريف حسين من استدعاء الامير فيصل من الشام بموافقة جمال باشا . ذلك ان الامير عبدالله على رأس فريق من القبائل تظاهر بمعاضدة الجيش العثمانى المرابط فى المدينة ، مما كان له وقع حسن لدى جمال باشا ، فسمح لاخيه الامير فيصل بمغادرة الشام والتوجه الى الحجاز لمساعدة أخيه . وهكذا توفر المال والسلاح ، ونجى الامير فيصل من قبضة الترك ، وتم التوقيع على الاتفاقية مع بريطانيا لتشكيل الحكومة العربية المستقلة ؛ فلم يبق ما يؤخر اعلان الثورة .

وفى فجر التاسع من شعبان عام ١٣٣٤ هـ الموافق عشرة حزيران عام ١٩١٦ م أطلق الشريف حسين الطلقة الاولى ايذانا ببدء الثورة ، فهاجمت قوات الثوار القلاع العثمانية فقتلت من قتلت وأسرت من أسرت ، ثم نودي بالشريف حسين ملكا على الحجاز . ولا أراني بحاجة الى تفصيل وقائع الثورة العربية الكبرى ، بعد أن أشبعها المؤرخون والبحاث درسا وتمحيصا ، حتى لم تعد أخبارها خافية على أحد .

خداع

كانت المعاهدة التى أبرمت بين الشريف حسين وبين مكماهون خالية من توقيع وزيرخارجية بريطانيا ، فقد تعمدت الحكومة البريطانية عدم التصديق عليها لئلا تتعارض بنودها وبنود اتفاقية سايكس بيكو .

وقد جازت هذه الخدعة على الملك حسين ، الذى سارع باعلان الثورة

بالرغم من الغموض الذى جاء فى أكثر بنود الاتفاقية ، وكان فى ذلك مدفوعا بحسن النيـة وطيب القـلب .

وجاء يوم فرغت فيه بريطانيا من مشاغل الحرب ، وشربت كأس النصر مترعة ، فهلل العرب للاستقلال الموعود ، وذهب الامير فيصل الى الحكومة البريطانية يعرض عليها المعاهدة المقدسة ، ويذكرها بوعودها المعسولة ، فما أغرب ان لقي منها انكارا وتجاهلا ... أنكر وزير خارجيتها أن يكون له علم بالمعـاهدة أو ببنودها ..

وهكذا خان الحليف حليفه بطرفة عين ، وأستبد القوي بالضعيف ، بعد أن أفاد منه فى سـاعة محنته . أما العهـود ، وأما المواثيق فأكسير تمنى به الشعوب المخذولة دون أن تذوق له طعمـا .

رضى بعـد صد

كان من نتيجة رفضي التعاون مع لورنس أن تبلورت الفكرة عني لدى الانجليز بأني أميل الى العثمانيين ، مما حدا بهم الى مراقبتي والتحذر مني . وفى تشرين الاول عام ١٩١٥ أصبت بالحمى التيفوئيدية ، وأثرت فى صحتي تأثيرا سيئا ، فنصحني الاطباء بالسفر الى كراجي ، حيث المناخ الجاف ، لقضاء دور النقاهة فيها . وزودونى لاجل ذلك بتقرير رسمى قدمته الى السلطات ، فمنحتني هذه جوازا بالسفر ، وفعلا سافرت على ظهر الباخرة « دراكا » فى ١٩١٦/١/١٠ .

وكان لي فى كراجى أصدقاء كثيرون من الأسـر الكويتية المعروفة بتجارتها ، خاصة وان لي فى ميناء كراجى سبع سفن محملة بالتمور بانتظار التصريف على يد اولئك الاصدقاء . فسرهم ان يعلموا بسـفرى الى كراجى ولبثوا ينتظرون قدومي .

وصلت الباخرة الى الميناء ، فتوقفت قليلا لتسلم رزم البريد وتجرى بعض المعاملات الروتينية قبل أن ترسو لتفريغ حمولتها من ركاب وبضائع ، واذا

بمفوض هندى يرافقه ثلاثة من رجال الشرطة يأمرونني بالنزول الى البر . فصدعت بالأمر ، وتوجهنا بزورق بخارى خاص نحو الرصيف ، حيث لقيت ضابطا انجليزيا يقف فى انتظارى ، وعلى مقربة منه بعض أصحابي العرب . فما ان رآني هؤلاء حتى أحاطوا بي للسلام عليّ ، واذا بالضابط يمنعهم من الاقتراب مني ، واقتادني الى غرفة التفتيش ، فأجرى تفتيشا دقيقا على أمتعتي . ولما لم يجد فيها شيئا محظورا أجلسني ، وسمح للمستقبلين بالدخول والسلام عليّ . وظننت وظنوا ان الامر لا يعدو ان يكون اشتباها ، وان الاشتباه قد زال بعد تفتيش الامتعة ، فعرض كل واحد منهم ان أنزل فى ضيافته . ولكن الضابط الانجليزى أبى الا أن أبقى فى ضيافة موقف الميناء ... ريثما تغادر اول باخرة الى البصرة فيعيدنى بها .. ثم تلطف وسمح لهم بأن يتناوبوا على جلب الطعام اليّ ، على شرط أن لا أبادلهم الحديث !..

خرج أصحابي مكتئبين ، فبادرته بالسؤال عن معنى هذه المعاملة الغريبة ، فأجاب :ـ ان برقية وردت من البصرة تأمر بوجوب تحرى أمتعتك وابقائك فى كراجى تحت مراقبة البوليس . ثم جاءت برقية أخرى قبل وصول الباخرة بيوم ، مفادها انك قادم الى كراجى بمهمة سياسية ، وهى تحريض المسلمين على التنكر للانجليز ومساعدة العثمانيين . لذلك وجب منعك من الاختلاط بالناس ، وتوقيفك واعادتك الى البصرة مخفورا فى أول باخرة .

قضيت فى الموقف أربعة أيام برعاية الكابتن (دن) الذى أحسن معاملتي ، وأبدى معي بعض اللطف . وكان أصحابى يواظبون على تزويدى بوجبات الطعام . وأخيرا حان موعد سفر الباخرة الى البصرة فأركبت فيها ، يرافقنى مفوض يهودى .

وصلنا البصرة فى مساء يوم ١٩١٦/١/٢٤ ، فأقتادنى البوليس فورا الى الموقف ، فلبثت فيه ثلاثة أيام ، ثم أطلق سراحى بكفالة نقدية قدرها ستة آلاف روبية من قبل ثلاثة اشخاص معروفين ، تعهدوا بعدم تجاوزى حدود قصبتى البصرة والعشار .

رضيت بهذا السجن الكبير ، وقنعت بهذا القدر من الحرية ، وتلقيت نبأ الخسارة المادية الجسيمة التى أصابت تمورى ، بعد أن تنصل أصدقائى من مهمة تصريفها فى اسواق كراجى خوفا من السلطة هناك ، والتى أربت على الثلاثين الف روبية ، أقول تلقيت النبأ بصبر ... وفوضت أمري الى الله .

بدأ السأم يتسلل الى نفسى من هذا الحجر ، فقدمت شكواى الى السر برسى كوكس مطالبا برفع الحجر عنى ، أو تقديمى الى محكمة عسكرية أو مدنية لتثبت ادانتى أو براءتى ، اذا كانت هناك تهمة . وبعد أيام على تقديم العريضة دعانى الميجر ميك الحاكم السياسى فى البصرة لمقابلته ، وقال لي :

– أتعلم ان كل ما أصابك على يد الانجليز سببه خطتك السلبية ورفضك التعاون معهم ؟ فلاجل ان تزيل هذا الشك فان السر برسى كوكس يعرض عليك قبول وظيفة أو منصب لقاء توسيع نطاق الحجر .

فأجبته بانى تاجر ولست أرغب فى التوظف ، انما اذا كانت لدى الحكومة بعض المهمات التى ينتفع منها أبناء البلاد فانى أرحب بالقيام بها من دون عوض .

فقال :– ما قولك بعضوية المجلس البلدى ومجلس ادارة الاوقاف ؟
قلت : قبلتهما .

وفى اليوم التالى وردتنى ثلاثة كتب ، اولها أمر بتعييني فى عضوية المجلس البلدى ، والثانى فى مجلس ادارة الوقف ، والثالث رخصه من البوليس بتوسيع نطاق الحجر عليّ ، بحيث يسمح لي بالذهاب الى الزبير ، وابى الخصيب والهارثة .

واظبت على حضور جلسات المجلسين المذكورين حتى صدور أمر تعيينى فى منصب الحاكمية كما سيأتى ذكره . وكان قد بلغ الحاكم السياسى ان بعض المتولين تصرفوا بأملاك الوقف ، فاستملكوا بعضها وتلاعبوا بحدود البعض الآخر . فكلفني باجراء تفتيش عام على أعمال الوقف وتقديم تقرير

ضاف عنها ، ورجا مني قبول مرتب شهري بالنظر لما تتطلبه هـذه المهمة من كشـوف وجهـود ووقت • قبـلت المهمـة ورفضت المرتب ، واشتغلت بالتفتيش بجد ، فكشفت القناع عن التلاعبات ، وقدمت بها تقريرا مسهبا الى الحكومة ، فوجهت الي كتاب شكر وتقدير •

حين لمس الحاكم السياسى مني تحمسا لاعمال البر والخير ، كلفنى بتنظيم جمعية لمساعدة الفقراء • وقد تم تأليف الجمعية المذكـورة ، التى سـميت بـ (جمعية محتاجى المسلمين) ، وانتخبت رئيسا لها • وكانت مهمتها جمع التبرعات الشهرية من الموسرين وتوزيعها بشكل رواتب شهرية على المعوزين •

وبلغ من اطمئنان الحاكم السياسى الي انه اناط بي أمر انتقاء المدرسين للمدارس الاهلية التى أسسها الانجليز فى البصرة •

وفى تلك الفترة عكفت فى أوقات فراغي على جمع الامثـال العربيـة المشهورة ، فلما تجمع لدي عدد كبير منها طبعتها فى كراسة أسميتها « الف كلمة وكلمة » ،وتبرعت بايرادها الى جمعية محتاجى المسلمين المذكورة آنفا •

الزبـير

كان أول ما عملته بعد توسيع نطاق الحجر ان نقلت محل اقامتى الى الزبير ، لجفاف هوائها وملاءمته لصحتى ، اذ كان التحول الذى أصابنى على اثر حمى التيفوئيد لا يزال مستمرا بسبب الرطوبة التى يتصف بها منـاخ البصرة • وكنت بالطبع أزاول أعمالى فى البصرة كالسابق ، مما اقتضى أن آتي اليها فى الصباح الباكر ، وأعود الى دارى فى الزبير عند المساء • وصادف ان كانت المدرسة الاولية التى أسسها الانجليز فى الزبير مجـاورة لدارى ، فكنت أتردد عليها بين آونة وأخرى ، وأشجع تلامذتها على الدراسـة • وقد لاحظت قلة عددهم ، فاتصلت بالآباء أحثهم على ارسال ابنائهم اليها ، ولكن الكثيرين أكدوا أن عزوفهم عن ذلك يعود الى اغفال تدريس الدين والقرآن الكريم فيها ، فرأيت ان الحق بجانبهم ، وخاصة وان الزبيريين يعنون بالأمور الدينية عناية تتناسب ومركز مدينتهم الدينى والتاريخى • لذلك اتصلت بالحاكم

السياسى فى الزبير الكابتن ملك كالم ، وهو ارلندى مثقف محب للعلوم ، وأقنعته بضرورة ادخال درسي الدين والقرآن فى منهاج المدرسة ، وباقامة الصلاة فيها . فاقتنع على شرط أن تدفع ادارة الاوقاف راتب معلم الدرسين المذكورين . وما ان أذن المؤذن للصلاة على سطح المدرسة حتى أقبل الطلاب عليها زرافات ووحدانا ، وكان ذلك بداية عهد جديد للزبير .

عودة الى القضاء

فى أواخر عام ١٩١٥ أسست الحكومة البريطانية أول محكمة مدنية فى البصرة برئاسة الكرنل نوكس ، الذى كان يجيد العربية ، وبعض الحكام البريطانيين . وكانت القوانين المرعية فيها آنذاك هى القوانين الهندية . وقد اختير مزاحم الباجه‌جى مترجما فى المحكمة المذكورة .

وفى ذات يوم أرسل نوكس بطلبي ، واقترح علي العودة الى المحاماة ، فاعتذرت بانهماكي فى الاعمال التجارية أولا ، وبجهلى القوانين الهندية ثانيا . الا انه فى أواخر عام ١٩١٨ فاوضنى الحاكم السياسى فى البصرة لقبول منصب حاكمية البداءة ، برئاسة حاكم بريطانى وعضوية حاكم آخر ، على أن أقوم بتنظيمها وفق الأصول العثمانية . وقال ان الاقتراح المذكور ورد اليه من الحاكم الملكى العام ومن ناظر العدلية فى بغداد . فاستمهلته ثلاثة أيام للتفكير فى الموضوع .

وكانت أعمالى التجارية فى تلك الآونة قد أصابها الخمول بنتيجة انهماكي فى تفتيش الاوقاف ، وجلسات المجلس البلدى ، والجمعيات الخيرية . فلم أر مانعا من قبول الوظيفة ، وأبلغت الحاكم السياسى بالقبول .

تشكلت هيئة المحكمة فى اوائل عام ١٩١٩ من المستر فوربس رئيسا ، ومؤلف الكتاب والميرزا محمد خان بهادر (١) عضوين . والميرزا محمد رجل فاضل أشتهر بسعة اطلاعه فى العلوم وولوعه بالآداب .

---

(١) محمد أحمد المحامى المقيم فى البصرة حاليا .

استمرت أعمالى التجارية كالمعتاد بادارة عمى الحاج طه الموصلى • أما المستر موريس فهو ارلندى حميد الخصال رقيق الجوانب ، وكان هو وزوجه شغوفين بالمعـارف والعـلوم • وفى ذات يوم اقترحنـا عليه ـ الميرزا وعبدالرزاق الحصان والمؤلف ـ تأسيس مكتبة عامة فى البصرة • ووجه هو الدعوة الى بعض اشراف البصرة ، فاجتمعوا فى داره وتبرعوا بالمال والكتب ، حتى تجمع لدينا حوالى الثلاثمائة كتاب ومبلغ لا يستهان به من المال •

استأجرنا دارا ورممناها ونقلنا الكتب اليها ، وبلغ من هوس المسز فوربس بالفكرة ان طلت جدران المكتبة بالصبغ بنفسها • وقبـل أن يتم تنظيم المكتبة زارني فيها الشيخ أحمد الابراهيم وتبرع بألف كتاب • وقد بر بوعده فأرسل ١٢٢٤ كتابا مجلدا تجليدا مصريا نفيسا ، وبينها بعض المصاحف الكريمه ذات القيمة الأثرية ، وبعض المخطوطات التاريخية الفريدة ، والشاهنامة البديعة • ولما جرى افتتاح المكتبة التى سميت بـ « مكتبة التجدد » كان عدد كتبها قد جاوز الثلاثة آلاف وخمسمائة • وأقبل الناس على المطالعة فيها ، وسرى بين روادها نشاط أدبي ، فأقيمت فيها الاجتماعات والقيت المحاضرات والمناظرات • واستمرت كذلك حتى أواخر عام ١٩٢٠ ، ثم هجرت • وقد نقلت كتبها مؤخرا الى مكتبة المعارف الحالية •

رفع البوليس الحجر عني منذ تعييني فى منصب الحاكمية • ولكنه كان دائم التشكك فى تصرفاتي وأقوالى • فحين طبعت كتاب « الف كلمة وكلمة » الذي مر ذكره آنفا ، دعاني الحاكم السياسى للتحقيق معي فى معنى أحـد الامثال الواردة فيه ، فأفهمته مغزاها وبرهنت على حسن نيتي ، حتى اقتنـع واعتذر • ثم دعيت مرة أخرى للاستفهام عن مغزى جملة وردت فى « الرواية الايقاظية » التى كتبتها وطبعتها وتبرعت بأثمانهـا الى مستـشفى الغرباء فى البصرة • فلما دفعت الشك عني اعتذر الحاكم السياسى ثانية عن ذلك التشكك وسـوء الظن •

مرت الايام فى لين وراحة ، نظرا لمزايا المستر فوربس ودماثة خلقه ،

حتى صدر الأمر بتعيينه رئيسا لمحكمة الاستئناف فى بغـداد ، خلفا للكرنل نوكس ، فغادر البصرة مأسوفا على فراقه ، وعين الميجر كلبرت خلفا له .

أما كلبرت هذا فكان ، على النقيض من سلفه ، بذيئا سيء الادب قليل المعرفة ؛ لذا كثرت بيننا وبينه المشاحنات ، خاصة عندما كان يستهتر بالقوانين ولا يلتزم بنصوصها وأحكامها .

وفى منتصف عام ١٩١٩ عين زميلي الميرزا محمد حاكما سياسيا فى كربلاء ، فسافر اليها وتركني فى وضع لا أحسد عليه مع الرئيس المجنون . وبخلو مكانه عينت نظارة العدلية السيد عبدالمجيد خلفا له ، وكان هـذا على جانب كبير من الفضل ودماثة الخلق ، ولكن الرئيس أبى التعاون معه ، ومنعه من حضور جلسات المحكمة ، واستبدل به شابا هنديا اسمه المستر ميتد كان يعمل كمعاون حاكم سابقا . فعمل هذا فى المحكمة كأسير فضل للرئيس ، وأيده فى قراراته المجحفة .

بلغ التوتر بيني وبين الرئيس أشده ، ولم أعد أستطيع العمل معه ، فقدمت استقالتى فى أيلول ١٩١٩ . ووردنى الرد من المستر فوربس برفض استقالتى وبطلب التريث .

وفى ١٩١٩/١٠/١٦ وردنى كتاب من ناظر العدلية يقضي بترفيعي الى عضوية محكمة استئناف العراق التى تنظر فى قضايا الاستئناف والتمييز ، براتب قدره الف روبية على أن التحق بوظيفتى فى ١٩١٩/١١/١ .

انتقلت على أثر ذلك التعيين الى بغداد مع اسرتى ، وسرنى أن يكون زميلى فى المحكمة داود سمرة الذى عرف بتضلعه فى القانون وبخلقه القويم .

ثلاثة اعوام في بغداد

ثلاثة أعوام فى بغـــداد

١٩٢٠ ـ ١٩٢١ ـ ١٩٢٢

جرت خلال تلك الاعوام الثلاثة حوادث تعد من أخطر ما جرى فى تاريخ العراق الحديث • ثلاثة أعوام حافلة بجسام الأمور ، كانت فيها بغداد تغلى كالمرجل وكأنها على أبواب الثورة ، وكانت الطـاقة الوطنية فى تزايد مستمر تهدد بالانفجار بين لحظة وأخرى • لا حديث للقوم آنذاك الا ما يدور حول وضع العراق ومستقبله ، حول الملكية والجمهورية ، حول الاستقلال والاستعمار ، وحول الكفاح فى سبيل حرية البـلاد •

لم يشعر العراقيون بحاجتهم الى التآزر والوحدة كما شعروا فى تلك الايام ، ولم ينشطوا فى ميدان الوطنية كما نشطوا آنذاك • لم تخفهم سياط الاستعمار التى سلطها الانجليز على ظهور المخلصين منهم ، ولم ترهبهم أحكام النفي ووسائل الاضطهاد التى لجأ اليها المستعمر لتثبيت أقدامه فى ديارهم •

ومما يثير الاعجاب فى طبيعة الشعب العراقى ، نضوج الوعي القومى بسرعة خارقة فى أوساطه كلما أحسن توجيهه ، وهزت مشاعره ، وتوافر على قيادته أناس مخلصون • لقد شهدنا الشعب العراقى الغارق فى لجة السبات طوال القرون المظلمة يغدو بقدرة قادر شديد اليقظة ، دائب الحركة ، دائم التحفز ، منذ أن تناهت الى اسماعه ترانيم الحرية والحان الجهاد • لقد أخطأ الذين زعموا ان الشعب العراقى خائر العزيمة واهن القوى ، فما كان بالخائر الواهن لولا ما صلتوا على رأسه من حـراب ، وما نفثوا فى دمه من سموم ومخدرات • وما كان بالضعيف لو لم يفتوا فى عضده ، ويذلوا أحـراره ، ويفرقوا بين أبنائه فى الدين والعنصر والمذهب •

المدرسـة الاهليـة أو مدرسـة التفيض

بعد وصولى بأيام قلائل دعيت لحضور حفلة أفتتاح المدرسـة الثـانوية الاهلية ، لمؤسسها علي البزركان • وفى نهاية الحفلة طلب المؤسس الى الحاضرين

انتخاب هيئة ادارية للمدرسة ، تساعده فى تدبير شؤونها • فأنتخب الذوات التالية أسماؤهم :

الشيخ عبدالوهاب النائب ، حسن رضا ، خالد الشابندر ، جلال بابان ، بهجت زينل ، ومؤلف الكتاب •

كانت تعقد فى هذه المدرسة اجتماعات الهيئة الادارية المذكورة بصورة علنية ، واجتماعات سرية لجمعية الحرس التى تأسست فى ذلك الحين • فلما علمت السلطات الانجليزية بالاجتماعات السرية تلك أغلقت المدرسة ، وهرب مؤسسها ، وتبعثر طلابها • فسعينا – نحن اعضاء هيئة الادارة – الى اعادة فتحها ، فنجح مسعانا لدى السلطات ، على أن نبدل اسمها • فاقترح الشيخ عبدالوهاب النائب تسميتها بمدرسة (التفيض) نسبة الى اسمي ، اذ كنت أكثر الاعضاء تحمسا لاستئناف تأسيسها • وهكذا فتحت المدرسة أبوابها ، فأقبل عليها طلابها ، ولا زالت قائمة حتى اليوم بعد ان يسر الله لها السيد حسين العانى ، الذى عمل على تقدمها وتوسيعها •

مدرسة الحقوق فى بغداد

رغب السير بونهام كارتر ناظر العدلية فى فتح مدرسة الحقوق بصفين ، على أن ينتمى الى الصف الاول منهما فى بادىء الامر طلاب الصفين الاول والثانى فى مدرسة الحقوق العثمانية المغلقة ، وينتمي الى الصف الثانى منها طلاب الصفين الثالث والرابع من المدرسة المذكورة • وبعد ذلك تقبل المدرسة الطلاب الجدد • وقد كلفت فى السنة الاولى بعد افتتاحها بتدريس موضوع التطبيقات القانونية « الصكوك » للصف المنتهي ، وموضوع مقدمة علم الحقوق للصف المبتدىء • ولما فتح الصف الاول الجديد فى السنة الثانية قمت بتدريس موضوع الحقوق الدستورية ، الذى لم يكن قد طبع فيه كتاب باللغة العربية حتى ذلك الحين ، فاضطررت الى طبع محاضراتي وجمعها فى كتاب أسميته « الحقوق الدستورية » • وقد أعانني فى طبعه عطا أمين [١] أحد طلابى •

---

(١) الوزير المفوض فى السلك الخارجى الآن •

وكان طلاب الصف الثاني في السنة الدراسية ١٩٢٠-١٩٢١ هم :

خيرى السنوى ، نجيب الراوى ، فخرى الطبقجلى ، عبدالرسول عبدالحسين ، علي غالب العزاوى ، علي محمود الشيخ علي ، كاظم الدجيلى ، يوسف الكبير ، يوسف يعقوب ، عبدالكريم بافى ، عبدالحميد الكيلانى ، عبدالرحمن سعيد ، عبدالله الشواف ، مصطفى الانكرلى ، جميل الوسواسى ، سليمان الشواف ، عبدالعزيز السنوى ، محمود رأفت السنوى ، رؤوف البحرانى ، عطا أمين ، عبدالهادى الظاهر ، ابراهيم السعدى ، جميل السلام ، طالب مشتاق ، سلمان أحمد الشيخ داود ، ابراهيم الجيبهجى ، أحمد القشطيني ، أحمد مختار بابان ، عيسى طه ، محمد صالح يحيى .

أما طلاب الصف الاول في العام الدراسي ١٩٢١-١٩٢٢ فهم :

محمد صالح الكيلاني ، يسن قدورى ، يسن محمد علي ، علي جميل الخطيب ، عبدالحميد كبة ، ضياء عبدالرزاق ، عبدالعزيز أحمد ، سامى خوندة ، سلمان شينا ، عبدالجليل حسن ، اسماعيل عبدالمجيد ، فائق القشطيني ، محمود عبدالسلام عزت ، محمد حسن كبة ، جعفر حمندى ، عبدالعزيز الجميل ، جورج جورجى ، محمد يحيى ، رشيد يحيى الهاشمى ، أحمد عبدالغنى الراوى ، بدرالدين السويدى ، مكى الجميل ، عبدالرحمن خضر ، موسى الآلوسى ، أحمد السعدى ، خليل أمين المفتى ، ضياء يونس ، عبدالهادى الاعظمى ، طه الراوى ، يوسف ضياء عبدالوهاب ، الياس خدورى ، سعد صالح ، صالح جبر ، صادق البصام ، أحمد زكى الخياط ، حسن رفيق توفيق ، كامل نازو ، ضياء علي ، محمد نجيب عبدالله ، محمد جواد محمود ، فؤاد خياط ، منير القاضى ، يوسف زلخة ، عبدالعزيز الشواف .

وقد يكون هناك آخرون تعذر عليّ الحصول على أسمائهم فمعذرة .

عودة طالب النقيب من منفاه

يجدر بي أن أعود بالقارىء الكريم الى حادثة سبقت حوادث هذا الفصل بنحو ثلاث سنين . ذلك انني تلقيت في شباط ١٩١٧ برقية من السيد طالب

فى منفاه بجزيرة سيلان مضمونها : « حول الف ليرة » • ولما كان وكيله فى البصرة أحمد الصانع هو المسؤول عن تحويل رواتبه اليه ، فقد راجعته واطلعته على البرقية ، ظنا بأن السيد طالب أبرق الي كي أستحث وكيله فى ارسال الألف ليرة • فأجاب الصانع بأنه لم يرده طلب بهذا المبلغ سابقا ، كما انه ليس للسيد طالب مثل هذا الرصيد لديه • ثم كتب اليه مستفسرا عن أمر الألف ليرة • فأجاب السيد طالب بكتاب يقول :

« ان الألف ليرة انما طلبتها من سليمان فيضي نفسه لا منك ، اذ بلغنى انه يصيب مكسبا فى تجارته » •

أثار هذا الطلب استغراب الحاضرين فى مجلس الصانع ، بقدر ما أثار استغرابي • فالكل يعلم ، لا سيما أحمد الصانع ، باني لم آخذ فلسا واحدا من طالب طيلة اشتغالى معه ومرافقتى اياه • ثم اني لم أبلغ من الثراء حدا أستطيع معه أن أهب صديقا مثل هذا المبلغ الجسيم •

استمر السيد طالب فى مراسلتى بعد ذلك الحادث ، دون أن يشير اليه بقليل أو كثير ، حتى جرى نقله الى مصر عام ١٩١٧ ، بناء على التماس جلالة الملك حسين من السلطات البريطانية •

هذه حادثة تافهة ، أو قل انى خلتها كذلك ؛ الا انها تركت فى نفس السيد طالب أثرا بليغا كما سيأتى ذكره •

نشرت الصحف خبر عودة السيد طالب الى البصرة من منفاه • فاستأذنت ناظر العدلية فى السفر الى البصرة للترحيب بمقدمه •

زرته مساء فى قصره فى (السبيليات) ، فاستقبلنى استقبالا فاترا لم أكن انتظره • ولم أطل المكوث عنده ، فانصرفت بالرغم من اصراره على تناولى العشاء معه • وفى اليوم الثانى دعيت الى وليمة غداء أولمها عبدالله الصانع على شرفه ، وهناك لقيني طالب بتكلف زائد • ولما دار الحديث عن الوضع القائم فى بغداد ، وجه الي الحاضرون شتى الاسئلة ، فوصفت لهم الاحتفالات الدينية

التى تقام فى مساجد بغداد ، والخطب النارية التى تلقى فيها لحض الناس على المطالبة بالاستقلال ، ولتحريضهم على طرد المستعمر . وانفضت الدعوة فقفلت راجعا الى بغـداد .

لبثت بعد لقائي السيد طالب دائم التفكير فى أسباب الفتور الذى أعترى صلتى به . وقد عزوت الامر الى أحد سببين : الاول عدم ارسالى مبلغ الألف ليرة التى طلبها مني . والثانى انه ربما ندم على عـدم محالفته الانجليز ، فاعتبرنى المحرض على تضييع تلك الفرصة الذهبية !.. ويشـهد الله انه قد تجنّى عليّ فى الحالين . فأما أمر الألف ليرة ، فليس هناك ما يبرر ارسالها اليه . وأما عن علاقته بالانجليز فلم أكن لأمنعه عن محالفتهم لو اراد هو ذلك ، ولو انه كان قد فعل لكنت تركت البصرة وحدى للاقامة فى الكويت أو فى المحمرة ، ريثما يجلو الاتراك عن البصرة فأسلم من أذاهم .

ولما قدم السيد طالب بغداد ، بناء على دعوة السر ولسن الحاكم العام ، حلّ ضيفا فى دار عبدالقادر باشا الخضيرى . فزرته مرحبا ، فأبدى لي هذه المرة توددا ، وطلب أن يتغدى فى دارى ، كعادته سابقا حين كنا فى البصرة . وهكذا تناول الغداء عندى فى اليوم الثالث بعـد وصوله بغـداد ، وقصرت الدعوة - عداه - على المستر فوربس رئيس محكمة الاستئناف .

وصلتنى بعد ذلك بيومين رسالة من المس كرترود بيل طالبة حضورى فى دارها . فلما ذهبت جلست فى غرفة الانتظار ، ريثما تفرغ من مقابلة أحـد الزائرين . ولم يكن ذلك الزائر سوى السيد طالب ، وقد علمت أيضا انه كان دائم التردد على المس بيل منذ قدومه بغـداد .

خرج السيد طالب من لدن صاحبة الدار ، ونادت عليّ ، فالتقيت به فى فناء البيت . وبعد أن تبادلنا التحية سألنى عن سبب مجيئ الى المس بيـل ، فأخبرته بأن ذلك كان تلبية لطلبها . فقال مازحا :

- لا بد وأن يكون مزاحم الباجهجى قد وشى بك عندها .

فأدركت فى الحال انه اذا كان فى الأمر وشاية فان طالب هو الواشى وليس مزاحم ..

قالت لي المس بيل : انك حين ذهبت الى البصرة هيجت خواطر أهلها بما رويته عن الشعور الوطنى فى بغداد ، وبوصف الاحتفالات الدينية الوطنية فى مساجدها وصفا مبالغا فيه .

فأجبتها بأننى سئلت فأجبت ، وقد توخيت الصدق فى اجابتى ، وليس يظيرنى ان هاجت خواطر الناس أم لم تهج ، طالما انى رويت الحقيقة دون مبالغة .

فقالت محتدة :ـ ان الحكومة البريطانية لن تغفر للذين يناهضون سياستها ، ولن تتوان عن انزال أشد العقوبات بهم ... الى غير ذلك من عبارات التهديد .

فلم أعر كلامها اهتماما وانصرفت .

تحقق لديّ حينذاك ان السيد طالب هو الذى وشى بي ، ما دامت الوشاية قد انحصرت بشأن ما صرحت به فى وليمة عبدالله الصانع فى البصرة .

جو مكهرب

بلغ الحماس الوطنى لدى الجماهير فى بغداد شأوا عظيما ، وأمست الاحتفالات الدينية التى كانت تنظم فى المساجد ، وخاصة فى جامع الحيدرخانة ، مظاهرات شعبية خطيرة يأمها آلاف الناس من كل الطبقات . وحين شعر الانجليز بخطورة الوضع منعوا تلك الاجتماعات ، حتى انهم كانوا يلجأون الى اطلاق نيراز الرشاشات على المجتمعين لارهابهم .

وفى احدى الليالى حضرت اجتماعا فى جامع الحيدر خانة ، أنشد فيه الشاعر عيسى عبدالقادر قصدية نارية ، عاقبته السلطات عليها فى اليوم التالى بابعاده الى البصرة . وأذكر ، من خطباء وشعراء ذلك الحفل عبدالرحمن البناء ، وطالب مشتاق ، والشيخ مهدى البصير ، وعبدالرزاق الهاشمى وغيرهم .

استاء الناس من سياسة الشدة التى اتبعها الانجليز بحق المحتفلين فى المساجد ، فعزموا على مقاومة العـدوان • وفى ذات ليلة اجتمع آلاف منهم فى جامع الحيدرخانة ، فلما أحاطت بهم المصفحات البريطانية داهموها بالحجارة والطوب ، ففتحت عليهم النيران واستشهد منهم رجل أخرس يعمل بائعا للصحف • فما ان أصبح الصبح الا وخرجت بغداد كلها لتشييع جثمانه • وكنت اذ ترى وجوه القوم تدرك ان الثورة ناشبة لا محالة عن قريب •

لجنـــة المبعوثين

نشر الحاكم الملكى العام بيانا فى جريدة « العراق » فى ١٢ تموز ١٩٢٠ هـذا نصه :ـ

« قد أعلنت اجازة حكومة ملك بريطانيا فى تكوين مؤتمر عام منتخب من أهالى العراق بمنشور مؤرخ فى ١٧ حزيران ١٩٢٠ • واذ يجب قبل تكوين المؤتمر المذكور سن قانون للانتخاب وبتنظيم الامور المتعلقة بذلك فوضت حكومة جلالة ملك بريطانيا الحاكم الملكى أن يدعو الاشرفين من مندوبى الامكنة المختلفة الى الاشتراك مع الحكومة الملكية فى تشكيل المشاريع اللازمة للانتخابات المقرر اجرؤها وتخطيط الساحات الانتخابية واعداد سجلات المنتخبين واحضار مقتضيات الانتخابات • واذ يوجـد الآن فى العـراق من انتدبوا فيما سبق من الايام عن هذه البلاد للمجلسين العثمانيين مجلس الاعيان ومجلس المبعوثين وكان لهم سابق معرفة فى الامور العـائدة الى الانتخابات والمصالح العامة فقد دعاهم جميعا الحاكم الملكى العام للحضور ببغداد فى يوم غير بعيد لكي تتشكل منهم لجنة تشترك مع الحكومة الملكية فى وضع المشاريع اللازمة للانتخابات المقرر اجراؤها وتخطيط الساحات الانتخابية واعـداد سجلات المنتخبين واحضار مقتضيات الانتخاب كما سبق • وسـيطلب من أعضاء اللجنة المذكورة تعيين أحد منهم للرياسة عليهم وانتداب أعضاء زيادة على عـددهم من الساحات التى لم يحضر منها عضو لموت بعض الذين انتدبوا سابقا أو غياب بعضهم أو لتعذر حضوره لاسباب أخرى • أما مسـألة عـدد الاعضاء اللازم انتدابهم كما سبق والساحات التى يلزم الانتداب عنها فهذه مسألة ستخابر اللجنة الحاكم الملكى العام عنها وعلى نتيجة المخابرات يصدر القـرار • »

وفى العاشـر من الشهر ذاته ورد الي كتاب من الحاكم العسكرى والسياسى بصفتي عضوا سابقا فى مجلس المبعوثان هذا نصه :ـ

(لي الشرف أن أقدم لحضرتكم مرفقا بهذا التحرير صورة من البيان الذى سيعلن فى الجريدة فى ١٢ من الشهر الحالى وانى أدعوا جنابكم باسم الحاكم الملكى العام راجيا أن تكونوا عضوا فى المجلس الذى سيتألف • ولي الأمل الوطيد بأن تبرزوا للحكومة الملكية من فوائد بمشورتكم السامية بخصوص هذه المسألة المهمة • هذا وأرجو قبول وافر الاحترام •

التوقيع : بولارد
الحاكم العسكرى والسياسى
فى بغداد)

وكان بطى هذا الكتاب البيان المذكور أعلاه • وبعد ذلك بأيام وجهت الي" والى كافة الاعيان والمبعوثين السابقين الدعوة لحضور المؤتمر فى يوم ٦ آب فى ديوان نظارة العدلية •

ترددت فى تلبية هذه الدعوة اثر انقسام الرأى العام فى فائدة المؤتمر أو ضرره ، وفى مشروعيته أو عدمها • وكان يوسف السويدى والسيد محمد الصدر يتزعمان حركة المعارضة لعقد المؤتمر ، بينما يرى فريق غيرهم بزعامة السيد طالب رأيا مخالفا • وكان مندوبو بغداد الذين انتخبهم الاهلون لتمثيلهم فى مفاوضة السلطات المحتلة هم :

السيدأبو القاسم ، الشيخ أحمدالشيخ داود ، الشيخ أحمد الظاهر ، جعفر أبو التمن ، رفعت الجادرجى ، الشيخ سعيد النقشبندى ، عبدالرحمن الحيدرى ، عبدالوهاب النائب ، علي البزركان ، السيد عبدالكريم السيد حيدر ، فؤاد الدفترى ، السيد محمد الصدر ، محمد مصطفى الخليل ، يوسف السويدى ، الحاج ياسين الخضيرى ، وباقر الشبيبى •

أقول كان بعض هؤلاء — السويدى والصدر والشبيبى وأبو التمن — قد دعوا أيضا الى حضور اللجنة بدلا عن اثنين متوفين من المبعوثين السابقين ، الا انهم تضامنا مع زملائهم مندوبى بغداد قابلوا الدعوة بمعارضة شديدة •

زرت ناظر العدلية فى مكتبه ، وطلبت اليه أن يتوسط لدى الحاكم العام لاعفائى من الاشتراك فى اللجنة ، واتخذت ذريعة لهذا الاعفاء كونى حاكما

لا يجيز لي منصبي الاشتراك في أي نشاط سياسي ، حتى ولو كان بتكليف من الحكومة • وقلت له أيضا :ــ كيف يجوز لي أن أتقاضى راتبين من الحكومة في آن واحد ؟ • فقابل الناظر طلبي بالرفض ، وقال انه يعتقد ان في اشتراكي في اللجنة خدمة وطنية لا تتعارض مع منصب القضاء ؛ أما عن الراتب فقال :ــ انك تتقاضى راتب الحاكمية من نظارة العدلية ، أما راتب عضوية اللجنة فتدفعه لك دائرة السياسة البريطانية •

ولم يفد معه رجائي المتكرر في الانسحاب من المجلس ، وكانت اجاباته بالرفض قاطعة •

رغب المعارضون في اقناع المبعوثين على مقاطعة المؤتمر ، فنظموا اجتماعا في دار عبدالرحمن باشا الحيدري • وأذكر من الحاضرين الصدر والسويدي وطالب النقيب وعبدالمجيد الشاوي وبعض المبعوثين الآخرين •

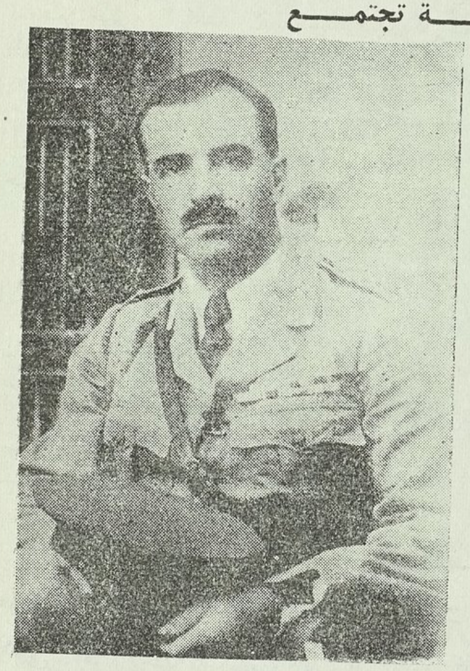
وكان السويدي والصدر يريان في عقد المؤتمر انحرافا عن مبدأ الثورة المسلحة ، التي كان الشعب يقترب منها رويدا رويدا ، ويلمسان فيه تثبيطا لعزائم الوطنيين التي استنهضت وعبئت للنضال في سبيل الاستقلال • بينما كان المبعوثون يرون ان مطاليب الامة لا تحل الا عن طريق ايجاد مجلس تأسيسي بالانتخاب الحر ، يضع الأسس لبناء البلاد ، ويعين شكل الحكومة المقبلة ، ويفاوض الانجليز ، ويعرض عليهم مطاليب الشعب • وان عدم وجود مثل هذا المجلس سيساعد الانجليز على المماطلة والتسويف في مطاليب الامة • وانتهى الاجتماع دون أن يسفر عن توحيد الآراء •

وفي عصر اليوم ذاته دعاني الحاج جعفر أبو التمن الى داره ، فلما ذهبت وجدت بعض الاصدقاء ، أتذكر منهم حسن رضا ، وعبدالله ثنيان المحامي • فاتحني جعفر في موضوع المؤتمر ، وكان متحمسا في معارضته ، فأبنت له وجهة نظر المبعوثين ، والتي كنت أحبذها شخصيا ؛ اذ انني كنت أرى ان نجاح الثورة المسلحة ليس مضمونا ، وانه اذا قدر لها الفشل فسوف ينجم عنها أوخم العواقب • كما انني كنت أرى ان الفرصة التي اتاحتها السلطات

المحتلة للوطنيين لتنظيم جهودهم وتوحيد صفوفهم فى هذا المؤتمر ، أقول ان تلك الفرصة حري بها أن لا تضاع • ثم هب ان المؤتمر اصطدم بسياسة الانجليز ، هب انهم ارادوا أن يفرضوا آراءهم على المؤتمرين ، وان يسخروهم لمآربهم ، وأن يعاملوهم كدمى أو كمأجورين ، أفليس بمقدور المبعوثين حينذاك ان يطلعوا الشعب على الحقيقة ؟ أفلا يستطيعون اذكاء نار الثورة من جديد ؟ وأي ثورة ستكون تلك ؟ لا شك انها ثورة عنيفة يلجأ اليها الشعب بعد أن عيل صبره وفشلت مساعى ممثليه السلمية • ان الثورة ستكون حينذاك أخطر منها الآن وأشد تأثيرا •

خرجت من دار أبي التمن ، وكل منا يحتفظ برأيه •• لا هو اقتنع ولا أنا رضيت ••

اللجنـــة تجتمــع



السر ويلسن

دخلنا القاعة المعدة للاجتماع ، فاذا بها محاطة بجنود شاكي السلاح • وبعد ان التأم عقد المجتمعين حضر السر ولسن الحاكم الملكى العام ، والمس بيل ، والمستر نورتن أحد الحكام ، وميرزا محمدخان بهادر بصفته مترجما • ألقى السرولسن خطابا بالانجليزية ، ثم القى ميرزا محمد ترجمته بالعربية[١] ، وهذا نصها :

(١) ان هذا الخطاب ، وخطابى الذى القيته فى الاجتماع نفسه ، وكل ما دار من مذاكرات وأحاديث فى اجتماعات اللجنة مسجل فى محضر رسمى موقع من قبل رئيسها السيد طالب ، وهو محفوظ لدي •

« أيها الســـادة

دعيت هذه اللجنة لكي تساعد فى سن قانون الانتخاب الذى ستجرى بمقتضاه الانتخابات للمؤتمر الذى تريد حكومة جلالة الملك عقده بأسرع ما يمكن عند سنوح الفرصة المناسبة ٠ ولا يخفى عليكم ان على هذا المؤتمر أن يسن قانونا أساسيا لهذه البلاد باستشارة الحكومة الملكية ٠ وأصرح الآن بأن الترتيبات الانتخابية التى سوف تقترحونها انما هى موقتة ولها مقصد واحد ألا وهو الانتخابات للمؤتمر العام الاول ٠ وعلى هذا المؤتمر أن يبت فى شأن الانتخاب الموقت وملاءمته لاحتياجات القطر وتعديله اذا اقتضى الامر ٠ ومن المعلوم ان قانون الانتخاب العثمانى لا يمكن تطبيقه فى الاحوال الحاضرة من دون تعديل لان فيه مواد لا توافق الاحوال الحاضرة مثلا انه كان يشترط على المرشح ان يحسن اللغة التركيـة ٠

أما هذا المجلس فيمثل أكثر مواقع العراق وطوائفه ، وبما ان هنـاك مناطق لم يحضر عنها مندوبون بسبب وفاة بعضهم وتغيب آخرين ، فعلى حضراتكم أن تقترحوا طريقة لانتخاب من يقوم مقامهم فى هذه اللجنة التى تتوقع الحكومة الملكية أن تستمد منها كل معونة الآن ، لا فيما يختص بالغرض الذى دعيت لأجله بل فى أمور مهمة أخرى يمكن حدوثها ٠

انى أغتنم الفرصة لأشكركم لتلبيتكم دعوتى ومساعدتى فى هـذا العمل ، وانى واثق بأننا سوف ننال بالتعاون المشترك الأمنية التى تتوخاها حكومة جلالة الملك الا وهي تأسيس حكومة وطنية فى العراق ٠ »

بعـد فراغ الحاكم العام من القاء خطابه ، غادر القاعة تاركا زمـلاءه الآخرين ؛ ثم جرى الاقتراع السرى لانتخاب رئيس اللجنة ، فنال السيد طالب النقيب أكثرية الاصوات ، واعتلى منصة الرئاسة ٠ وبعد ذلك طلبت الكلام ، والقيت الخطاب التالى :

ســادتى الســكرام

غير خاف على حضراتكم ان حق القضاء مقيد بالزمان والمكان ، وكذلك حق التشريع فانه مقيد بهما أيضا ٠ فصفتنا اليوم غير قانونية من وجهتين ، الاولى : من وجهة المكان ، ذلك ان الامة كانت قد انتخبتنا لنمثلها فى مجلس المبعوثان بالاستانة ، ولما بطل هذا الشرط فقـد بطل ما فى ضمنه أيضا من صلاحيات وصفات تؤهلنا للتحدث بلسان الامة ٠ أما الوجهة الثانية ، فهى ان الامة قد وكلتنا قبلا لننوب عنها مدة معينة ، وها هى المدة قد انقضت ، فنحن

اذن معزولون عن الوكالة بحكم الطبع أيضا . وعليه فاننى لا أجد لنا اليوم صفة شرعية ولا قانونية لتمثيل الامة .

أيها السادة : ان الحكومة المحتلة قد دعتنا بصفتنا مبعوثين للحضور ، فلبينا دعوتها لمصلحة الامة ، ولكن لا ينبغى أن ننسى أو نتناسى ان اعطاء الحكومة صفة المبعوثين لنا لا يكسبها الصبغة القانونية المشروعة مالم تؤيدها الامة بمحض ارادتها .

انا أسلم بان حصولنا على ثقة الامة أجمع غير ممكن فى الظروف الحاضرة حيث لم يتوفر للبلاد بعد قانون للانتخاب . الا اننى لا ارى باسا فى اجتماعنا طالما ان المهمة الملقاة على عاتقنا ليست بمنزلة تمثيل للامة بالمعنى الصحيح ، بل هى بمثابة رسم طريق يمهد لاجراء انتخابات المؤتمر العام أو المجلس التأسيسى ، الذى سيكون بدوره حائزا على صفة التمثيل الشعبى والذى سيقوم بتشكيل الحكومة وسن قانون أساسى للبلاد الى غير ذلك من الامور الخطيرة .

انى أعتقد ان مصلحة الامة تقضى بلزوم اجراء انتخابات حرة فى البلاد ، ولهذا أصبح اجتماعنا هنا ضروريا لاجراء بعض التعديلات فى قانون الانتخاب العثمانى بحيث يصبح أكثر ملاءمة للظروف الحاضرة .

أما وقد قبلنا تحمل هذا العبء الثقيل على عواتقنا ، فعلينا ان نعتبر مجلسنا هذا مجلسا أهليا مؤلفا من وطنيين لحل مشكلة وطنية آنية ، مستهدفا خدمة البلاد وأهلها ليس الا . ان الاضطراب والقلق اللذين يسيطران على اذهان الشعب ليجعلان موقفنا فى غاية الحراجة ، وان أى هفوة ترتكبها ستحاسبنا عليها الامة ، والحكومة المحتلة الحاضرة ، والحكومة الوطنية المقبلة ، والتاريخ . أمامنا طريق واحد ذلك هو طريق الاستقامة فى العمل والاخلاص للبلاد ، يجب أن نضع نصب أعيننا رضى الامة وتأييدها ان لم يكن اليوم ففى الغد ، وان غدا لناظره قريب . ثم علينا ان نضع التاريخ فى المقام الثانى ، ان التاريخ

قد فتح صفحاته ليسطر فيها أعمالنا ، فطوبى لمن كتبت أعماله بمداد من نور ، والويل لمن جاءت صفحاته سود .

أيها السادة : ان الشعب اليوم فى وجل من مجلسنا هذا ، فعلينا أن نبين له حسن نيتنا وصدق طويتنا ، وان نبرهن له اننا شركاؤه فى المبدأ والغاية وابناؤه البررة فى السراء والضراء ، وان حياتنا رهينة بحياته وسعادتنا منوطة بسعادته . يجب أن نؤكد له اننا لسنا آلات بيد الغير ، وان الشقاء اذا أصابه فسيصيبنا بأوفر نصيب .

اننى أعتقد ان كل فرد من حضراتكم يشعر بنفس شعورى ، وان هذا الاعتقاد يدفعنى الى مخاطبة الشعب من هذه القاعة قائلا : أيها الشعب المحبوب ، ان كل فرد من أبنائك يدين برأيك ، يهمه ما يهمك ، ويطمح الى تحقيق ما تصبو اليه أنت من آمال جسام ، ويسعى الى اسعادك ورفاهك . ومن كان من أبنائك مخالفا لهذا العهد فنحن براء منه ، وقد حلت عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . فطب نفسا وقر عينا أيها الشعب الحبيب وأصبر فان الله مع الصابرين .

سادتى : اذا كنا نبتغى ثقة الامة وان نقوم بمهمتنا على الوجه الاكمل فعلينا ان نتوخى تطبيق الفقرات الآتية :

أولا — بما ان الحكومة المحتلة أعطتنا صفة المبعوثية فيجدر بها اذن أن تمنحنا الصلاحيات والميزات التى تلازم تلك الصفة ، وأهمها الحرية التامة فى الفكر والرأى والقول ، وان نكون متمتعين بالاستقلال التام فى أعمالنا وأقوالنا عن كل تأثير أو تهديد ، والا فان القيود ستمنعنا من ابداء رأى سديد أو القيام بعمل صالح .

ثانيا — أن تكون جلساتنا علنية يسمح لابناء الشعب بحضورها بدعوة من الاعضاء كما هى العادة الجارية فى جميع المجالس المماثلة .

ثالثا ـ أن تسجل كافة الآراء والمذاكرات والمقررات والخطب بالحرف الواحد فى محضر رسمى بواسطة كتاب معينين لهذا الغرض •

رابعا ـ أن ينشر المحضر بدون تحريف فى الصحف المحلية أو فى جريدة مخصصة لكى يطلع عليه الخاص والعام من أفراد الشعب العراقى الكريم ، الذى يهمه معرفة نيات وأعمال الذين القيت بأيديهم زمام أموره ومستقبله •

خامسا ـ أن نسمى ما ندخله أو نضيفه من التعديلات فى قانون الانتخاب « تعليمات وقتية » •

فاذا ما تحققت لنا هذه المطاليب وجب علينا الاسراع فى العمل بأقصى ما يمكن لئلا تندلع الثورة وتراق الدماء •

سادتى : لا شك ان كل ما تقدمت به اليكم سينال قبولكم • فأطلب اليكم أيها الاخوان أن تشدوا أزري وتؤيدوا مقترحاتى ، وان تعتبروا خطابى هذا نداء الى الشعب ، ينشر فى الصحف وفى مناشير مجانية ، ويوزع فى جميع الاوساط لتطمين القلوب وتهدئة الخواطر الثائرة • وبذلك نكون قد خطونا خطوة واسعة نحو النجاح ، فنخرج من هذه القاعة بيض الوجوه أمام الشعب والتاريخ • هذا والله ولى التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل والسلام عليكم • »

فلما انتهيت من القاء خطابى اكفهرت وجوه واستبشرت وجوه • ورأيت الامتعاض على وجه الرئيس وبعض الاعضاء • أما المس بيل فكادت تمزق ثيابها من شدة الغيظ ، وأخذت منى صورة الخطاب فى الحال وخرجت ، ثم دعت الميرزا محمد لترجمته الى الانجليزية ، وأخذت الترجمة الى ناظر العدلية تشكونى اليه • ولكن الناظر أجابها ببرودة الدم المعهودة فى أبناء قومه : انه حر فيما يقول ••

انتخبت اللجنة كاتبي الشرف بالاقتراع السرى ، ففاز مؤلف الكتاب وعبدالله الزهير ، وأخذنا مكانينا عن يمين الرئيس ويساره .

كان الذين حضروا الاجتماع الاول من المبعوثين الاصليين هم :ـ

فؤاد الدفترى ، فؤاد سنية ، مراد سليمان ، الدكتور سامى سليمان ، جميل الزهاوى ، ساسون حسقيل ، السيد طالب النقيب ، عبدالرزاق النعمة ، المؤلف ، عبدالله الزهير ، عبدالمجيد الشاوى ، عبدالكريم السعدون ، ناظم نفطهجى ، داود يوسفانى ، حسن بك (الموصل) ، الحاج سعيد ، وعبدالوهاب القرطاس .

ولما كان الحاكم العام قد طلب فى منشوره وفى خطابه أن تنتخب اللجنة أعضاء اضافيين بدلا عن المتوفين أو الغائبين من النواب ، انتخب الحاضرون الذوات التالية اسماؤهم :

السيد داود النقيب ، عبدالرحمن الحيدرى ، فخرى جميل ، عبدالجبار خياط ، عزت باشا ، رشيد العمرى ، آصف قاسم أغا ، سيد زيد النقيب ، خضير ملا فرحان ، خيرالله ، عبدالرزاق الامير ، محمود المعتوق النعمة ، مزاحم الباجهجى ، ناجى شوكت ، روبين سوميخ ، عبدالغنى كبة ، باقر الشبيبى ، السيد محمد الصدر ، يوسف السويدى ، جعفر أبو التمن .

اجتمعت اللجنة ثانية وحضر الاعضاء الاضافيون جميعا ما عدا الاربعة الأخيرين ، وجرى انتخاب نائب الرئيس ، ففاز عزت باشا .

وبعد ان وافقت اللجنة على تسمية نفسها بلجنة الانتخابات العراقية ، طلبت وضع المقترحات التى وردت فى خطابى بالمذاكرة .

أجاب الرئيس على النقطة الاولى قائلا ان الحكومة المحتلة أباحت الحرية التامة فى الرأى والكلام .

ووضع الاقتراح الثانى فى المذاكرة ، فوافقت اللجنة على علانية

الجلسات ، بالرغم من معارضة بعض الاعضاء . ووافقت كذلك على تدوين ما يدور فيها من الكلام فى محضر رسمى ، وأوصت بتعيين كتاب أربعة لهذا الغرض . كما وافقت على الاقتراح الرابع وهو نشر المحضر فى الصحف المحلية ، ولكن ذلك لم يتحقق ، لان الامر أودع الى المستر نورتن فماطل فى تنفيذه . أما طلبى فى نشر خطابى فى الصحف فلم توافق عليه اللجنة ، كما ان الحكومة منعت نشره فى الصحف المحلية . غير ان الصحافي الجريء عبدالغفور البدرى نشره فى جريدة الاستقلال خلافا لرغبة الحكومة .

ووضع الاقتراح الخامس فى المناقشة فرفض ، وأوصت اللجنة بتأخير تسمية القرارات الى أجل غير مسمى .

مشادة فى اللجنة

جرى انتخاب خمسة أعضاء يعهد اليهم أمر تحضير قانون الانتخاب ، فسميت هذه اللجنة الخماسية بـ (اللجنة الفرعية) ، بينما أطلق على اللجنة الاصلية اسم (اللجنة العامة) . وفاز بالانتخاب كل من : ساسون حسقيل ، المؤلف ، مزاحم الباجهجى ، عبدالجبار خياط ، وناجى شوكت .

وكانت هذه اللجنة تجتمع فى غرفتى الخاصة بدار المحاكم . وأهم ما دار بين أعضائها من نقاش كان حول تحديد سن المنتخب الاول . فقد رأى ثلاثة منا - مزاحم وناجى والمؤلف - أن يحدد بواحد وعشرين سنة لئلا يحرم الشباب - ومنهم أكثر المثقفين فى البلاد - من حق الانتخاب . بينما أصر ساسون حسقيل وعبدالجبار خياط على تأييد وجهة نظر الحكومة بجعل السن القانونية خمسة وعشرين عاما ، لكى يقصوا الشباب والمتعلمين عن ميدان الانتخابات . ثم اختلفنا فى تسمية المجلس القادم ، فرأينا نحن الثلاثة أن يسمى (المجلس التأسيسى) ، وأصر ساسون وعبدالجبار خياط أن يسمى (مجلس النواب) . بعد هذين الخلافين أصبح من المتعسر تمشية الاعمال فى اللجنة الفرعية ، فاقترحنا أن يعرض الخلافان على اللجنة العامة للبت فيهما .

وهمس ساسون حسقيل لرئيس اللجنة العامة وبعض أعضائها برغبة

الانجليز ، فصوت الاكثرية الى جانبه ، وأصدرت اللجنة العامة قرارها بجعل السن القانونية ٢٥ سنة وبتسمية المجلس الجديد مجلس النواب .

كان لهذين القرارين أسوأ الوقع فى نفوس الشباب . فثارت الضجة حولهما ، واستقال مزاحم الباجهجي من اللجنة ، وبقيت أنا وناجي شوكت نكافح وسط تلك الاعاصير الرجعية الجارفة . فلم نيأس ، وعمدنا الى الاتصالات الفردية بأعضاء اللجنة نقنعهم تارة ونحذرهم تارة أخرى من سوء العاقبة ، حتى انحاز الى جانبنا عدد منهم . فأسرعنا الى رفع تقرير مسهب عن ضرورة جعل سن المنتخب الاول ٢١ سنة ، وكان الموقعون عليه يشكلون أكثرية اللجنة ، مما اضطرها الى الرجوع عن قرارها السابق وتعديل المادة . أما الموقعون فهم :ـ

المؤلف ، ناجي شوكت ، سيد زيد النقيب ، عبدالله الزهير ، محمود النعمة ، مراد سليمان ، خضير ملا فرحان ، عزت باشا ، عبدالرحمن الحيدرى ، خيرالله ، عبدالجبار خياط ، السيد قريش ، ناظم نفطجي ، الحاج سعيد ، وروبين سوميخ .

بقي علينا معضلة التسمية . فلجأت الى حيلة ؛ ذلك اننى تلوت على المجلس نص المنشور الذى أذاعه الحاكم العام ، وخطابه فى اللجنة ، وما ورد فى تذاكر الدعوة للاجتماع التى وزعتها الحكومة على الاعضاء ، وقد جاء فيها كلها اسم (المؤتمر العام) فقلت متسائلا :ـ مالنا نبتدع الاسماء لهذا المجلس وقد أسمته الحكومة نفسها « المؤتمر العام » ؟ ، وعلام هذا النقاش ما دام الانجليز أنفسهم قد أطلقوا عليه اسما معينا ؟ . وهنا سمعت المعارضين يقولون ان ذلك حق ... فلنسميه اذن « المؤتمر العام » .. وهكذا وافق المجلس على ما اقترحناه !.

انتهت اللجنة من تعديل قانون الانتخاب فأصبح جاهزا للتنفيذ . وقبل ارفضاضها وصل بغداد ، بتاريخ ٢٠ تشرين الاول ١٩٢٠ ، السر برسى كوكس خلفا للسر ولسن ، فوجه الكتاب التالى الى اللجنة :ـ

« الى رئيس لجنة الانتخابات العراقية وأعضائها المحترمين

منذ ورودي الى العراق باشرت فى الاطلاع على جريان أعمال لجنتكم فى سن قانون انتخابى للعراق ٠ وكانت هذه هي الغاية المقصودة من انعقاد اللجنة لما افتتحها السر ارنولد ولسن ٠ فعلى تجديد اجتماعكم أغتنم الفرصة أولا فأبارك لكم على النتائج التى حصلت فى مذكراتكم حتى الآن وثانيا أرجو إن تكملوا العمل المذكور بأسرع ما يمكن لكي لا يحدث تأخير غير ضرورى فى اجراء الانتخابات وعندئذ أرجو من لجنتكم أن تمعن النظر فى المؤتمر الذى تشكلون الترتيبات الانتخابية من أجله سوف يجتمع لكي يبين ارادة الشعب عن الصورة المخصوصة للحكومة العراقية فى المستقبل وتعيين أمير على فرض اتخاذ حكومة ملكية أو سلطنة ٠ فهذه المسائل جوهرية ومهمة لمستقبل هذه البلاد لا يمكن اعطاء القرار فيها الا مؤتمر يمثل أهالى العراق جميعهم ٠ وأرجو حضراتكم تجعلوا نصب أعينكم فى تكاليفكم واقتراحاتكم وفى الختام أكرر تشكراتى الخالصة لحضراتكم على ما أبديتموه من الهمة فى أشغالكم وأملى وطيد فى نجاحها ٠ »

ثم انتهت أعمال اللجنة فى ٤ تشرين الثانى ١٩٢٠ ٠

حزب العهد

فتح حزب العهد ـ الذى كان قد أسسه عزيز علي المصرى وانتميت اليه فى استانبول ـ فروعا فى مختلف البلاد العربية ٠ وكان فرعه فى بغداد دائب النشاط فى عهد الاحتلال ٠ فلما توفي رئيسه الشيخ سعيد النقشبندى اجتمعت الهيئة الادارية للحزب المؤلفة من :

احمد سامى الدبونى (المعتمد) ، عبدالغفور البدرى ، علاءالدين النائب ، الشيخ بهاءالدين النقشبندى ، حسن النائب ، أحمد عزت الاعظمى ، سليمان فتاح ، نورى فتاح ، بهجت زينل ، عبدالعزيز السنوى ، قاسم العلوى ، عبدالله الحاج حمودى ، عبدالواحد محمد ، انور النقشلى ، سامى النقشلى ، ابراهيم الواعظ ، أمين زكى ٠

اجتمع هؤلاء وانتخبونى رئيسا للحزب ، وأودعوا الي وثائقه السرية وقائمة بأسماء اعضائه ومؤازريه ٠

دارت قبيل وفاة الرئيس السابق بعض المفاوضات بين حزب العهد وحزب الحرس ، الذى كان يرأسه السيد الصدر ، لتوحيد الخطط وتبادل

الآراء فيما بينهما ؛ فرأى الحاضرون فى ذلك الاجتماع ضرورة استئناف تلك المفاوضات ، وعهدنا الى السيد أحمد سامى الدبونى وبهجت زينل الدخول فيها • وبعد أخذ ورد لم يصل الطرفان الى الاتفاق ، كما ان الثورة العراقية نشبت فى تلك الاثناء وتولى قيادتها حزب الحرس ، فلم يبق مجال للمفاوضات ، فانقطعت دون أن تسفر عن نتيجة مرضية •

على هامش الثـورة العراقيـــة

لست أرى حاجة الى الاسهاب فى ذكر الثورة العراقية التى نشبت فى العراق عام ١٩٢٠ م اذ ان معظم أخبارها والاعمال البطولية الخالدة التى أتاها ليوث العراق وأشباله فيها دونت فى مؤلفات عديدة • الا اني سآتى على وصف للحالة العامة فى بغـداد فى تلك الفترة •

ما ان اعلنت الثورة حتى انضم اليها عدد كبير من الشخصيات البارزة ، ومن الضباط العراقيين الذين خدموا سابقا فى الجيش العثمانى ، أذكر منهم :

محمود سامى ، سامى النقشلى ، الحاج طالب ، حسين العلوان ، الحاج شاكر القرغولى ، اسماعيل الآغا ، جميل قبطان ، شاكر محمود (قمبر علي) ، الحاج محمود رامز ، شاكر محمود (المسيب) ، سليمان فتاح ، محى الدين السهروردى وغيرهم •

وحين تناهت انباء الثورة الى الضباط العراقيين المجاهدين فى سوريا أسرعوا بالتوجه الى العراق للاشتراك فيها ، وكان على رأسهم مولود مخلص ، ورمضان شلاش ، وجميل المدفعى ، وتحسين على ، وعبدالحميـد الدبونى وغيرهم •

زحف جميل المدفعى وعبدالحميد الدبونى برتلهما على تلعفر ، فاحتلا المدينة واطرافها بمعونة الشيخ ضارى وابنيه خامس وسليمان • وهناك جرت المذبحة الشهيرة التى قتل فيها الكولونيـل لجمن ، الكابتن بارلو ، والكابتن ركلى ، واربعة من الملازمين ، وعدد من الموظفين الانجليز • فنقم الانجليز على قاتليهم ، وساقوا الى تلعفر قوة عظيمة لسحق القوة العربية ، الا ان المدفعى

والدبونى استطاعا الافلات من هلاك محتم ، وانسحبا بكامل قوتهما الى دير الزور .

تأزم الوضع فى العاصمة واشتد التوتر بين الاهلين والحكومة ، فلجأت هذه الاخيرة الى استعمال العنف والشدة . وكان السيد الصدر قد تولى زعامة الثورة ، فعزمت الحكومة على اعتقاله وعدد من اعوانه ، الا انه تمكن من الفرار ، هو وجعفر ابو التمن وعلي البزركان .

داهم الجنودالانكليز دار الشيخ احمدالشيخ داود - المجاورة لدارى - فجراً ، فقيدوه واقتادوه بملابس النوم ، بعد ان نهبوا الحلى والنقود التى وصلت اليها ايديهم ، ثم أبعدوه الى هنجام . وفى اليوم التالى زارتنى عقيلته ام سلمان وسلمتنى امتعته وملابسه كى اتوسط بارسالها الى منفاه ، فأرسلتها بدورى الى عمى الحاج طه فى البصرة ، فأوصلها بعد لأي اليه .

ثم جرى اعتقال كل من عارف السويدى ، وجلال بابان ، وسامى خوندة ، وابراهيم ناجى ، وأبعدوا الى هنجام أيضا .

أغار الجنود على دار يوسف السويدى الواقعة فى محلة خضر الياس لالقاء القبض عليه ، وما ان تناهى الخبر الى رجال المحلة حتى هرع الغيارى منهم المدفاع عنه ، فتحصنوا فى سطوح الدور المجاورة ، وراحوا يناوشون المغيرين لمشاغلتهم ريثما يجد السويدى منفذا للهرب . وتبودلت نيران حامية ، ولجأ الانجليز الى القاء القنابل على الدور ، فانهد بعضها واستشهد عدد من المدافعين البواسل . وفى هذه المعمعة تسلل السويدى من داره الى سطوح الدور المجاورة واستطاع النجاة . انسحب المدافعون على اثر ذلك ، فداهم الجنود الدار وفتشوها ، فعثروا على جملة رسائل ، بينها رسالة من الوطنى الشهيد عبدالمجيد كنة الى السويدى ، يشرح له فيها خطة أعدها مع فريق من زملائه لاغتيال الضباط الانجليز . وبناء على هذه الرسالة حوكم عبدالمجيد كنة محاكمة صورية وأعدم شنقا .

نشر السر برسى كوكس بيانا فى العدد ١٤٠ من جريدة العراق بتاريخ ١١ تشرين ثانى سنة ١٩٢٠ ، أطلق فيه اسم « المجلس النيابى » على المؤتمر العام المنوى عقده ، مناقضا لما جاء فى توصية لجنة الانتخابات العامة . فنشرتُ مقالا فى العدد ١٦٢ من الجريدة نفسها عارضت فيه بيان الحاكم العام ، وأوضحت الفرق بين المجالس النيابة والمجالس التأسيسية . فغضب مني ، واستصدر قرارا يقضى بمنع موظفى الدولة من نشر آرائهم السياسية فى الصحف بدون تصريح خاص من الحكومة ، وبلغت بصورة منه ..

تشكيل الوزارة النقيبية الاولى

أصدر السر برسى كوكس أمرا بالغاء الاحتلال ، واحلال الانتداب محله ، وبتشكيل وزارة وطنية . فتألفت على الشكل التالى :

السيد عبدالرحمن النقيب للرئاسة ، السيد طالب النقيب للداخلية ، جعفر العسكرى للدفاع ، ساسون حسقيل للمالية ، مصطفى الآلوسى للعدلية ، محمد علي فاضل للاوقاف ، محمد علي بحر العلوم للمعارف . وبعض الوزراء بلا وزارة .

وكانت مهمة هذه الوزارة ادارية أكثر منها سياسية ، عهد اليها بتمشية الشؤون الداخلية للبلاد . وأصبح المستر كارتر ناظر العدلية مستشارا لوزيرها الجديد .

ومما هو جدير بالذكر ان الوزراء العراقيين بدأوا يتدخلون فى شؤون القضاء ويفرضون رغباتهم على الحكام بمجرد ارتقائهم الى مناصب الوزارة . وأذكر حادثتين حدثتا فى الاسبوع الاول من تسنم الوزراء الجدد كراسى الحكم . ذلك ان وزير العدلية ارتجى مني ومن داود سمرة ان نتحيز فى احدى القضايا المعروضة على محكمتنا ، فرفضنا رجاءه وزجرناه . وفى قضية اخرى طلب منى السيد طالب ان احكم لصالح رئيس الوزراء السيد عبدالرحمن النقيب ، وكان طرفا فى نزاع ، فامتنعت واصدرت المحكمة قرارها لصالح خصومه .

وأود هنا ان انوه بعناية الانجليز بالقضاء وحرصهم على نزاهته • ذلك ان الحكومة عهدت الى السر كارتر بانتقاء حكام وطنيين ، يحلون محل الحكام السياسيين الانجليز فى بعض الالوية ؛ فكان هذا يستشير من يثق بهم من حكام التميز ومن الحكام الآخرين فى ترشيح من يرونه كفؤا لملء مناصب القضاء • حتى اذا تجمع لديه عدد من المرشحين ، عكف على التحقيق فى اخلاقهم ، وسيرهم ، ومعلوماتهم القانونية ؛ وقد تستغرق هذه الدراسة اشهرا • فاذا اطمأن الى احدهم لم يعيّنه حتى يحصل على تعهد خطى ممن زكاه • هذا هو السر فى نزاهة القضاء العراقى فى بداية عهد الحكم الوطنى • فلما كرت الاعوام ، وآل الامر الى ايدى الوطنيين ، دب الفساد فى دور العدل ، وانتهكت حرمة القضاء ••

مؤتمر القاهرة

عقد الانجليز فى القاهرة ، فى ٩ مارس ١٩٢١ ، مؤتمرا لبحث شؤون الشرق الادنى • وقد حضره المستر تشرشل وزير المستعمرات والكولونيل لورنس قادمين من بريطانيا ؛ ووفد من العراق يتألف من السر برسى كوكس ، والجنرال هلدين القائد العام للجيوش البريطانية فى العراق ، وجعفر العسكرى وزير الدفاع ، وساسون حسقيل وزير المالية ، والمس بيل ، وعدد من كبار ضباط الجيش البريطانى فى العراق • وقد توصل المؤتمر الى قرار بانشاء دولة ملكية فى العراق برئاسة الامير فيصل • فلما عاد الوفد العراقى الى بغداد نشر البيان التالى :ـ

(كان السبب الاول الذى دعا الى عقد المؤتمر الذى التأم فى القاهرة رغبة وزير المملكة الجديد فى الاجتماع بالممثلين البريطانيين فى المناطق الواقعة ضمن دائرة مسئوليته كالمندوبين الساميين فى العراق وفلسطين وحاكمى عدن وبلاد الصومال وذلك لكى يطلع الوزير رأسا على مجرى الأمور فى الاقطار المذكورة •

اما فيما يخص بالعراق فكانت المسألة الموضوعة على بساط البحث انقاص المصروفات العسكرية انقاصا كبيرا لكى تتمكن الحكومة البريطانية من القيام بأعباء المحافظة على حالة ثابتة الاركان فى البلاد العراقية ريثما تتمكن

الحكومة الوطنية ذاتها من ان تأخذ على عاتقها مسؤولية الدولة العربيـة التى ترمى الحـكومة البريطانية الى تأسيسها وتأييدها .

وقد تمكن فخامة المندوب السامى وجناب القائد العام من ان يقدموا الى المؤتمر اقتراحات ترمى الى اقتصاد بعضه عاجل وبعضه تدريجى مما جعـل وزير الدولة شـديد الآمال بأنها ستأتى مرضية لآراء حكومة جلالة الملك والرأى العام البريطانى والعربى ، وفى الوقت ذاته احل الاتفاق الذى توصل اليه بشأن المحافظة على الأمن الداخلى وحماية الحدود والترتيبات المالية اللازمة لترقية الجيش العربى محله من الاعتبـار .

وسيصدر فى وقت قريب عفو عام يشمل جميع الذين اشـتركوا فى الاضطرابات الاخيرة عدا بعض افراد ارتكبوا جرائم فظيعة كقتل الكولونيل لجمان وما اشبه من الجرائم .

ولما انتهى المؤتمر سافر الوزير الى فلسطين ومنها الى انكلترا لكى يقدم بذاته النتائج التى أسـفر عنها المؤتمر الى مجلس الوزراء والأمل وطيد ان ترد فى بضعة أيام القريبة برقيـة بمصادقة مجلس الوزراء عليها فيصدر المندوب السـامى بلاغا آخـر .) ...

السيد طالب يرشـح نفسه لعرش العراق

زارنى السيد طالب فى المحكمة ذات يوم ورغب فى مكالمتى على انفراد .

قال : اني عزمت على ترشيح نفسى لعرش العراق ، ونظرا لما اعهده فيك من محبـة لي ارجو ان تبث لي الدعاية فى الاوسـاط القضائية ، وتحمل الحكام والمحامين وطلاب الحقوق وموظفى وزارة العدليـة على التصويت بجانبى .

قلت له : انك تعلم ان منافسك هو الامير فيصل الذى أجمع الثوار والشعب والحكومة المحتلة نفسها على تأييده ، فمسعاك هذا سـيبوء بالفشل الذريع . ان صديقك من صدقك لا من صدقك ، واعلم اني ناصح لك .

قال : انك واهـم . فالمستر فلبى فى جانبى ، وقد تعهـد لي ببذل اعظم الجهود . انه وعدنى باقناع السير برسى كوكس الذى لا يزال مترددا فى أمر الملك الجديد ، وبحمل المس بيل على التخفيف من

تحمسها للامير فيصل ، ثم انه كتب الى الحكام السياسيين فى الالوية الجنوبية يوصيهم ببذل المساعدة لي • لذلك عزمت على الطواف فى تلك الالوية ، والقيام بدعاية انتخابية واسعة هناك • فأرجو منك ان تقوم أنت بالدعاية فى الميدان الذى أخالك متنفذا ومحبوبا فيه •

قلت : أود ان أصارحك بحقيقة لا أخالك تجهلها : ان الناس فى بغداد لا يعطفون عليك ، بل ويكرهونك أيضا • وانى لن أزج بسمعتى وكرامتى فى تحريض الناس على اتيان ما يكرهون •

قال : يظهر انك تغيرت عليّ • ثم نهض غاضبا وخرج •

بعد ان قام السيد طالب بجولته فى المدن الجنوبية ، التقيت به صدفة عند وزير الاوقاف • فقال لي :

– أريد ان اتغدى عندك غدا •

فأجبته : على الرحب والسعة ، وهل تحب ان أدعو احدا ؟

قال : لا بأس ان يكون رشيد الخوجة متصرف بغداد حاضرا معنا •

فدعوت رشيد ، وحضر فى الوقت المعين ، الا ان طالبا لم يحضر • وأرسل الينا رسولا فى ساعة متأخرة يعتذر بانه نسى الدعوة وانه آسف لذلك ••

وفى مساء اليوم نفسه وردت اليّ برقيه من عمى الحاج طه فى البصرة ، مفادها ان رجال البوليس تحروا داره ، فلما لم يعثروا على شيء مريب اعتذر مدير البوليس الانجليزى بقوله ان التحرى قد جرى بناء على أمر برقى من السيد طالب •

أثارت فيّ هذه البرقية سورة من الغضب • فذهبت فى الحال الى السيد طالب وعاتبته عتابا قاسيا ، وذكرته بمعاضدتى له ايام محنته ، وبمواقفى المشهودة فى مناصرته ، وذكرته برغبتى فى مرافقته الى منفاه وفاء واكراما له • فهل هذا جزاء الوفاء والاكرام ؟••

اما هو فكان يعانقنى ، مهدئا ، ويقسم الايمان المغلظة بأنه لم يكن له علم بالتحرى • وهكذا خرجت منه غاضبا متألما •

لم أكن أعلم بأن السيد طالب أحاطنى بالجواسيس يرفعون التقارير المختلقة ، رغبة منه فى الايقاع بي ، حتى زارنى صديق يشتغل فى دائرة التحقيقات الجنائية ، وأسر الي انه قد كثرت فى الآونة الاخيرة تقارير الجواسيس عني ، وان مفوضا يدعى محمد الدليمى قد رفع تقريرا جاء فيه انه فى الليلة الماضية اجتمع بعض الاشخاص فى دارى ، وهم اعضاء فى جمعية اليد السوداء التى ترمى الى اغتيال كبار الانجليز فى بغداد • وهنا ضقت ذرعا بهذه الوشايات ، فذهبت الى مستشار العدلية السر بونهام كارتر وقلت له :

– أظنك راضياً عن اعمالى فى المحكمة •

فأجاب مستغربا :– جدا •• جدا • قلت :–

– وانك تعلم ان الحاكم العادل يخلق له اعداء • وقد بلغنى الآن ان احد الاعداء أوعز الى بعض الجواسيس بتقديم تقارير مختلقة عن أمور انا براء منها • فأرجو ان توعز الى أحد ضباط البوليس الانجليز بالتحقيق فى أمر هذه التقارير والتأكد من صحتها •

فطمأننى بأنه سوف يتخذ التدابير اللازمة حالا •

اسفر التحقيق عن ان الاشخاص المتهمين بالاجتماع فى دارى كانوا فى اماكن مختلفة فى وقت الاجتماع الموهوم ، وان احدا منهم لم يعبر الى جانب الكرخ فى تلك الليلة • وهكذا انفضحت المؤامرة ، فطرد المفوض وزج به فى السجن •

اقالة السيد طالب وابعاده

وجه المندوب السامى الى السيد طالب دعوة لتناول الشاى فى داره مساء يوم ١٦ نيسان ١٩١٢ • فلما خرج من الدعوة ، كان عدد من سيارات الجيش فى انتظاره ، فسارت فى الطريق الذى انتهى به الى الهند مرة ثانية •• وبعد ثلاثة ايام نشر المندوب السامى بيانا فى العدد ٢٧١ من جريدة العراق هذا نصه :–

(يرى فخامة المندوب السامى من المناسب ان يوقف الرأى العام على الاسباب التى اقتضت اقالة السيد طالب باشا من الحكومة واخراجه من بغداد •

ان فخامة المندوب السامى قبل مغادرته بغداد صرح مرارا علانية وفى

اثناء محادثاته مع المأمورين والاشراف بأن رغبته ورغبة حكومة جلالة الملك ترمى الى ضمان الحرية التامة للعراقيين ليعربوا عن رغباتهم بشأن نوع الحكومة التى يطلبونها والشخص الذى يريدون ان يتولى عليهم .

وعند رجوع فخامته من القاهرة « مصر » أكد تصريحاته هذه لعظمة رئيس مجلس الوزراء ، وللسيد طالب باشا لما فاتحاه بشأن المسألة نفسها .

ولكن صباح اليوم السادس عشر من الشهر الحالى بلغ مسامع فخامة المندوب السامى أمر خطاب وجهه السيد طالب باشا الى فريق من الوجهاء فى اثناء مأدبة أقامها فى اليوم الرابع عشر من الشهر الحالى اكراما لوجيه بريطانى أثناء زيارته بغداد زيارة قصيرة .

وبعد ان الح السيد طالب على ضيفه مستفصحا منه ما اذا كان بامكانه تأكيد تصريحات فخامة المندوب السامى بالنظر الى موقف الحكومة البريطانية فى هذا الشأن ، وبعد ان استفهم عن خير الطرق التى يضمن بها اقالة بعض الموظفين البريطانيين من حاشية فخامة المندوب السامى الذين لم يستحسن خطتهم ، اطرد الكلام بقوله انه هو وابناء بلاده قد عزموا على حمل ذوى الشأن على تنفيذ خطة حكومة جلالة الملك بأمانة حسب التصريحات المذكورة آنفا ، ومن ثم التفت الى أمير ربيعة والشيخ سالم آل خيون اللذين كانا من عداد ضيوفه وقال كمن يقترح اقتراحا ، انه اذا بدرت أي بادرة عكس ذلك فيجب ان يحسب حسابا للامير ربيعة والعشرين الف من رجاله المسلحين وللشيخ سالم آل خيون والقبائل التابعة له . وقد تمادى فى تهوره حتى قرن اسم عظمة النقيب فى هذا التهديد .

ان فخامة المندوب السامى لا يخامره ابدا أقل شك فى الموقف الحبى الذى للزعيمين المشار اليهما أو فى استقامة مقاصد عظمة النقيب استقامة تامة . ولكن فخامته يرى انه والحالة هذه اذا ابدى اقل تسامح فى امر التفوه بكلام ينم فى تهديد شائن باشهار السلاح فى وجه حكومة جلالة الملك ويصدر عن رجل كالسيد طالب باشا الذى يشغل منصبا خطيرا فيكون مقصرا فى القيام بواجبه نحو سكان هذه البلاد والحكومة البريطانية .

فبناء على ما تقدم وحبا بمصلحة القانون والنظام والحكومة الصالحة رأى فخامته من واجبه ان يطلب من القائد العام ان يتخذ التدابير اللازمة لابعاد السيد طالب حالا .

وقد غادر السيد طالب بغداد فى مساء السادس عشر من الشهر الحالى .)

طلب المندوب السامى بعد ذلك من فلبي الاستقالة من منصبه ومغادرة العراق . فامتثل للامر وغادر بغدار .

استمرت مكاتبتى مع السيد طالب فى منفاه الجديد . وكان يخاطبنى فى

رسائله بقوله : اخي العزيز النزيه ، واخي العزيز المصفى من الذهب الابريز ، الى غير ذلك من النعوت التي لم يسبق ان جاءت في مكاتباته السابقة . وكنت أجيبه بما تقتضيه المجاملة واللياقة .

العفو العام عن المجرمين السياسيين

في ٣٠ مايس ١٩٢١ م أعلن العفو عن جميع المجرمين السياسيين ، سواء المحكوم عليهم بالاعدام أو بالحبس أو بالنفي ، والموقوفين والهاربين . واستثني من العفو كل من جميل المدفعي ، وعبدالحميد الدبوني ، والشيخ ضاري ، وولديه ، ورفاقهم من الذين حكم عليهم بالاعدام . الا انه بعد مدة طويلة أعفي عنهم بوساطة جلالة الملك فيصل .

في المحكمة

اقترح مستشار العدلية زيادة راتبي وراتب داود سمرة من التسعمائة الى الالف ومئة روبية . فلما تماهلت وزارة المالية في تنفيذ ذلك الاقتراح ، رفع المستشار تقريرا ذكر فيه ان داود سمرة هو مؤسس المحاكم المدنية في بغداد ، وبأنني مؤسسها في البصرة ، ولذلك فهو يعتقد ان خدماتنا « العظيمة » لا تناسب وراتبينا الحاليين . فوافقت الوزارة المذكورة على الترفيع حالا .

وفي ١٠ مايس ١٩٢١ م عين كل من الحاج صالح الباجه‌جي ورشيد عالي الكيلاني حاكمين اضافيين في محكمتنا براتب قدره تسعمائة روبية .

رغب السر كارتر بونهام في اعتزال العمل ومغادرة العراق . فقررت وزارة العدلية ومدرسة الحقوق اقامة حفلة مشتركة لتوديعه ، وعهدوا الي بتنظيمها . جاءت الحفلة على جانب عظيم من الفخامة ، حضرها المندوب السامي وعقيلته والمس بيل وكبار الانجليز والوطنيين . وكان من جملة الخطباء والشعراء جميل صدقي الزهاوي ، ونجيب الراوي الطالب في مدرسة الحقوق بالنيابة عن زملائه . وفي ختام الحفلة قدم نشأت السنوي الى المحتفى به هدية مدرسة الحقوق . وهي صورة لطلاب المدرسة وأساتذتها في اطار فضي . ثم ارتجلت كلمة الختام وقدمت هدية موظفي العدلية وهي علبة سيكاير ذهبية .

قدوم الأمير فيصل وتتويجه

وصل سمو الامير فيصل البصرة فى الثالث والعشرين من حزيران ١٩٢١ فاستقبل فيها استقبالا منقطع النظير • ثم توجه الى بغداد بالقطار ، وجرى استقباله فيها بشكل لم يسبق له مثيل ، فقد كان الناس يأملون فى قدومه الى العراق انهاءً لحالة القلق والتبلبل التى سادت البلاد عدة سنين ، وفتحا لعهد جديد يخلصهم من سيئات العهود الماضية • وكانت تقام له حفلات التكريم فى كل يوم ، فيرد على الخطباء بكلمات بليغة مرتجلة ، مؤكدا اخلاصه للعرب وشغفه بتقدمهم •

ولما جرى انتخاب الملك جاء فوزه ساحقا أشبه بالاجماع • استعدت بغداد ليوم التتويج ، وأرسلت الالوية وفودها للاشتراك فى الاحتفال التاريخى • جاءت الحفلة على جانب عظيم من الروعة ، حضرها آلاف المدعوين ، وكانت الطرق المؤدية اليها مزدحمة بعشرات الألوف من الناس •

اعتلى جلالة الملك فيصل الاول المنصة ، وجلس الى يمينه السر برسي كوكس المندوب السامى ، والى يساره السيد محمود النقيب نجل السيد عبدالرحمن النقيب رئيس الوزراء ونقيب اشراف بغداد ، الذى أعاقه الم فى ساقيه عن الحضور فأرسل ابنه نيابة عنه • وبعد ان تليت خلاصة نتائج الانتخاب القى السيد محمود النقيب بعض الدعاء ، ثم تقدم المندوب السامى وهنأ جلالة الملك ، فأعقبه نائب رئيس الوزراء والوزراء ، وتعاقب المهنئون من بعد ذلك على تهنئته والدعاء له •

انتهزت فرصة وجود وفود الالوية فى بغداد فوجهت اليهم دعوة لحفلة شاى ، وأرفقت بكل بطاقة قائمة باسماء المدعوين — الذين أربوا على المائة وعشرين — لكى يتعرف كل منهم على اخوانه وزملائه • أقيمت الحفلة فى أوتيل أمبريال فى اليوم الثانى من تموز ١٩٢١ ، وكان من خطبائها وشعرائها ابراهيم حلمى العمر صاحب جريدة لسان العرب ، ومحمد حسن كبة بالنيابة عن الشبيبة الجعفرية ، وعبدالله النعمة بالنيابة عن وفد الموصل ، وشاكر النعمة

بالنيابة عن وفد البصرة ، وعطا أمين • وقد القيت كلمة شكر باعتباري صاحب الدعوة ، ثم ارتجل ناجي السويدي خطابا حماسيا بليغا • وقد أخذت للمدعوين تصاوير مشتركة •

سفرتي الى الموصل مع مولود مخلص

بعد قدوم الأمير فيصل الى العراق اقترحت على صديقي مولود مخلص القيام بسفرة قصيرة الى الموصل ترويحا للنفس • وصادف اقتراحي هوى في نفسه ، فأخذنا القطار الصاعد الى الشرقاط ، ومنها الى الموصل بالسيارة • وفي الغزلاني وقف مئات المستقبلين في انتظارنا ، فلما وصلنا انبرى الخطباء والشعراء للترحيب بمقدمنا • وكانت اقامتنا في الموصل شيقة ، دعينا خلالها الى حفلات عديدة عبرت فيها الحدباء عن ابتهاجها واعتزازها بابنيها • وفي احدى الخطب التي القيتها هناك بلغت الشعب الموصلي تحيات سمو الأمير فيصل التي حملنيها حين استأذنته بالسفر •

وكانت عودتنا صحبة الوفد الموصلي الى حفلة التتويج التي مر ذكرها •

تشكيل الوزارة الوطنية الاولى

بعد ان توج جلالة الملك فيصل ملكا على العراق قدم عبدالرحمن النقيب استقالته حسب الاصول الدستورية ، فقبلها جلالته ، وعهد اليه بتشكيلها مرة اخرى •

جاءني توفيق الخالدي الى غرفتي بالمحكمة ، وكانت غاصة بالزملاء من الحكام ، وبلغني رغبة رئيس الوزراء في قبولي منصب وزارة المعارف في الوزارة الجديدة • فاعتذرت ، قائلا انني أفضل منصب الحاكمية الدائمي على منصب الوزارة الوقتي •

اني الآن وان لم أكن مقتنعا تمام الاقتناع بصواب ذلك الرأي الا ان شعورا خفيا حملني على التمسك به • ربما كنت في اعماق نفسي أشعر بأن الوزير في تلك الايام كان يعمل بايحاء من الانجليز ، وكان مجبرا على الحد

من ميوله الاصلاحية مجاراة لما يشتهون ، بينما كان الشعب ينتظر منه خوارق الاعمال ، فاذا ما اصطدمت هذه الرغبة بتلك السياسة أصابه الفشل .

لعل الخوف من ذلك الفشل ، أو لعل حرصي الشديد على الاحتفاظ بسمعتي نقية صافية بين الناس ، ووطنيتي متطرفة جلية أمام التاريخ ، لعل هذا أو ذاك حملني على الاعتراض عن تحمل مسؤولية الحكم ...

ومهما يكن من أمر ، فأني اعتذرت ، ورجوت الخالدي ان يبلغ اعتذاري الى رئيس الوزراء بصورة لا تترك لديه ريبة . فقبل الاعتذار ومر الامر بسلام .

انفصال البصرة عن العراق

ابتليت البصرة في ذلك الحين ، أكثر من أي مدينة اخرى في العراق ، بطبقة مترفة من أهلها لا هم لها الا مصالحها ، ترعاها وتبذل كل شيء في سبيل المحافظة عليها ، فلا تقيم وزنا للاعتبارات الوطنية والاخلاقية ، ولا يردعها صوت ضمير أو نداء واجب .

خشي المترفون ان تمس مصالحهم بسوء فيما لو تسنم عرش العراق ملك عربي وتولت الحكم فيه وزارة وطنية ، اذ كانوا يجدون في رضى الانجليز عنهم نعيما ، ويرون في بقائهم تحت ربقة الاستعمار ضمانا لدوام ذلك النعيم . فلما عرض الحاكمون مشروعا لانفصال البصرة عن العراق ، تسابق عبيد القوة الى التوقيع عليه . وكان المعارضون لهذا المشروع من شباب البصرة الذوات التالية اسماؤهم : محمد زكي ، عبدالعزيز المطير ، عمر فوزي ، محمد أمين باش أعيان ، والحاج احمد حمدي الملا حسين ، الذين حين بلغت معارضتهم مسامع رئيس المحاكم المستر براهامس - وهو الذي وضع نص العريضة بالانجليزية - هددهم بالاعتقال .

نص العريضة :-

(الى صاحب الفخامة السير برسي كوكس حامل لوسام امبراطورية الهند من درجة قائد عظيم ووسام القديسين ميخائيل وجورج من درجة فارس ووسام نجمة الهند من درجة فارس المندوب السامي لاراضي العراق المحتلة .

يا صاحب الفخامة

(١) نحن الموقعين ادناه من فئة الاغلبية الراجحة من أهالى مقاطعة البصرة نرجو بكل خضوع عرض آرائنا الآتية على حكومة جلالة الملك فيما يتعلق بمستقبل مقاطعة البصرة ونوع الحكومة الخاص بها والتى نرجو من حكومة جلالته ان تسمح بتأسيسها .

(٢) غير خاف على حكومة جلالة الملك ان احتلال الجيوش البريطانية للبصرة عام ١٩١٤ قد قوبل من اهالى البصرة بمزيد الترحيب ولم يكن اذ ذاك من حاجة الى التأكيدات التى صرح بها فخامة نائب الملك فى الهند يوم ٦ فبرورى سنة ١٩١٥ لاقناعهم بان مصالحهم ستكون موضع العناية الخاصة من حكومة جلالته .

(٣) غير خاف أيضا انه منذ اليوم الاول للاحتلال قد سلك أهالى البصرة مسلكا سلميا مطابقا للقوانين كما انهم قبلوا بمزيد الارتياح نوع الحكومة التى أسست والقوانين التى سنت للبلاد .

(٤) ولا يخفى انه فى خلال الاضطرابات التى حدثت فى العام الغابر لم يحدث فى البصرة ما يعرقل سير الحكومة المحلية أو حكومة جلالته أو ما يسبب قلقا لهما من السلوك المغاير للقوانين أو نشر الدعوى العدائية ضدهما بل بالعكس كانت هذه الاضطرابات موضع السخط من أهالى البصرة الذين تجنبوا ولا يزالوا يتباعدون عن كل حركة من شأنها ارغام الجيوش البريطانية على الانسحاب ورفع الوصاية من البلاد . وهنا نرجو ان نلفت انظاركم الى قرار مجلس أشراف البصرة بهذا الشأن .

(٥) فى حين ان أهالى البصرة يقدرون أو بالاحرى يستحسنون مبادىء تقرير مصير بلادهم بأنفسهم تلك المبادىء التى على وشك ان تنشىء حكومة عربية فى البلاد المحتلة يلتمسون من حكومة جلالته تطبيق هذه المبادىء بالدقة على مقاطعة البصرة وان تكفل لها ادارة ممتازة .

(٦) ومن المعلوم جيدا ان الميزات الخاصة بالبصرة كانت سببا فى تباينها منذ اعوام عديدة عن الاراضى العراقية الواقعة شمالها وهى التى سيطلق عليها فيما بعد اسم العراق الى هذه الاعتبارات — ولما كانت البصرة بحسب موقعها الطبيعى ثغرا تتبادل فيه التجارة الدولية لذلك أمها منذ اعوام عديدة عدد ليس بالقليل من ابناء الغرب وغيرهم من الاجانب ولا يزال عددهم ينمو نموا متواليا والمرجح ان يزداد ازديادا عظيما جدا فى المستقبل القريب وقد كان من دوام الاختلاط بالشعوب الاجنبية تأثير على اهل البصرة ذهب بهم الى الاعتقاد بان تقدمهم سيكون مخالفا فى نوعه وسرعته لتقدم العراق .

(٧) ومع علمنا بذلك فالراسخ فى الاذهان هنا هو ان اهالى البصرة لكونهم فئة الاقلية بين سكان العراق ستكون بحكم الاضطرار حركاتهم بنفس النسبة وفى ذات الاتجاه كباقى اهالى العراق وبطبيعة الحال يرون وارداتهم تصرف على المشاريع التى لا يستفيدون منها شيئا بحيث يصيبهم حيف عظيم وليس من منجد أو حول على منعه ٠

(٨) وبهذه المناسبة نلتمس بخضوع أن نصور لكم موقع البصرة وما فيه من وجوه الشبه بينه وبين موقع البلاد التابعة لبريطانيا العظمى والمتمتعة بالحكم الذاتى فان تلك البلاد لبعدها عن مركز الحكومة الرئيسى ووجود الاتحاد فى المقاصد السياسية بين سكانها قد سلم بما لها من المطالب الحقة فى التمتع بحياة سياسية مستقلة اذ بهذه الكيفية وحدها نالت شئونهم ما افتقرت اليه من الاهتمام اللازم ٠

(٩) ويستفز أهالى البصرة حكومة جلالته ان تنظر فى نقطة جدالهم وهى انه اذا استاء فريق من أهالى العراق وكانت آراؤه السياسية مختلفة عن سائر أهله وسالكا مسلكا مغايرا لباقى أهل العراق فاذا ما اجبر هذا الفريق على الخضوع لأى شكل حكومة حيث لا تكون مصالحه مضمونة ينتج من ذلك نفور يقف فى سبيل تقدم جميع طبقات الامة العراقية ٠

(١٠) ولا يرغب أهالى البصرة فى شىء غير الخير لأهالى العراق ولا شىء أحب اليهم من ان يسيروا واياهم جنبا الى جنب على اسلوب تعود منه الفائدة على الفريقين وعلى العالم عموما ولكنهم يعتقدون بانه لا يمكن الوصول الى هذه النتيجة الا بمنح البصرة استقلالا سياسيا منفصلا ٠

(١١) وعليه نتشرف بعرض المشروع الآتى على فخامتكم للتفضل بتبليغه الى حكومة جلالته الا وهو انشاء ادارة سياسية مستقلة لمقاطعة البصرة ولو اننا بالطبع لا نعتبر هذا المشروع تاما أو غير قابل للتعديل مع الاسهاب ٠

(١٢) ورجاؤنا هو ان تصير مقاطعة البصرة مقاطعة منفصلة تحت اشراف أمير العراق أو أي حاكم ينتخبه أهالى العراق وتكون هذه الرابطة بين البصرة والعراق وحدة يطلق عليها اسم ولايتى العراق والبصرة المتحدتين ٠

(١٣) ويكون للبصرة مجلس تشريعى منتخب خاص بها يكون لهذا المجلس السلطة التامة فى التشريع المختص بالشؤون المحلية المحضة ولحاكم الولايتين المتحدتين الحق فى رفض أو طلب تعديل اى تشريع يمس بمصالح أهل العراق ٠

(١٤) كل قانون مشترك بين الولايتين كقانون تسليم المجرمين الفارين وتأييد

الأوامر التنفيذية وتبليغ الاعلانات وتنفيذ الاحكام ومهاجرة الاعداء والجنسية والتجنس يجب سنه أو تعديله حسبما تقتضيه الظروف بمعرفة مجلس مشترك مؤلف من عدد متساو من نواب كلتى الولايتين. وفى حالة اختلاف الآراء اختلافا كليا بين الفريقين يعرض الموضوع على ممثل حكومة جلالة الملك للبت فيه .

(١٥) وتعين بريطانيا العظمى بما لها من حقوق الانتداب شكل حكومة البصرة ومحاكمها ويعين حاكم ولاية البصرة رؤساء الدوائر فيها اما حاكم ولاية البصرة فيعينه حاكم الولايتين المتحدتين من بين ثلاثة أفراد ينتخبهم مجلس البصرة .

(١٦) وتؤسس الولايتان نظاما مشتركا للطرق وللسكك الحديدية والبريد والبرق وطرق الملاحة الداخلية وتشترك الولايتان بنفقات هذه المشروعات وعلى المجلس المشترك المذكور آنفا ان يقرر ما يجب ان تتحمله كل من الولايتين من النفقات وما يصيب كل منهما من الواردات .

(١٧) ويكون للولايتين علم مشترك يرمز الى اتحادهما وتشترك الولايتان فى تعيين نوابهما السياسيين فى الخارج ويعهد اليهم برعاية مصالح الولايتين معا وتكون الطوابع والنقود والاوراق المالية والضمانات الاميرية الاخرى ووحدة المقاييس والموازين مشتركة بينهما ويقرر المجلس المشترك المذكور آنفا قيمتها وعباراتها .

(١٨) ويكون للمجلس التشريعى السلطة المطلقة فى وضع الضرائب على المحاصيل والعقارات المحلية البحتة وايضا على السكان المقيمين بالولاية وتدفع الوارادات المحصلة من هذه المصادر الى خزينة الولاية وتستعمل تلك الاموال حسبما يقرره المجلس التشريعى .

(١٩) وتوزع أموال الرسوم الجمركية المحصلة من ميناء البصرة على الولايتين بالنسبة التى يقررها المجلس المشترك .

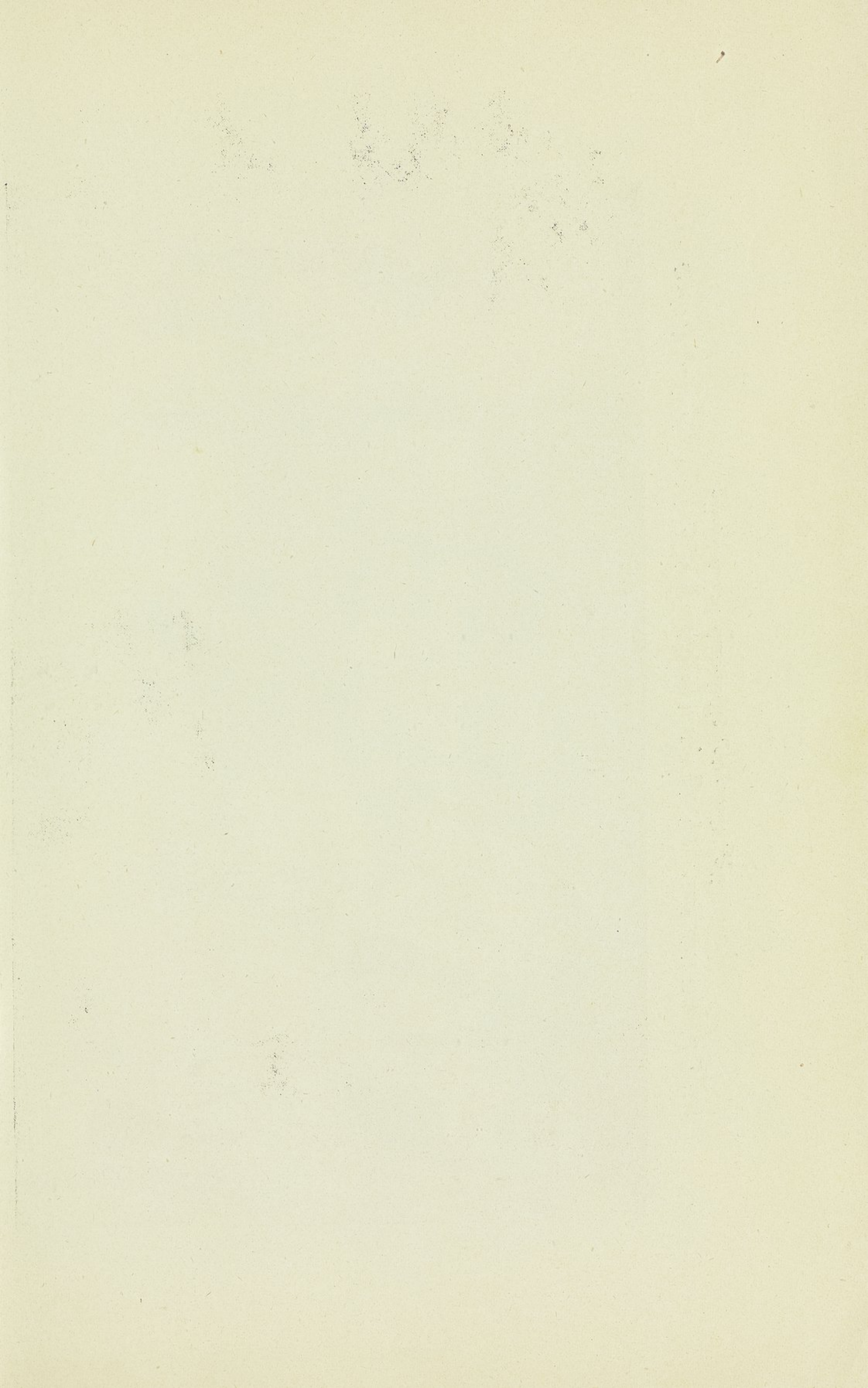
(٢٠) ويكون للبصرة قوة من رجال الشرطة وجيش خاصان بها ويشترك جيش البصرة مع جيش العراق فى دفع الغارات الخارجية عن أى قسم من أقسام الولايتين المتحدتين وتدفع البصرة سنويا مقدارا نسبيا محدودا لاعالة جيش حكومة العراق ويكون هذا الجيش تحت أمرة حاكم الولايتين المتحدتين .

(٢١) وتدفع البصرة أعانة لائقة للقيام بنفقات ديوان حاكم الولايتين المتحدتين .

(٢٢) وفى الختام نرجو بكل خضوع ابداء رأينا بسرعة لزوم منح البصرة استقلالا سياسيا على الفور ونحن نعلم ان الغرض من الوصاية هو اعداد أهالى العراق للحكم الذاتى التام وانه من الممكن ان يطلب أهالى العراق



المغفور له جلالة الملك فيصل الاول في اجتماعه بالشيخ خزعل خان · وقد ظهر الى اليمين ناجي السويدي والى اليسار احمد الصانع



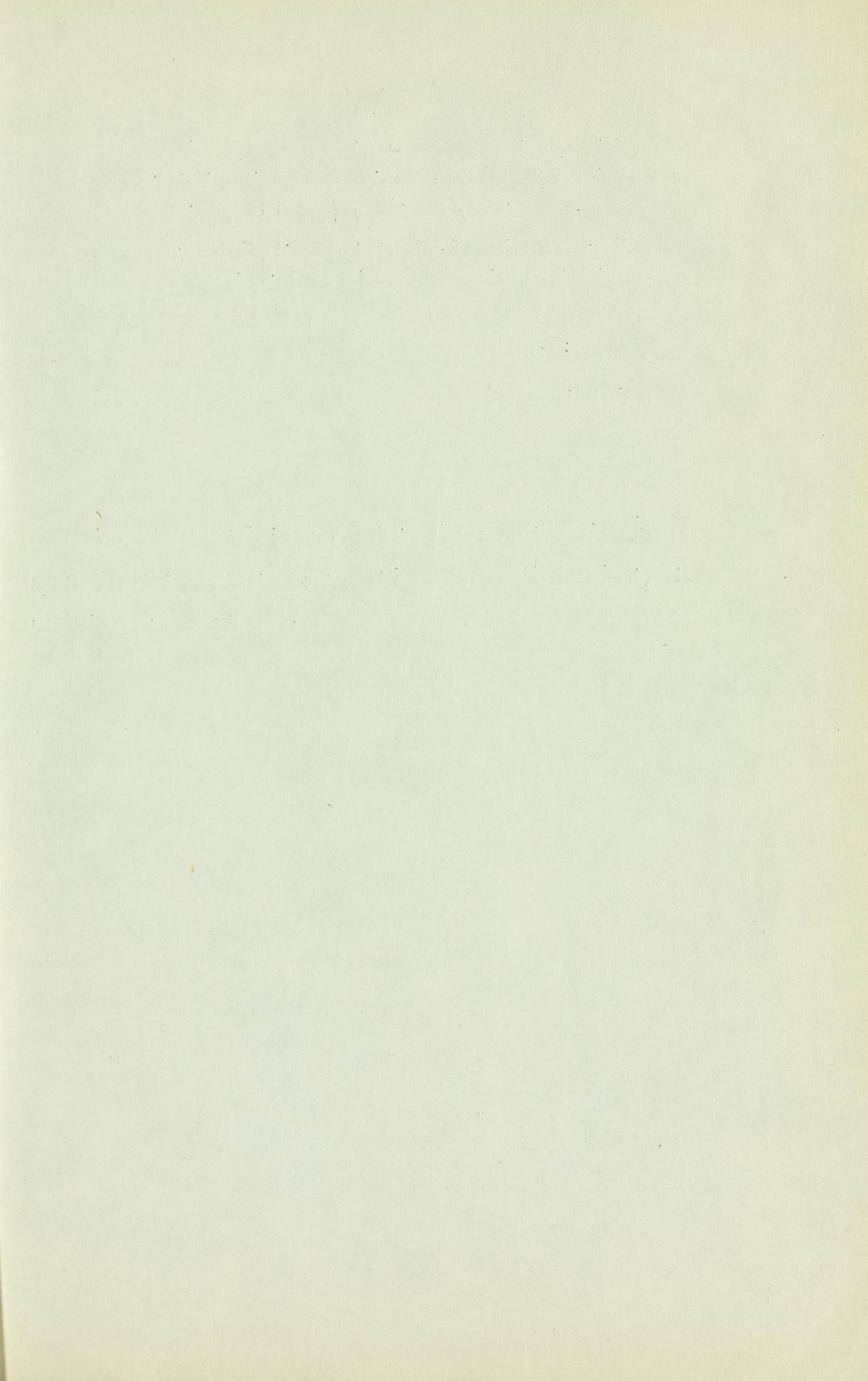
انتهاء مدة هذه الوصاية فى حين قد لا يعتبره أهل البصرة فى أوانه وقد يمكن ان لا يكون فى ذلك الحين وفاق بين أهل البصرة خلافا لما هم عليه الآن من الوفاق التام الامر الذى نذكره عن ثقة .

(٢٣) ونلتمس من فخامتكم ان تعربوا الى حكومة جلالة الملك عن طاعة أهل البصرة وولائهم لها وان أملهم وطيد بتأسيس حكومة مناسبة لهم رعاية لمصالحهم وضمانا لتقدمهم .

لنا الشرف ان نكون

البصرة فى ١٣ جون سنة ١٩٢١ — خدامكم المطيعين)

رفعت هذه العريضة الى المندوب السامى فى بغداد فلم يتخذ بشأنها أى اجراء الا انها بقيت سلاحا بيده يشهرها فى وجه جلالة الملك فيصل كلما اختلفا فى موضوع خطير ...



وقُلِ اعملُوا ...

مجلس المعـــارف الأعلى

تألف هذا المجلس لتقديم الاستشارات الى وزارة المعارف فى الامور الهامة • وألفت لجنة من اعضائه قوامها :ـ ساطع الحصرى ، مؤلف الكتاب ، ومعروف الرصافى ، لوضع نظامه • اختلفت اللجنة مع الوزارة فى تحديد سلطات هذا المجلس ، فأصرت الوزارة على ان تكون مهمته استشارية فقط ، وهى مخيرة فى الأخذ برأيه أو عدمه • وعرض الاختلاف على المجلس فأيد وجهة نظر اللجنة ، وقرر حل نفسه والاعتذار عن العمل •

جمعيـة اخوان الأدب

اقيمت حفلة أدبية فى قاعة سينما رويال ، فى ١١ تشرين ثانى ١٩٢١ ، كان الغرض منها تأسيس جمعية أدبيـة تنهض بالادب العصرى وبالصناعة الادبية فى هذه الديار • وقد ترأس الحفلة الشاعر الكبير جميـل صدقى الزهاوى ، وجرى انتخاب لجنة لوضع نظام الجمعية المذكورة ، ففاز الذوات التالية اسماؤهم :ـ جميل صدقى الزهاوى ، ابراهيم حلمى العمر ، الدكتور أمين معلوف ، المؤلف ، ساطع الحصرى ، معروف الرصافى ، والشيخ مهدى البصير •

اما مصير اللجنة والجمعية فمؤسف حقا • ذلك ان الرصافى اغتاض لانه لم يحز من أصوات الناخبين الا عددا ضئيلا ، فانسحب من الجمعية ، أما بقية اعضاء اللجنة فقد تماهلوا فى حضور اجتماعاتها ، وحدث ان اجتمعنا مرتين فى دار الدكتور معلوف ـ الزهاوى ، وانا ، وصاحب الدار ـ ولـم يحضر الآخرون • وهكذا انحلت الجمعية من تلقاء نفسها •

المعهـد العلمى

تأسس فى بغداد ناد يلم شتات المفكرين والادباء والصحفيين • وقد ساهم فى تأسيس هذا النادى كل من :ـ ثابت عبدالنور ، صادق حبه ، نورى فتاح ، حسن صائم النقيب ، حمدى الباجه‌جى ، محمد حسن كبة ، ابراهيم الواعظ ، علاءالدين النائب ، محمد باقر الحلى ، وفائق شاكر •

وقد انتميت اليه بعد تأسيسه ، ثم انتخبت عضوا فى هيئة ادارته •

وواظبت على التردد عليه فى اوقات فراغى ، حتى مغادرتى بغداد بعد استقالتى من الحاكمية .

أول مدرسة للاناث فى الكرخ

كان جانب الكرخ حتى ذلك الحين يفتقر الى مدرسة ابتدائية للاناث ، وكانت الطالبات من ذلك الجانب يعبرن الى الرصافة للدراسة فى مدارسها . فراجعت وزارة المعارف مطالبا بفتح المدرسة المذكورة ، فأشير عليّ بتقديم عريضة بهذا الشأن . نظمت العريضة وحصلت على توقيع يوسف السويدى عليها ، ثم أسلمتها بيد الشيخ كاظم الدجيلى ، فطاف على وجهاء الكرخ وأعيانه للتوقيع ، ثم أعادها اليّ بعد ذلك . فقدمتها الى وزارة المعارف ، ولم تمض أيام قليلة حتى فتحت المدرسة أبوابها واستقبلت طالباتها .

سوق عكاظ

أقامت الشبيبة العراقية فى بغداد مهرجانا أدبيا كبيرا أسمته « سوق



وفد الموصل فى سوق عكاظ وهم من اليمين : سعيد الحاج ثابت . المؤلف . مولود مخلص . مصطفى العمرى

عكاظ » تشبها بما كان يجرى فى زمن الجاهلية ، حيث يتطارح الشعراء بدائع القريض ، ويتبادل الخطباء درر البلاغة وآيات الفصاحة • وقد طلب القائمون بالمهرجان من الالوية ارسال وفود عنها للاشتراك فيه ، فانتخب أهل الموصل وفدا مؤلفا من :ـ مولود مخلص ، ومصطفى العمرى ، ومؤلف الكتـاب ، وسـعيد ثابت •

وقد أصاب المهرجان نجـاحا كبيرا ، وحضره جـلالة الملك فيصل ، واشتركت فيه كل المدارس الحكومية والاهلية ، وقامت الآنسة صبيحة الشيخ احمد الداود بدور الخنساء ، فاعتلت ظهر الناقة وأدت دورها خير اداء •

وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ••

ان أول من فكر فى تأسيس ملجأ فى بغداد يأوى الايتام المعدمين هو عبدالحميد صالح بابان أحد موظفى الطابو فى بغداد • وقد أفضى بفكرته هذه الى زمرة من أصدقائه ، فاستحسنوها وأبدوا استعدادهم لمؤازرته فى اخراج المشروع الى حيز العمل • وانكبوا هو ، وعبدالله العبايجى ، وعبدالقـادر التكرلى ، وتوفيق المختار ، على وضع النظام الاساسى لما أسموه « الجمعيـة الخيرية الاسلامية » ؛ ثم تقدموا بطلب رسمى الى وزارة الداخلية لتأسيس الجمعية المذكورة ، مرفق بالنظام الاساسى • وكان ذلك فى ٣١ آب ١٩٢١

وبعد ثلاثة اشهر من تقديم الطلب أجابت وزارة الداخلية بكتاب جاء فيه ان البلدية أخذت على عاتقها اسـعاف الفقراء ، لذلك فالوزارة تنسب أن تكون اعمال هذه الجمعية مشتركة مع اعمال البلدية الخيرية وتحت اشرافها •

فلما وصلهم هذا الكتاب أسقط فى ايديهم • الا ان عبدالله العبايجى ، وهو من اصدقائى القدماء ، اقترح على زملائه ان يستعينوا بي لعلى أجد لهم مخرجا •

وفى ذات ليلة زارنى أربعتهم ، ورووا لي الحكاية ، وطلبوا معاضدتى لهم فى تحقيق هذا المشروع الجليل ، فلبيت طلبهم بكل سرور •

اتصلت بالحكام والمحامين ، واقنعتهم بالانتماء الى الجمعية وبالتبرع لصندوقها براتب شهرى ضئيل ، فألفيتهم معجبين بالفكرة ، ودفعوا ما قسم الله عن طيب خاطر .

شجعنى هذا النجاح على توسيع الحركة ، فنشرت بيانا فى الصحف ومنشورا يدويا وزعت منه آلاف النسخ فى سائر أنحاء العراق . وما هى الا ايام قلائل حتى انهالت عليّ التبرعات من كل حدب وصوب ، وجاء بريد الالوية بمئات الرسائل يطلب أصحابها الانتماء الى الجمعية ، ويقدمون اشتراكاتهم الشهرية الى صندوقها ، وعاضدت الصحف المحلية الجمعية بنشر بياناتها وقوائم التبرعات لها ، وأخص بالذكر منها جريدة « لسان العرب » لصاحبها ابراهيم حلمى العمر ، وجريدة « الاستقلال » لعبدالغفور البدرى ، وجريدة « العراق » لصاحبها رزوق غنام ومحررها روفائيل بطى . وانبرت الطوائف غير المسلمة لمؤازرة الجمعية الخيرية الاسلامية ، فوجه المطران اثناسوس جرجس دلال رئيس أساقفة السريان فى بغداد ، وعزرا مناحيم دانيال ، والحاخام باشى فى بغداد ، وسيادة المطران عمانوئيل الثانى ، وجهوا نداءات الى طوائفهم ومللهم يحضونهم على المساهمة فى المشروع .

ودعانى جلالة الملك فيصل لمقابلته ، فاستفسر عن الجمعية وعن نظامها وغايتها ومدى النجاح الذى اصابته ، ووجه اليّ اللوم لاغفالى اطلاع جلالته على أمر الجمعية فى بداية تأسيسها ، وأبدى جلالته رغبته الأكيدة فى تبنيها ، فأمر ناظر الخزينة بدفع ألف روبية آنيا ، وراتبا شهريا قدره أربعمائة روبية تبرعا لصندوقها ، وأصدر جلالته أمره الى موظفى البلاط للمساهمة فيها ، وأمر كذلك بالايعاز الى جميع الوزراء ليحثوا موظفيهم على مساعدتها بنسب معينة من رواتبهم ، تستوفى من امناء صناديق الوزارات مباشرة . فخرجت من لدن جلالته شاكرا فضله ، داعيا بدوام عزه .

زرت رئيس الوزراء ، وقدمت له نظام الجمعية الداخلى ، بعد ان أدخلت عليه بعض التعديل ، فلقيت منه تشجيعا ، وصدر الاذن بتأسيس الجمعية رسميا ، وبالموافقة على افتتاح الميتم الاسلامى .

كانت الجمعية فى ذلك الحين قد أصبحت من الشهرة بمكان ، وكانت الايرادات الشهرية تأتيها بانتظام ، فتجمع لديها المال الكافى للمباشرة بالعمل . وكنا فى الحقيقة قد سبقنا صدور الاجازة الرسمية ، فاستأجرنا دارا واسعة فى جانب الكرخ قرب بيت النواب ، زودناها بالاسرة والفرش ورحلات الصفوف ، وغيرها من لوازم المدرسة وقسمها الداخلى . وأدخلنا فيها عددا من اليتامى ، فاكسيناهم وعنينا بهم . فلما حصلنا على الاجازة ضاق الميتم بطلابه . وفى ذلك الحين انضم الى الهيئة الادارية السابقة للجمعية السادة :ـ الحاج عبداللطيف المدلل ، الشيخ احمد الظاهر ، قاسم العلوى ، وعبدالرزاق منير .

كنت أزور الجمعية كل يوم واقضى فيها الساعات الطوال ، فقد كان المشروع بحد ذاته يحتاج الى جهود كبيرة . وكنا نحارب فى جبهتين : فى الاوساط الشعبية لجمع المال اللازم ، وفى الميتم للعناية بصحة الايتام وبتدريبهم وتنشئتهم نشأة صالحة .

وفى ذات يوم زرت حجةالاسلام الامام الشيخ مهدى الخالصى مستصحبا عشرة من طلاب الميتم ، فسر لما رآه من نظافتهم ونظامهم وحسن أدبهم ، وشكرنى والجمعية على جهودنا ، ووعدنى بحث الناس على مساعدتنا ، ورحب بأن يصبح نجله الشيخ محمد الخالصى عضوا فى هيئة ادارة الجمعيه .

عينت الجمعية يوم ٦ كانون الثانى ١٩٢٢ م موعدا لافتتاح الميتم .

افتتاح الميتم الاسلامى

غصت ساحة الدار وشرفاتها بالمدعوين ، يتقدمهم فهمى المدرس رئيس الديوان الملكى مندوبا عن جلالة الملك ، والسيد محمود النقيب بالنيابة عن والده رئيس الوزراء . وافتتحت الحفلة بتلاوة آى من الذكر الحكيم من قبل قاسم البزركان الطالب بمدرسة التفيض آنذاك . ثم تعاقب الخطباء والشعراء فى القاء خطبهم وانشاد قصائدهم وكانوا :ـ توفيق المختار ، الشيخ مهدى

البصير ، عبدالرحمن البناء ، ضياء يونس ، عطا أمين ، الرصافى ، ومؤلف الـكتاب •

وبعد ذلك تقدمت ابنتى الصغيرة من منصة الخطابة فنزعت سوارين ذهبيين من يدها وقدمتهما الى أحد الحضور قائلة :ـ اعطوها للايتام • فافترح الحاضرون وضعهما بالمزايدة • وفتحت المزايدة بعشر ربيات ، واختتمت بمبلغ ٤٥٥٠ روبية • وقد اشترك فيها مندوب جلالة الملك ، فضم على السوارين بألف روبية نيابة عن جلالته • ورسى العطاء أخيرا على عباس أفندى المتعهد ، فتناولهما من يد المنادى وقدمهما ثانية الى ابنتى ، مما كان له أطيب الوقع فى نفوس الحاضرين •

وقبل انتهاء الحفلة جرت انتخابات الهيئة الادارية ، ففاز السادة :ـ

المؤلف ، الحاج جعفر ابو التمن ، الشيخ احمد الظاهر ، عبدالله العبايجى ، الحاج نجم المدرس ، عبدالرزاق منير ، الشيخ محمد الخالصى ، عبداللطيف المدلل ، الشيخ احمد الشيخ داود ، قاسم العلوى •

ثم جرى انتخاب الرئيس ففزت بأكثرية الاصوات •

وفى اثناء اشتغالى بالجمعية الخيرية رأيت من كرم الشعب العراقى امثلة رائعة ، ومن تهافت ابنائه على عمل الخير الشىء الكثير • ان ما يحتاج اليه العراقى هو ان تحضه على عمل الخير فتجده يدفع بسخاء منقطع النظير •

دخلت طفلة دون العاشرة الى مكتب الجمعية ، وقدمت روبية قائلة انها جمعتها من يومياتها وانها ستجهد فى تقديم روبية اخرى فى كل شهر • واستوقفنى ذات يوم رجل بملابس رثة ، وسألنى عما اذا كنت رئيس الجمعية الخيرية ، فلما أجبته بالايجاب أخرج من صرة ثلاث روبيات قدمها الي ، ورجانى ان أدون اسمه عندى كمشترك • فسألته عن مهنته ، فقال انه (قفه‌جى) • فقلت له : ان هذا كثير عليك وانت رجل فقير •

فأجاب باصرار : (آني راس الشهر أجيبها عود جنابك لا تقبلها '..)

فشكرته ودعوت له بالرزق والبركة •

وساهمت المرأة فى المشروع بأوفر نصيب ، فكانت الاشتراكات ترد من السيدات بانتظام ، وكن يرسلن الملابس والبطانيات وغير ذلك .

ولم يتوان الاطباء عن القيام بخدمة الجمعية ، فوردنى هذا الكتاب موقعا من قبل الدكاترة صائب شوكت ، فائق شاكر ، هاشم الوترى ، اسماعيل الصفار ، وسامى شوكت :ـ

(نبدى رغبتنا فى الانتساب الى جمعيتكم الجليلة الخيرية الاسلامية مع تقديم الراتب المقنن . ونرجو قبول تعهداتنا أيضا بمعالجة الايتام وكذا الفقراء والذهاب الى منازلهم من الذين بيدهم وثيقة من رئاسة الجمعية مجانا وبتوسطنا بادخالهم المستشفيات عند الايجاب) .

وقد هيأت الجمعية صيدلية جمعت فيها الادوية اللازمة .

ونظرا للتوسعات التى طرأت على المؤسسة فقد انتقلت الى بناء كبير محاط بحديقة واسعة فى محلة الجعيفر ، وعينت السيد عبداللطيف العلوى مديرا للميتم ، وكان ذا دين ومروءة وخلق رضي ، فأحسن تربية طلابه وحنا عليهم حنو الأب الشفوق .

وبأمر من جلالة الملك عينت وزارة المعارف المعلمين اللازمين . كما ان ادارة الجمعية ، رغبة منها فى توجيه الايتام توجيها صناعيا عمليا ، أدخلت درس النجارة فى مناهج المدرسة واستخدمت لهذا الغرض عددا من النجارين ، وكانت مصنوعات الجمعية تباع بأسعار طيبة .

ولما كان الكثير من طلاب المعهد غير مختونين ، فقد تبرع اطباء الجمعية بختانهم مجانا . وفى ليلة الختان حضرت جماهير غفيرة من أهل الكرخ تتقدمهم الاعلام وفرقة الموسيقى والطبول ، وطافوا بهم فى الشوارع وهم ينشدون الاهازيج والهوسات ، مما أدخل السرور الى قلوب اليتامى .

زار الجمعية المحسن المعروف مناحيم صالح دانيال ، وطاف فى أرجائها ، فسر لما رآه ، وتبرع لها بمقدار كبير من الرز والدقيق .

وقد ابدى رغبته فى ان تحضى الجمعية ببناء تستملكه ، اذ انها لا تستطيع الصمود طويلا ان هى استمرت فى دفع بدلات الايجار الباهضة • واقترح علي ان اسعى للحصول على ارض من وزارة الاوقاف ؛ وقطع على نفسه عهدا ، ان انا حصلت على الارض ، ان يتبرع بألف ليرة ذهبية لانشاء مبنى للميتم عليها • فشكرته على شعوره الفياض ، ووعدته بالسعى •

ذهبت كل محاولاتى للحصول على أرض موقوفة عبثا ، بالنظر الى معارضة المستر كوك ـ مستشار وزارة الاوقاف ـ وتعنته • الا انه بعد استقالتى من رئاسة الجمعية وسفرى الى البصرة ، كما سيأتى ذكره ، انتخبت الجمعية صبيح نشأت ـ أمين العاصمة في ذلك الحين ـ رئيسا لها ، فجدد المساعى لاستملاك الارض ، وواتته الظروف بسفر المستشار الانجليزى ووجود عبداللطيف المنديل فى منصب وزارة الاوقاف ، فتمكن من الحصول على بستان فى العيواضية أنشىء عليه الميتم القائم حتى اليوم •

وحالما سمع مناحيم دانيال باستملاك الارض سارع الى الوفاء بتعهده ، فأرسل الي صكا بمبلغ الف ليرة ذهبية لامر الجمعية • وكلما رجاه هو ان يكتب اسمه على حجر يوضع فى مدخل المبنى • فأجبته شاكرا فضله ووعدته بتنفيذ رغبته ، كما انى حولت المبلغ الى الجمعية للتصرف به •

قدمت استقالتى الى الجمعية لاعتزامى السفر الى البصرة ، بعد ان قبلت استقالتى من الحاكمية • وقد انتخب من بعدى صبيح نشأت رئيسا ، فوجه الي كتاب شكر بتاريخ ١ تشرين الاول سنة ١٩٢٣ لا زلت احتفظ به ، وفيه يعرض علي قبول العضوية الدائمية فى الجمعية • وكان دائبا على مراسلتى ، يحيطنى بكل ما يجد من أمورها •

لم آل جهدا ، حتى بعد عودتى الى البصرة ، فى مساعدة الجمعية ؛ فكنت أجمع لها التمور والاشتراكات من البصرة والكويت والالوية الجنوبية ، واستطعت مرة الحصول على تبرع من الشيخ خزعل بمبلغ الف روبية •

ثم أصبح ناجي السويدي رئيسا لها من بعد صبيح نشأت ، فلم يكف عن الكتابة الي بين الفنية والاخرى • وقد وصلني منه بتاريخ ٨ مايس ١٩٢٥ هذا الكتاب :

« بعد عرض التحية والتكريم •

بناء على ما لكم من الايادي البيضاء والمساعي المشكورة المشحونة بالرأفة والحنان تجاه الايتام منذ احداث هذه المؤسسة ، وبذل قصارى جهدكم نحو اعلاء شأنها بالمعونة المالية والبدنية ، فقد قررت هيئة الديوان العام للجمعية باتفاق الآراء على ان نعرض على سيادتكم عضوية الشرف الدائمية في الجمعية المذكورة • فالرجاء ان تتفضلوا بقبولها وان تلاحظوا ايتام الجمعية بعين عنايتكم ونسأله تعالى ان يوفقكم الى مساعدة كل مشروع خيري وان يجعلكم قدوة حسنة لامثالكم من المحسنين المخلصين • مع قبول فائق الاحترام »

ابعاد بعض الوطنيين

بعد استقالة وزارة النقيب أصدر الحزب الوطني وحزب النهضة بيانا مشتركا في جريدتي (المفيد) و (الرافدين) اعتبرته الحكومة الانجليزية معاديا لها ، فاتخذت اجراءات سريعة بالقاء القبض على كل من جعفر ابي التمن ، وحمدي الباجه جي ، والشيخ مهدي البصير ، وسامي خوندة صاحب جريدة الرافدين ، والحاج أمين الجرجفجي ، وعبدالرسول كبة ، والشيخ حبيب الخيزران رئيس قبيلة العزة ، وابعادهم الى هنجام • وقد أصدر المندوب السامي هذا البيان بتاريخ ٢٦ آب ١٩٢٢ :ـ

(انه حتى والى أن تعقد المعاهدة فان حكومة العراق والمندوب السامي البريطاني مشتركان في المسؤولية معا أمام حكومة بريطانيا فيما يتعلق بالامن والهدوء في البلاد • وانه في الوقت الحاضر بالنسبة لاستقالة وزارة النقيب قد أصبحت وظائف مجلس الوزراء في حالة التعطيل بينما في ذات الوقت قد اعترى صاحب الجلالة الملك فيصل فجأة مرض الزائدة الدودية وأخطر لاجراء عملية جراحية عملت أمس وحسب المفهوم انها نجحت • فقد نشأت في بغداد روح الفتنة بسبب منشورات فئة من أرباب السياسة ، فاقتضى اتخاذ اجراءات سريعة للمحافظة على السكينة • ولما كان قد صدر

قرار من اللجنة المشتركة من هيئة الحزب الوطني وحزب النهضة ونشر في جريدتي المفيد والرافدان المتضمن العداء للحكومة والدعوة للفتنة · فاضطررت أنا المندوب السامي للقيام بواجبات مسئوليتي أمام حكومة بريطانيا لاتخاذ التدابير الآتيه : القاء القبض علي جعفر أبوالتمن وحمدى الباجه‌جي والشيخ مهدى البصير وابعادهم من بغداد وعلى أربعة آخرين واقفال الحزبين الوطني والنهضة موقتا وتعطيل جريدتي المفيد والرافدان وابعاد مديريهما ··الخ)·

ابن عبدكه

ابن عبدكه ثائر شعبى من عامة الاكراد ، اشتهر بالشجاعة والاقدام ، وكان له في اثناء الثورة العراقية مواقف مشرفة ضد الانجليز في لواء ديالى · وانك لتجد في كل ثورة شعبية أقرانا لابن عبدكه ··· رجال يأتون من الاعمال ما يجعلهم في طليعة الثوار ، دون ان يكون لهم ادنى اتصال بقيادة الثورة ، أو علم بخططها وأهدافها · فتراهم يبدأون جهادهم ويختمونه بالشكل الذى يختارونه ، وفي الوقت الذى تحدده لهم الظروف والمناسبات ، دون ان يحرصوا على ربط هذا الجهاد من حيث الزمان والمكان والاسلوب بالحركات الواسعة التي تجرى في سائر انحاء البلاد ·

ابن عبدكه متمرد ، يرأس عصابة متمردة ، ارتكب من جرائم القتل العدد العديد ، ويقول الناس انه لم يقتل ضعيفا ولا رجلا صالحا · فلما نشبت الثورة العراقية وأخلى الانجليز بعقوبة دخلها ابن عبدكه ، ونصب نفسه مديرا للامن فيها ، وبطش بالجواسيس ، فقتل بعضهم وأحرق دورهم ، مما أثار حقد الانجليز ونقمتهم عليه ·

وفي عهد الحكومة الوطنية ألقي القبض على ابن عبدكه ، وسيق الى المحكمة الكبرى في بغداد بتهمة قتل موظف رسمي اثناء تأدية واجبه · وحكم عليه بالاعدام شنقا · ميّز ابن عبدكه الحكم لدى محكمة التمييز ، فتبين لنا ان القتيل لم يكن موظفا رسميا ، وانما هو أحد الاهلين المأجورين كان الانجليز قد عهدوا اليه بالتجسس على الناس لحساب دائرة الاستخبارات ، وان القانون لا يعاقب على مثل هذه الجريمة بأكثر من الحبس خمسة عشر عاما ·

اختلف حكام التمييز في اصدار القرار على هذه الجريمة ، فاتفق الرئيس

وعضوان على تصديق حكم الاعدام ، وعارضته أنا ورشيد عالى . أجلت الجلسة عدة مرات ، وكانت تأتينا التوصيات المتكررة من المندوب السامى بتصديق الحكم ، فلم نأبه لها . وقد شغلت هذه المحاكمة الرأى العام ، فكنت ترى قاعة المحاكم وفسحتها مكتظة بآلاف الناس ، وكانوا كلما خرجت أو خرج رشيد عالى هتفوا لنا وأكبروا موقفنا لانقاذ ابن عبدكة من المشنقة .

صدر الحكم بتصدير قرار الشنق بأكثرية الاصوات ، ودونت معارضتنا الشديدة انا ورشيد فى نص القرار . فلما اطلع جلالة الملك فيصل عليها امتنع عن تصديقه ، وأمر بتخفيف العقوبة الى الحبس لمدة خمس عشرة سنة . وقد علمت بعد ذلك ان ابن عبدكه قضى مدة الحبس ثم اطلق سراحه .

خلاف يؤدى الى الاستقالة

عزمت الحكومة على تشكيل الجيش الوطنى ، وعلى التوسع فى ملاكات الدوائر ، مما حمل الميزانية عبئا ثقيلا ؛ لذلك ارتأت – تخفيفا لهذا العبء – تخفيض رواتب الموظفين . علمت ان راتبى ورواتب زملائى حكام التميز سوف يخفض الى ثمانمائة روبية ، وهو مبلغ لم يكن يكفى لسد نفقاتي الكثيرة ، فقدمت بالاشتراك مع الزملاء اخطارا الى وزارة العدلية باستقالتنا بعد شهر واحد ان هى أصرت على اجراء التخفيض الآنف الذكر . انقضى الشهر دون ان تستجيب الوزارة لطلبنا . فعزمت على تقديم استقالتى ، بينما فضل زملائى البقاء فى مناصبهم والانصياع للامر الواقع .

أصبت فى ذلك الحين بصداع مستمر ، فنصح لي الاطباء بالخلود الى الراحة ، لذا طلبت اجازة لمدة شهرين . وعلم عبدالمحسن السعدون – رئيس الوزراء آنذاك – بعزمى على الاستقالة فدعانى اليه ورجا مني التريث حتى يجد مخرجا للامر ، وعرض عليّ ، كتسوية مؤقتة ، قبول منصب متصرفية المنتفك بالراتب الذى أنسبه لنفسى . فشكرته واعتذرت قائلا له بصراحة بأننى لا استطيع ارضاء الاهلين ، والحكومة ، والمفتش الادارى الانجليزى ، فى آن واحد ، اذ لا مندوحه من الاصطدام باحدى تلك الجهات الثلاثة ، وهذا مالا يسرنى كما انه لا يسره هو أيضا .

وهكذا غادرت بغداد مع عائلتى ، وحضر لتوديعى الى الباخرة جمع من الاصدقاء بينهم عبدالمحسن السعدون وناجى السويدى وغيرهم •

وفى ١٤ تشرين ثانى سنة ١٩٢٢ رفعت استقالتى الى وزير العدلية ، وكتبت فى الوقت نفسه الى المستر دراور مستشار العدلية ، والى رئيس محكمة الاستئناف أعرض لهما اسباب الاستقالة ، وأرجوهما ان يتوسطا لدى الوزير لقبولها • كذلك قدمت استقالتى من التدريس فى مدرسة الحقوق للاسباب ذاتها • وفى ٢٢ منه وردت اليّ البرقية التالية :

« سليمان فيضى • بصرة

يحزننى ان اراكم صممتم على الاستقالة وأرجو نظرا للاحوال الحاضرة ان تفكروا فى المسألة مليا وتسحبوا استقالتكم •

محسن رئيس الوزراء »

فأجبته فى ٢٦ منه ببرقية هذا نصها :

« فخامة رئيس الوزراء الأفخم

اعرض ان لسانى عاجز عن اداء الشكر لفخامتكم على اللطف الذى تفضلتم به فى برقيتكم • اؤكد لفخامتكم باننى اعتبر نفسى سعيدا اذا خدمت الحكومة التى يرأسها دولتكم ولكن بعض الاسباب الخاصة والصحية تضطرنى الى ترك الوظيفة والاشتغال بالمحاماة تخلصا من الاشغال الكثيرة التى انهكت قواى وأثرت فى صحتى كما تبين بنتيجة الفحوص الطبية هذا واننى فى كل الاحوال رهن اشارتكم فأكرر رجائى بقبول عذرى واعفائى من الوظيفة والامر لفخامتكم دام عزكم •

سليمان فيضى »

وهكذا قبلت استقالتى • وارسل اليّ المستر دراور رسالة رقيقة يعرب فيها عن أسفه البالغ وقد جاء فيها :-

(انى واثق بأنكم سوف تجنون أرباحا طائلة من المحاماة ، ولكن ربحكم الشخصى سيكون فى الوقت نفسه خسارة لا تعوض للقضاء وللحكومة)

ثم جاءتنى رسالة من رئيس الاستئناف مرفقة باجازة المحاماة . وعلى أثر ذلك عين عارف السويدى حاكم صلح بغداد فى محلى الشاغر .

صدقت نبوءة دراور ، فقد أصبت فى مهنة المحاماة نجاحا منقطع النظير ، وجنيت منها ارباحا تكاد الرواتب الحكومية لا تكون الى جانبها شيئا يذكر .

مشكلة الموصل

برزت فى تلك الآونة مشكلة خطيرة أقلقت بال العراقيين ، تلك هى مطالبة الاتراك بالموصل . وكان الاتراك يستندون فى دعواهم على ان جيوش الحلفاء لم تكن قد احتلت الموصل عند وقوع الهدنة ، بل دخلتها بعد الهدنة . ويقول الانجليز من جانب آخر ان الموصل جزء لا يتجزأ من العراق من جميع النواحى ، سواء كانت جغرافية أو عنصرية أو قومية . فلما استعصى على الطرفين المتنازعين حل الخلاف رفعاه الى مؤتمر لوزان .

التزم اهل الموصل السكوت فى هذا الخلاف ، فلم يرتفع صوت واحد للتعبير عن أمانيهم ورغباتهم ، كأن الامر لا يعنيهم ، وكأن بلادهم سلعة تباع وتشترى . كانت حالهم اشبه بالعبيد فى سوق النخاسين ... يرقبون المزايدة باستسلام وانقياد ، حتى اذا ما أومأ اليهم سيدهم الجديد تبعوه الى حيث يريد .

عزّ على بعض أبناء الموصل المقيمين فى بغداد هذا السكوت ، فصمموا على العمل . وكنت قد جئت الى بغداد للمرافعة أمام محكمة الاستئناف فى احدى الدعاوى ، فدعانى ثابت عبدالنور الى اجتماع يعقد فى داره . ذهبت فوجدت هناك أكثر الموصليين البارزين فى بغداد ، والقي موضوع الموصل على بساط البحث ، فقرر الحاضرون تحرير التعهد التالى والتوقيع عليه :ـ

(قد اتفقت آراؤنا نحن اصحاب التواقيع بالنظر الى المرحلة الخطيرة التى وصلت اليها قضية الموصل على ان يحرر كل منا الى اصدقائه واقربائه بصورة شخصية ومنفردة ، وان يكتب حضرة الاستاذ الفاضل الحاج سليمان فيضى باسم جميع الموصليين القاطنين فى بغداد الى الذوات البارزين فى الموصل ، رسائل تحثهم على انتخاب ممثلين عنهم ليدافعوا عن مصالحهم وليعبروا عن أمانيهم فى

فى الاوساط الوطنية والاجنبية ولحضور المؤتمرات الدولية اذا اقتضى الامر .

حرر فى ١٥ كانون ثانى ١٩٢٣ .

التواقيع

مولود مخلص ، ثابت عبدالنور ، عبدالاله حافظ ، شاكر سليم ، توفيق النائب ، محمد سليم الجراح ، محمد علي مصطفى ، محيىالدين ابو الخطاب ، وتواقيع اخرى لم استطع معرفة اصحابها)

ثم وافق الحاضرون على صورة الكتاب الذى كلفت بتوجيهه الى أهل الموصل نيابة عن المجتمعين وهذا نصه :ـ

« سيدى

بعد التحية والتبجيل . نظرا الى حراجة موقف الموصل فى هذه الآونة كلفنى فريق من الموصليين المقيمين فى بغداد بأن أوجه اليكم هذا النداء لتذكيركم بواجبكم تجاه مدينتكم والدفاع عن مصالح ابنائها والمحافظة على حقوق أهلها . لذا فانى اقترح عليكم ان تسارعوا الى انتخاب وفد يتراوح عدد اعضائه بين الثلاثة والخمسة ممن تثقون بقدرتهم ونواياهم وذلك ليكونوا فى العاصمة على اتصال دائم بالحكومة الوطنية وليعبروا عن أمانيكم ورغباتكم وليقوموا بتمثيلكم فى المؤتمرات الدولية اذا اقتضى الامر . وتفضلوا بقبول مزيد الاحترام »

أخذ ثابت عبدالنور النداء ، فطبع منه مئات النسخ ، بينما اشتغل ابو الخطاب فى اعداد الغلافات وكتابة الغناوين عليها . فلما وقعتها ختمها وأخذها بنفسه الى الموصل ، حيث وزعها على أصحابها .

أثارت هذه الرسائل اهتمام الموصليين ، فعقدوا اجتماعات عديدة لانتخاب ممثليهم ، ولست أدرى لماذا أحاطوا اجتماعاتهم بالتكتم ، مما أثار شكوك الحكومة حولها ، فأصدرت أمرا بمنعها . وحاول المتصرف رشيد الخوجة الحصول على نسخة واحدة من النداء فلم يفلح .. فذهبت الظنون بالمسؤولين

مذهبا بعيدا عن الواقع ، واعتقدوا ان فى الامر سـرا . ولعب الحظ دوره فى المسألة ، فاكتشفت الحكومة فى تلك الآونة أمر البرقية التى أرسلها فريق من الموصليين المتألمين من الانجليز الى مؤتمر لوزان ، يطلبون فيها انضمام الموصل الى تركيا ؛ فتولد لدى الحكومة اعتقاد راسخ بأننى كنت المحرض على ارسالها . ويشهد الله ان احدا من الذين ارسلوا تلك البرقية لم يكن ممن وجهت اليهم ندائى الوطنى ، وان الاستياء الذى انتابنى من أمر تلك البرقية كان شديدا جدا الى درجة لا يمكن وصفها ... ولكن تجرى الرياح بمالا تشتهى السفن ..

دعانى عبدالمحسن السعدون الى مكتبه ، فلما حضرت بدأ يعاتبنى أشد العتاب كقوله : نحن اصدقاء ، وكنا دائما كذلك ، فما الذى جرى بينى وبينك حتى ناصبتنى العـداء على حين غرة ؟

فاستغربت من قوله هذا ، وسألته أن يفصح ، فقال :ـ

أنا أعلم أنك غاضب مني ، لاننى لم ادخلك فى وزارتى ، وأنك لم تقدم استقالتك من الحاكمية الا لهذا السبب ... ثم لما رجوت منك سحب الاستقالة أصررت عليها . وأخيرا كتبت الى الموصليين تحرضهم على الالتحاق بالترك . ولكن ثق بأننى كنت قد ادخلت اسمك فى الوزارة غير ان المندوب السامى حين عرضت عليه الاسماء كتب حذاء اسمك « غير مرغوب فيه » . ومن هـذا ترى انه لم يكن بيدى فى الامر حيلة .

فأجبته بأنه لو لاحظ تاريخ كتاب استقالتى لوجده يسبق تشكيل الوزارة بثلاثة ايام . أما بشـأن قضية الموصل ، فقـد رويت له قصتها من البداية : الاجتماع ، والرسائل ، والنداء ، والمطبعة .. ثم ابرزت له نسخة من النداء ، الا اننى امتنعت عن ذكر اسماء المجتمعين فى دار ثابت عبدالنور والذين وقعوا على التعهد ، خشية ان يصيبهم أذى ، ورضيت بأن أتحمل المسؤولية كلها وحدى .

كان عبدالمحسن يعرف جيدا مقدار تمسكى بالصدق والصراحة ، فاطمأن بعض الشىء الى أقوالى . ورجا مني أن أكتب الى الموصليين ثانية أناشدهم اعلان

رأيهم فى الانضمام الى العراق بصراحة تامة ، وتوجيه عرائض الى مؤتمر لوزان للافصاح عن تلك الرغبة ، فوعدته بتلبية طلبه عن طيب خاطر .

أثبتت الحوادث التى جدت بعد هذه الحادثة ان عبدالمحسن السعدون لم يعد ذلك الصديق المحب ، وان حقده عليّ – نتيجة اعتقاده بعدائى له – بقى متأصلا فى نفسه . أما أنا فكنت ولا أزال أعتقد – بالرغم من حقده عليّ فى سنيه الاخيرة – بأنه كان رجلا طيباً ووزيرا صادقا ، وان حبه لبلاده واخلاصه لقومه أمر محقق . ويكفى انه صرح فى وصيته الخالدة بقوله : « الأمة تطلب الخدمة والانجليز لا يوافقون » طيب الله ثراه ، وغفر له ، ورحمه برحمته الواسعة .

امارة عربستان

٢٩٤

اتق شر من أحسنت اليه

بينما كنت أزاول المحاماة فى البصرة اذ حدث خلاف بيني وبين حاكم كنت قد سعيت الى تعيينه فى منصبه ، وتقدّم الحاكم المذكور بالشكوى عليّ ، فصدر الحكم فى مايس ١٩٢٣ بمنعى من مزاولة المهنة مدة شهرين ونصف . فعوّلت على العودة الى المتاجرة .

وفى هذه الآونة اتصل بي عبداللطيف باشا المنديل ، وبلغنى رغبة جلالة الملك ابن السعود فى التحاقى بمعيته فى منصب ادارى كبير . وفى الوقت نفسه أرسل الشيخ خزعل أمير عربستان وكيله العام ميرزا محمد خان بهادر يعرض عليّ قبول منصب معتمد الامارة ، وهو منصب أحدثه الشيخ ليكون صلة الوصل بينه وبين جلالة ملك العراق وابن السعود وأمراء العرب الآخرين . ونظرا لقرب عربستان من البصرة ، وتيسر تعليم أولادى فيها ، فضلت التوظف لدى أمير المحمرة على الذهاب الى نجد .

ركبت مع الميرزا محمد الى الاهواز ، وفى طريقنا مررنا بالمحمرة ، فرغب رفيقى فى زيارة السر ويلسن مدير شركة النفط العام والحاكم الملكى العام فى العراق سابقا . فاعتذرت عن مرافقته فى هذه الزيارة ، لعلمى بان الرجل يحقد عليّ منذ القيت خطابى العنيف ضده فى لجنة الانتخابات ، ولمعارضتى العلنية لسياسته فى العراق طيلة حكمه فيه . ولكن رفيقى ألح ، فدخلنا لزيارته ، وكان استقباله لنا حافلا ، ولما علم بتوظفى عند الشيخ استبشر وقال : تأكد لو ان الشيخ خزعل استشارنى فى انتخاب معتمد له لما أشرت عليه الا بانتخاب سليمان فيضى ، نظرا لما أعهده فيه من المقدرة والاخلاص فى العمل .

وفى هذا القول ما يدل على ان الانجليز يكنّون فى أعماق نفوسهم الاحترام للوطنيين المخلصين حتى ولو كانوا خصوما .

الامارة العربيــــة

تمتد امارة الشيخ خزعل فى الضفة الشرقية من شط العرب . ويحدها جنوبا خليج فارس ، وشمالا لواءا البصرة والعمارة ومقاطعة ششتر ، وشرقا

مقاطعة دزفول . أهم حواضرها المحمرة ، عبادان ، وناصرية الاهواز . جل سكانها من العرب ، خلا عدد قليل من العجم بين تاجر وصانع . وينتسب هؤلاء العرب الخلص الى القبائل العربية التالية :ـ بنى كعب ، بنى تميم ، الخنافرة ، الشريفات ، بنى سالة ، بنى طرف ، الحيادر ، الحميد ، الباوية ، البو بعيش ، خـزرج ، كنانة ، وغيرها ..

تقع هذه الامارة ضمن الدولة الايرانية . وكان أمرها قد اوكل منذ قديم الزمان الى اجداد الشيخ خزعل بنظام المقاطعة ، كما كانت الحال فى المقاطعات الايرانية الاخرى كامارة البختيارية . ويقضى نظام المقاطعة فى ذلك الحين على ان يدفع الامير الى الحكومة المركزية فى طهران اتاوة سنوية معينة ، وان تعود ضرائب الكمرك الى الدولة أيضا ، وما عدا ذلك فان الامير هو الحاكم المطلق فى امارته ، يفرض من الضرائب ما يشاء ، وله جميع واردات الامارة ، وعليه جميع مصروفاتها ، وهو المسؤول عن أمنها وادارة شؤونها الداخلية ، وله الحق فى ان يعين من قبله حكاما على المناطق والمدن التى تقع ضمن امارته .

قابلت الشيخ خزعل فوجدته طيبا ، كريما ، ميالا الى المرح والمزاح ، ينظر الى الحياة نظرة متفائل . وكان يعيش فى قصره الفخم محاطا بكل مظاهر العز والسلطان ، غارقا فى جو من الترف والبذخ .

بين يدى جلالة الملك فيصل

أصدرت الحكومة العراقية فى ذلك الحين أمرا بابعاد حجة الاسلام الشيخ مهدى الخالصى ، فرغب الشيخ خزعل فى ان ينزله بضيافته ، نظرا للمكانة الرفيعة التى يتمتع بها ، وتأمينا لراحته فى شيخوخته . فحرر كتابين الى جلالة الملك فيصل ، يستأذنه فى الكتاب الاول باستضافة الحجة عنده ، ويرجو من جلالته فى الثانى الموافقة على اشتغالى فى امارته . وكلفنى بحمل الرسالتين بنفسى الى جلالة الملك .

توجهت الى بغداد ، وتشرفت بمقابلة جلالة الملك ، وقدمت اليه الكتابين ، فأبدى جلالته الموافقة على تعييني ، ثم أظهر أسفه الشديد على عدم امكانه تلبية

دعوة الشيخ لحجة الاسلام ، لأنه كان قد غادر بومبى متوجها الى جدة التى اعتبرت منفى له • وأمر جلالته بتحرير كتابين الى الشيخ بتاريخ ٨ تموز سنة ١٩٢٣ ، أحدهما يتضمن الاعتذار كما ذكر ، وثانيهما بالموافقة على تعييني ، ثم وقع الكتابين وسلمهما الي •

وقبل ان اغادر ذكر لي جلالته ان بعض عشائر البصرة التابعة الى الشيخ خزعل كانت قد امتنعت عن الاشتراك فى انتخاب الملك ، وأبدى جلالته رغبته فى ان احث هذه العشائر على المساهمة فى الانتخابات المقبلة للمجلس التأسيسى ، فوعدته ببذل جهدى لتنفيذ رغبته السامية •

وحين عدت الى الاهواز أبلغت سمو الشيخ تحيات جلالة الملك ومودته ، وقدمت اليه الكتابين ، وأخبرته برغبة جلالة الملك فى اشتراك كافة عشائر البصرة التابعة للشيخ بالانتخابات • فأرسل الشيخ رسله الى العشائر المذكورة يحثها على الاشتراك فى الانتخابات وعدم مخالفة أوامر حكومة العراق •

قضيت فى معية الشيخ خزعل أياما طيبة ، وكان للراحة التى أصبتها هناك أثر كبير فى تحسن صحتى ، بعد الاجهاد الذهنى والبدنى الذى انتابى فى السنوات الاخيرة •

وكان الشيخ يبالغ فى اكرامى وتأمين راحتى • فاصطحبنى فى سفرته الى سوس للاصطياف ، ونزلنا بالقلعة الكبيرة التى أنشأها الفرنسيون لاقامة البعثات الاثرية ولحفظ الآثار المستخرجة من الحفريات فى تلك المنطقة ، بينما نصب رؤساء العشائر خيامهم حول القلعة فى السهل الاخضر الجميل • وفى اثناء اقامتنا هناك قدم السيد قطب الدين ، نقيب أشراف دزفول ، ودعا سمو الشيخ لزيارته • فذهبنا الى تلك المدينة الجميلة ، وأقمنا فى قصر النقيب المشيد على سفح الجبل • وبعد ان قضينا هناك سبعة أيام عدنا الى قلعة سوس لقضاء بقية أيام الصيف فيها ، ومن ثم قفلنا راجعين الى ناصرية الاهواز •

التبـاس

قصد الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين وأحد أعوانه مدينة الأهواز ، للحصول على هبة من الشيخ خزعل لترميم المسجد الاقصى • وشاءت الصدف.

ان أكون متغيبا عن المدينة لقضاء ايام العيد فى البصرة • فلما سأل المفتى عني قيل له اني متغيب ، وكان يحمل رسالة اليّ من البلاط الملكى لتسهيل مهمته لدى الشيخ • فاضطر اذ ذاك ان يطلب مقابلة الشيخ نفسه ، وساق الحظ له موظفا فى القصر أدمن على تناول الافيون ، فسأل المفتى عن هويته ، فأبرز له بطاقته ، وقرأها الموظف ، ثم دسها فى جيبه كأنه استوعب اسم صاحبها ••• ثم ذهب الى الشيخ ، واخبره بأن رجلين ملتحيين ، يتزينان بالعمامة والجبة قد حلا ضيفين فى القصر ، وان أحدهما يدّعي انه مغنّي فلسطين ••• فضحك الشيخ وقال :

– بلّغ هذا المغني اننا تركنا سماع المطربات والغانيات منذ زمن بعيد •• فليس بنا حاجة اليوم الى غناء المعممين والملتحين •• ادفع لهما ألف روبية واعتذر عن المقابلة •

عاد الحشاش الى المفتى ، وقدم المبلغ ، وبلغّه اعتذار الشيخ عن مقابلتهما • فاستشاط المفتى غيضا وألقى الدراهم على الارض قائلا : ما جئنا متسولين • وحمل هو ورفيقه أمتعتهما وغادرا القصر مسرعين •

التقيت بالمفتى فى البصرة ، بعد عودته من الاهواز ، فأخبرنى بالحكاية وهو منزعج غاضب ، وسلمنى الكتاب الذى أرسله اليّ رستم حيدر رئيس الديوان الملكى وبداخله كتاب من جلالة الملك فيصل الى الشيخ خزعل راجيا منه ان يحظى الوفد بمعونته وعطفه • فطمنته الى ان الشيخ لو علم باسمه وعرف مكانته لاحتفل بمقدمه ولأكرمه • وأكدت له ان فى الامر التباس ، وانه لا يعدو ان يكون سوء فهم •

فلما عدت الى الاهواز ، قدمت رسالة جلالة الملك الى الشيخ ، وأبديت استغرابي من تلك المقابلة • فتألم الشيخ حين علم بحقيقة الامر وقال :

– هل تصدق اني اقابل هذا الرجل المحترم بالاستخفاف المشين لو كنت عالما بحقيقته ؟•• لعن الله الحشيش ••

وتدارك الشيخ الأمر ، فأعطاني تسعة آلاف روبية لارسالها الى المفتي ، وكلفني بكتابة رسالة اعتذار اليه عن لساني ، وكتابا وديا عن لسانه الى جلالة الملك ، وكتاب توصية الى الشيخ مبارك الصباح أمير الكويت ليقوم بدوره بمساعدة المفتي واكرامه .

رضا بهلوي والشيخ خزعل

بعد ان تقلد رضا شاه بهلوي منصب وزارة الدفاع في ايران فكر في في الغاء الامارات الاقطاعية في البلاد . وقبل ان يقدم على تحقيق هذه الفكرة ، قام برحلة في المقاطعات الجنوبية ، تصحبه هيئة اركان حرب الجيش الايراني وعدد من الضباط والجنود . فلما قارب ركبه حدود امارة عربستان ، أوفد رسولا الى الشيخ خزعل يرجو منه ارسال أحد انجاله ليكون بمعيته عند دخول الامارة . فأجابه الشيخ الى طلبه ، واختار ابنه عبدالكريم لمرافقة الوزير .

دخل رضا بهلوي الامارة دخول الملوك العظام . واقام له الايرانيون الاحتفالات والمهرجانات في كل مكان . حتى ان الجالية الايرانية في البصرة اشتركت في استقباله فجاء افرادها على بواخر خاصة الى المحمرة لهذا الغرض . وطاف في المدن والقرى فأقام في الاهواز يومين ، ثم توجه الى المحمرة وكان الشيخ في استقباله هناك ، فأنزله في قصر الفيلية . وكان في حله وترحاله محاطا باكرام الشيخ وتودده ، وبحراسة شديدة من قبل رجاله للمحافظة على حياته .

ولما اعتلى رضا بهلوي عرش ايران ، أرسل جنوده الى سائر أنحاء الامارة بحجة المحافظة على حدود المملكة . فلم يبد الشيخ معارضة ، لا سيما وان الانجليز راحوا يؤكدون له ضمان سلامته وسلامة امارته ، وينصحون له بعدم ابداء أية مقاومة . ثم أرسل الشاه موظفين ماليين لجباية الرسوم والضرائب والواردات ، فلم يحرك الشيخ ساكنا . واخيرا أرسل حكاما عسكريين تولوا ادارة المدن باعتبارها محتلة احتلالا عسكريا مؤقتا لاغراض

وطنية • جرت كل هذه التدخلات ورسائل الشاه لم تنقطع عن الشيخ يؤكد له فيها اعتزازه بصداقته ، وحرصه على سلامته ، وحفظه لمقامه ومنصبه •

بعد ان تقلصت سلطة الشيخ لبث مقيما فى قصوره بالفيلية ، لا يتركها الا نادرا للذهاب الى البصرة ، حيث يمتلك قصورا وأملاكا كثيرة • وبينما كان فى احدى زياراته للبصرة ، اذ قدم عليه الحاج محمد علي رئيس التجار ، أقرب المقربين اليه ، ودعاه لحضور سهرة فى يخت خاص أمام قصور الفيلية • فتردد الشيخ فى قبول الدعوة ، وأشار عليه بعض أصدقائه برفضها ، اذ كانوا قد أوجسوا خيفة من أمرها • ورأى البعض الآخر عدم وجود مبرر لهذه المخاوف ما دام الحاج رئيس هو الداعي •

وأخيرا قبل الشيخ الدعوة ، فتوجه هو وبعض أصحابه الى اليخت • وما هى الا ساعة حتى أحاطت به الزوارق الحربية التى صعد ضباطها فأبلغوا الشيخ أمر الشاه باعتقاله • وأخذوه وابنه ولي العهد عبدالحميد مخفورين الى طهران ، وأسكنوه فى قصر حوالى المدينة ، قضى فيه بقية أيامه • وقد لاقى الشيخ فى سجنه الجميل من الحكومة احتراما واكراما ، حتى ان الشاه نفسه زاره هناك أكثر من مرة •

وبهذا انطوت آخر صفحة من تاريخ هذه الامارة العربية العريقة •

خاتمة المطاف

العـودة الى البصرة

على اثر تدخل الحكومة الايرانية فى امارة عربستان انشغل الشيخ خزعل عن مراسلة ملوك العرب وأمرائهم ، فأصبحت أشبه بالعاطل أتقاضى راتبى دون أن أقوم بأى عمل . لذلك أبديت للشيخ رغبتى فى الاستقالة والعودة الى البصرة ، فلم يقبل ، وقال انه يعز عليه أن أفارقه . واقترح عليّ القيام بادارة أملاكه فى المحمرة وما جاورها . فوافقت وانتقلت الى المحمرة ، وأقمت فى دار جميلة تطل على النهر . ثم بدأت فى تنظيم الاملاك وحساباتها ، فارتفع ايرادها الى ضعف ما كان عليه فى السابق . واستمرت وكالتى على أملاك الشيخ حتى بعد اعتقاله ، الى ان حدث بينى وبين آحد انجاله خلاف على التصرف بأموال أبيه . فلم يكن هذا ليكتفى براتبه المقنن ، وكان يلح فى طلب المزيد بدون رضى أبيه . فأصررت على الاستقالة وقبلها الشيخ . وهكذا عدت الى البصرة واستأنفت الاشتغال بالمحاماة .

نقطـة التحـول

كان عام ١٩٢٤ بمثابة نقطة تحول فى حياتى . فبعد عودتى من المحمرة واشتغالى بالمحاماة ، الفيت نفسى رجلا آخر يختلف عما كنت أعهده فيها من قبل . كانت هناك عوامل كثيرة تدفعنى الى تغيير خططى فى الحياة . اذ كنت قد أصبحت رب عائلة كبيرة ، وأباً لعدد لا يستهان به من البنين والبنات ، تتطلب تربيتهم استقرارا دائماً وعناية متواصلة . ثم اني بعد ان خضت غمار الحياة السياسية الجديدة فى العاصمة الناشئة تعذر عليّ المضى فى مجاراة الذين احترفوا السياسة فيها ، فاحتكروا المناصب ... واستأثروا بالخيرات ... لم يكن بمقدورى السير على خطواتهم ، وانتهاج سبلهم الغامضة .. ولم أكن راضيا عن هذا الاتجاه الجديد الذى لحظته فى الطبقة الحاكمة المستحدثة . فعزمت على أن أكون معارضا مزمنا . وكان أمامى أحد سبيلين ، فاما المعارضة الايجابية أو السلبية . أما الاولى فتتطلب الكبير من الجهود ، وتكتنفها المخاطر والاوصاب ، وهذا مالم يعد فى طاقتى تحمله ، أنا الذى لقيت من الاوصاب

اشقها ، وتعرضت للمخاطر منذ حداثتى .. فقد بدأت جهادى صبيا ، وما زلت ماضيا فيه ، ولو انه استنزف من صحتى وهمتى قسطا كبيرا . فلا غرو اذن ان اتخذت سبيل المعارضة السلبية ، وحصرت جهودى فى المساهمة بالاعمال الخيرية والخدمات الاجتماعية ، لعلي أؤدى عن طريقها خدمة لهذا الشعب ، بعد ان عدلت عن خدمته بطريق السياسة .

وكانت حياتى اليومية لا تتعدى الذهاب الى المكتب والمحكمة ، ثم العودة الى البيت . وكنت فى أوقات فراغى أنكب على المطالعة أو التأليف ، فتجمّع لديّ عدد كبير من الكتب نظمتها فى مكتبة خاصة . وألفت عددا من الكتب والرسائل . وكنت أقوم باعباء عدد من الجمعيات فى آن واحد .

ولا ارانى فى حاجة الى سرد الحوادث التى وقعت فى العراق من بعد ذلك التاريخ ، لانها لم تعد خافية على أحد ، تتناقلها الألسن ، ويسهل الاطلاع عليها فى المؤلفات السياسية الحديثة وعلى صفحات الجرائد والمجلات . الا انه يجدر بي ان أشير الى بعض الحوادث التى كان لها تماسا مباشرا فى حياتى . ذلك اننى كنت ، بين الفينة والاخرى ، أحنث بالعهد الذى قطعته على نفسى فى اعتزال السياسة ، فتنتابنى نزوات الى العودة الى ذلك الميدان المصطخب ، وما أعتم ان ألجه حتى أعود من حيث أتيت ... ناقما مغضبا . كنت أجد فى كل مرة دليلا جديدا على اعوجاج الامور فى هذه البلاد ، وعلى خيبة ابنائها ومستقبلها القاتم .

وحين ابرمت المعاهدة العراقية ـ البريطانية عام ١٩٣٠ جاهرت بمعارضتها والتنديد بنودها المجحفة . فكان جزائى على ذلك اعتقالى فى عنه ، أربعة أشهر فى عام ١٩٣١ بحجة واهية اتخذتها الحكومة ذريعة للتنكيل بي كما ورد ذكره فى فصل سابق .

فى مجلس النواب

وفى عام ١٩٣٥ انتخبت نائبا فى المجلس النيابى فى عهد وزارة ياسين

الهاشمي . فانتقلت وعائلتي الى السكنى فى بغداد . وحدث ان حملت لواء المعارضة ضد الحكومة بشأن بعض القوانين والمشاريع . وفى هذه البلاد تشترى الحكومات سكوت المعارض بأى ثمن . لذا عرضت عليّ الحكومة قبول منصب رئاسة تسوية من الدرجة الاولى فرفضت .

وجاهدت فى ندوة البرلمان ، وفى مكاتب الوزارات المختلفة ، لخدمة البلاد بصورة عامة والبصرة بصورة خاصة . وكان من جملة المشاريع التى تحققت بجهودى الشخصية انشاء جسر كرمة علي ، وجسر القرنة ، وكري نهر الصالحية الكبير ، وتبليط طريق الزبير – بصرة ، والاسراع فى مشروع اسالة الماء الى ناحية الزبير . ولا زلت احتفظ بمئات الرسائل والبرقيات التى انهالت عليّ من البصرة والزبير تقديرا وشكرا .

وفى خلال اقامتى ببغداد ساهمت كعضو فى لجنة الدفاع عن فلسطين التى كان يرأسها سعيد الحاج ثابت ؛ وفى جمعية الطيران العراقية التى كان يرأسها مولود مخلص ؛ وفى جمعية مشروع الفلس بزمالة نصرت الفارسى ، وبهجت الاثرى ، وعلي حيدر سليمان . وكنت دائب النشاط فى هذه الجمعيات ، أقوم بخدمتها بكل ما أوتيت من قدرة .

انقلاب بكر صدقى

ثم حدث مالم يكن فى الحسبان . اذ جرى انقلاب بكر صدقى ، واستقال الهاشمي وتشتت شمل وزرائه ، ولقي الشهيد جعفر العسكرى حتفه . وفى مساء يوم الانقلاب ذهبت والعالم الفاضل هبة الدين الشهرستانى لزيارة الهاشمي والتخفيف من كربه . فألفينا داره محاطة بالرعاع يقذفونها بالحجارة والاقذار ، ويقذفون صاحبها بأقذع السباب ... رأيت بينهم بعض الذين كانوا بالامس خدامه الطيعين يحرضون الغوغاء ويلقنونهم . شققنا لأنفسنا طريقا بين هؤلاء وطرقنا الباب ففتحت لنا ، ولشد ما استبشر بنا يسن فى تلك الساعة العصيبة .

وطلعت الصحف وهى تندد بالوزارة المستقيلة ، بعد ان كانت تمجدها وتسبح بحمدها ، وقلب الاصدقاء لاصدقائهم ظهر المجن ، ولبس الاخ لاخيه جلد النمر ، وتسابق الناس فى عرض طاعتهم وخضوعهم للحاكم المستبد الجديد . وكانت الايام التالية مليئة بالمزعجات . فقد توفى محمد زكى رئيس مجلس النواب ، وكان رحمه الله من أعز اصدقائى .

ثم اغتال رجال بكر صدقى المرحوم ضياء يونس سكرتير مجلس الوزراء ظلما وعدوانا . وكان ضياء فى حياته مثال النبل والاخلاق والنضوج العقلى ، حتى ان الصحف حين كانت تنشر خطبه فى البرلمان تبدأها بهذا العنوان : « العقـل يتـكلم » .

جاءني ضياء بعد الانقلاب بأيام قلائل ، وهو بادى القلق والارتبـاك ، وقال لي ان بعض الضباط دخلوا مكتبه ، وطلبوا منه احضار اضبارة تتعلق بالتهم التى نسبت الى بكر صدقى فى عهد الوزارة السابقة والتحقيق الذى جرى بشأنها ، بقصد اتلافها . فلما أخبرهم بأنه لا يعلم من أمر تلك الاضبارة شيئا ، توعدوه بالقتـل ان هو لم يحضرها ، ثم خرجوا . وسـألنى عما يجب عمله ، فقد كان الرجل صادقا فيما رواه عن جهله بأمر الاضبارة . فنصحته بالاقامة فى دارى هو واطفاله ريثما ينجلى الموقف .

قضى ضياء يونس ثلاثة أيام لم يغادر فيها غرفته ، وحرصنا على ان يبقى أمر وجوده عندى سرا مكتوما . الا ان ضياء لم يرض بهذا الحال ، وكان يخشى ان يصيبنى الضر بسببه . فصمم على الخروج رغم معارضتى الشديدة ، فأرسل أهله الى الموصل وعاد الى داره .

ومرت أيام دون أن يحـدث حادث مكدر . وفى ذات مساء تربص له أربعة رجال فى سيارة ، بالقرب من داره فى السـعدون . فلما خرج ماشـيا انهال عليه الرصاص من كل جانب ، وتقدم أحد القتلة والقى بالجثة فى السـاقية المحاذية للشارع ، وخبا « ضياء » الى الأبد .

انتهى دور ضياء وجاء دوري • فوصلتني رسالة تهديد بالقتل من «الجمعية السرية » ، ولم تكن هذه الجمعية فى الحقيقة الا زمرة من أعوان الدكتاتور • أمهلتني الجمعية الموهومة فى رسالتها ثلاثة أيام ، تكفي لحمل حقائبي ومغادرة بغداد ، وفى حالة رفضي فانني سوف ألقى حتفي كما لقي ضياء حتفه على يد ابطالها ••• كذا •

مرت الايام الثلاثة وأنا أروح وأغدو بعناد ، بعد ان أحطت نفسي بحراسة لا بأس بها • وفى مساء اليوم الرابع دوت طلقات بالقرب من بيتي ، فهممت بالخروج لاستجلاء الامر ، ولكنني سرعان ما عدت ادراجي ، اذ خشيت ان يقودني الدوى الى كمين نصبوه لي • وتكررت من بعد ذلك المحاولات • فلما حلت الحكومة المجلس النيابي ، ولم يعد ثمة مبرر لبقائي فى بغداد ، غادرتها الى البصرة ، فارتحت وأرحت طالبي رأسي ••

عدت الى البصرة وانا أشد ما أكون مقتا للسياسة ، وازدراء بالمناصب ، وزهدا فى الشهرة • وأقسمت ان لا أعودن ثانية الى طرق هذا الباب المشؤوم •

هدوء واستقرار

قضيت السنوات العشر التالية ما بين عام ١٩٣٧ – ١٩٤٧ بهدوء واستقرار • وعكفت على مزاولة المحاماة وبعض الاعمال التجارية ، ودأبت على المطالعة والدرس • وكنت فى حياتي الخاصة أقرب الى الانزواء والعزلة •

يجدر بي أن أعود قليلا الى الوراء لآتي على ذكر الجمعيات التي ساهمت فى اعمالها فى البصرة ، والتي لو قدر لها البقاء لأثمرت وأنتجت •

الجمعية الزراعية الملكية

عندما زار جلالة الملك فيصل البصرة فى ١٣ كانون الاول ١٩٢٨ ، دعاني للمثول بين يديه لبحث مشروع ري كنت قد أعددته من قبل وقدمت به اقتراحا الى الحكومة • ويتلخص المشروع فى شق ترعة ما بين نهر كرمة علي وخور عبدالله ، تروى مساحات شاسعة من الاراضي المهملة • وبعد ان فرغت

من تلخيص دراساتي للمشروع ، انتقلنا الى بحث الاحوال العمرانية والاقتصادية فى البصرة فقال لي جلالته :

– لقد تشكلت فى بغداد جمعية زراعية تحت رعايتى ، وأرغب فى أن تقوم أنت بتأسيس فرع لهذه الجمعية فى البصرة ، وانك قد تحتاج الى من يساعدك فى تأسيسها ، فانتخب واحدا من كبار الملاكين ليكون فى عونك .

فوقع اختيارى على عبداللطيف المنديل . فأردف جلالته قائلا :

– اذن سوف أوعز الى رشيد عالى بتوجيه كتاب رسمى اليكما للبدء بالعمل .

وهكذا تأسست الجمعية الزراعية الملكية فى البصرة ، وانتخب لرئاستها السيد هاشم النقيب ، وانتخبت أنا للسكرتارية . وبعد عام من تأسيسها انحلت ، على أثر انحلال الجمعية المركزية فى بغداد .

جمعية الشبان المسلمين

وفى ٢٥ كانون الاول سنة ١٩٢٩ انتخبت رئيسا لجمعية الشبان المسلمين فى البصرة . وبعد ذلك بسنة استقلت منها بسبب خمول أعضاء هيئة الادارة وتقاعسهم فى انجاز واجباتهم .

دار العجزة

أعلنت بلدية البصرة ذات يوم عجزها عن ادارة دار العجزة ومواصلة الصرف عليها ، فأغلقت الدار المذكورة ، وألقت بساكنيها فى الطرقات . فجمع المحامون مبلغا من المال ، وأعادوا فتح تلك المؤسسة على حسابهم ، وأدخلوا المساكين اليها ، وعهدوا الي بادارتها . فقمت بذلك العمل الانسانى مدة ثلاثة أشهر . ثم عادت الى البلدية حميتها ، فاستلمت مني الدار وكفلتها كسابق عهدها .

جمعية حماية الاطفال

وفى ١٦ نيسان ١٩٣٨ انتخبت عضوا فى جمعية حماية الاطفال فى البصرة ، وعملت فيها الى ان قرر غلقها بعد حوالى سنة واحدة من تأسيسها .

غرفة التجارة

انتخبتنى غرفة تجارة البصرة عضوا فى هيئة ادارتها ، فساهمت فى أعمالها مدة ست سنوات ، ومثلتها فى مؤتمر الغرف التجارية العراقية المنعقد فى بغداد عام ١٩٤٧ . ثم انسحبت منها عام ١٩٤٨ بسبب حالتى الصحية .

مجلس ادارة اللواء

وفى ١١ مارت ١٩٤٥ انتخبت عضوا فى مجلس ادارة لواء البصرة ، ثم جدد انتخابى فى ١٦ نيسان ١٩٤٧ . وقد انسحبت من المجلس المذكور عام ١٩٤٨ لاسباب صحية .

لجنة مساعدة فلسطين

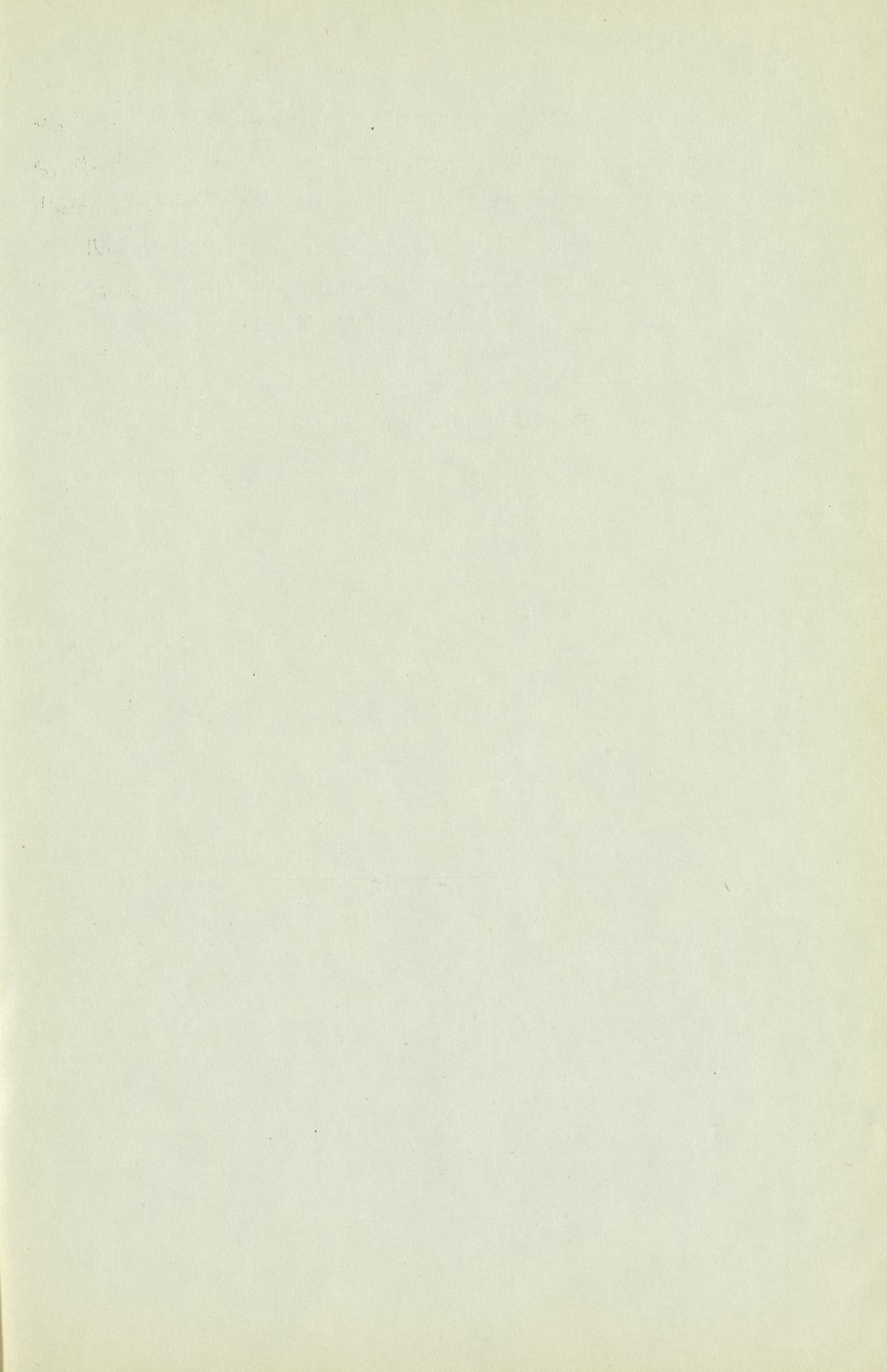
وعندما أعلنت الحرب الفلسطينية تألفت فى البصرة « لجنة مساعدة فلسطين » فانتخبت عضوا فى لجنتها الدائمية . وكان زميلاى فى هذه اللجنة الثلاثية حسن عبدالرحمن المحامى وسعود الصالح . وبعد مدة سافر الزميلان المذكوران فبقيت أقوم بأعبائها وحدى ، ولبثت كذلك حتى سفرى من البصرة فى ٦ تموز ١٩٤٨ . ان ماقدمته هذه اللجنة من المساعدات لفلسطين كان زهاء ٦٣ الف دينار حوّلت الى لجنة مساعدة فلسطين فى بغداد ، وكميات من الاسلحة أرسلت مباشرة الى المجاهدين العرب فى فلسطين .

جمعية التمور

وفى ٢٧ مارت سنة ١٩٤٠ اخترت لأكون ممثلا لوزارة الاقتصاد فى جمعية التمور التى كان يرأسها فى ذلك الحين المستر لويد . وأود بهذه المناسبة أن أعرّف القارىء الكريم بالمستر لويد . فقد كان الرجل ضابطا فى جيش الاحتلال ، ثم عين حاكما سياسيا فى لواء ديالى ، وقد حدث مرة ان تعقبه ابن عبدكه لقتله ، الا ان الشيخ حبيب الخيزران أخفاه عنده ، فنجا من الموت . وعين بعد ذلك رئيسا للمحاكم فى البصرة . فلما انتهت مدة عقده مع الحكومة عاد الى انجلترا . وهناك فشل فى كسب قوته وانتهز فرصة وجود أحد رؤساء الوزارات العراقية فى لندن فقام بخدمته وقضاء حاجاته فيها .. فكافأه هذا بتعيينه

مديرا عاما لجمعية التمور براتب ضخم ومخصصات دسمة !.. ولم يكن لويد في كل المناصب التي أشغلها بالرجل الطيب . كان معوجا في سلوكه الشخصي ، واستعماريا فظا في سياسته وعمله . لم يكن يقترح أمرا الا وفيه فائدة الامبراطورية ، ولم يكن ليوافق على قرار الا ومصلحة الشركات المحتكرة نصب عينيه . لذلك كان اصطدامي به منتظرا . وفي الواقع انني لم أرحب بقيامي بهذا التمثيل لولا رجاء صادق البصام وزير الاقتصاد وقتذاك .

ثم وقع المحذور ، فانسحبت من الجمعية بعد معارضتي لعقد صفقة فاشلة ، أسفرت عن خسارة تناهز الستين الف دينار ، دفعتها الجمعية من صندوقها .. أو بعبارة أصح من جيوب صغار الملاكين في البصرة ..



نهاية النهاية

لكل قصة نهاية .. ولكل حديث خاتمة .. وللاحياء آجال محتومة ..

والمرء قادر على ان يحدثك عن حياته كما رآها ، ويحدثك عن مولده كما روي له ، بيد انه عاجز عن ادراك خاتمته .. وهو لا بد ان يلوذ بالصمت والنصة لما تتم بعد ..

اما النهاية ، فيشهدها الذين من حوله .. ومن هنا جاءت ضرورة اضافة هذا الفصل ، الذى هو بمثابة الختام من حديث ابي .. حديثه الذى توقف عنه ليعهد الى غيره باتمامه .. فعساني اوفق الى نظم الحبة الاخيرة من هذا العقد ..

الناشر

فى بغداد ، ذات يوم قائظ من صيف ١٩٤٨ ، وفى طريقه الى مصائف لبنان ، داهمت أبي حمى طارئة .. وكان قبل ذلك موفور الصحة ، سليم البنية . فلما اشتدت وطأتها أدخل المستشفى ، ولبث فيه سبعين يوما .

تصرم الصيف ، وعاد المصطافون الى ديارهم .. وعاد هو الى البصرة معتلا سقيما . لقد قيل له انه شفي .. وعما قريب سيستعيد عافيته ، غير ان الامر سار من سيء الى اسوأ . فكانت الحمى تخاتل فى هجومها .. فهى تارة تنقض فى النهار ، وتارة فى الليل .. وهى حينا شديدة قاسية ، وآخر فاترة هينة ..

وما زال الداء يتفاقم ويتفاقم حتى شاع فى جسمه الهزال .. وعلا وجهه النحول .

وبلغه ان العلاج اذا استعصى فى الحاضرة الصغيرة ، فلعله يتيسر فى العاصمة الكبيرة . فودع البصرة وأهلها ، وشد الرحال الى بغداد بحثا عن علاج يخفف وطأة الداء .

وفى بغداد عز الدواء ، وألمح الاطباء الى عجزهم عن التشخيص ، واهابوا به أن يقصد لندن لعله يجد فيها ضالته .

اصطفانى أبي لمرافقته . فطرنا من بغداد فى الرابع والعشرين من شهر آذار ١٩٤٩ . ولما حلقت بنا الطائرة فى أجواز الفضاء استولى عليه الضعف ، بيد انه كان يخفي هذا الضعف وراء ابتسامة مشرقة وثبات عجيب .. فما أن أدرك قلقى على صحته حتى انبرى يشجعنى ويسري عني .. رأيته يلاطف الركاب كما لو كان معافى وكانوا معتلين ..

ولم تكد تمر سويعات حتى غدونا ـ أبي وأنا ـ صديقين حميمين .. فكنت له بمثابة ابنه ، وطبيبه ، وصديقه ، بل وكل شيء له ..

حطت بنا الطائرة فى مطار لندن فأخذنا طريقنا الى مستشفى ويستمنستر . وفى غرفة أنيقة بالطابق التاسع من هذا المستشفى الكبير قضى أبي ستين يوما ، استرد خلالها بعض عافيته ، وأفاد من العلاج فائدة بيّنة . فبعد اسبوع من دخوله فيه توصل الاطباء الى اكتشاف العلة .. وهى نمو غير اعتيادى فى غدة لمفية ، أسفر عن تضيّق فى مجرى القصبة الهوائية ، وعن حمى متأرجحة لغير سبب جلي . اتفق رأى الاطباء على معالجة الورم باشعة رونتكن ، والاستغناء عن الجراحة ، مما أشاع الاطمئنان فى نفس أبي .. فتحسنت معنوياته ، وازداد اشراقه ، واستعاد رقته المعهودة .. ولمس أطباؤه فيه هذه الرقة فأحبوه ، وأعجبوا به .. وعرفه الجميع : الاطباء ، والممرضات ، والمرضى ، والخدم .. وحتى عامل المصعد . وكثيرا ما نوه الاطباء بصبره على الآلام ، وتحمله الاوجاع ، وترفعه عن التأفف والشكوى . وكان بادىء الامر يحييهم بالفرنسية لجهله الانجليزية .. غير انه عمد الى دراستها ، فكان يتعلم كل يوم كلمات جديدة يدوّنها فى كرّاس صغير ، حتى استطاع آخر الامر أن يعبر عن مقاصده بالانجليزية على خير ما يرام ..



المؤلف والناشر فى مطار لندن قبيل عودتهما الى العراق

وفى العصارى كانت غرفته تضيق بالزائرين من أبناء العراق ، وبينهم الشيخ والشاب .. ومنهم الطالب والتاجر . وسعى اليه بعض العراقيين الذين استوطنوا لندن منذ عشرات السنين ، واندمجوا فى غمارها ، وقطعوا صلاتهم بأبناء جلدتهم .. سعوا اليه ، تجذبهم حرمة يكنونها له منذ القديم .. وشوق الى شمائله الطيبة.. فجددوا ذكرياتهم وقد أوشكت ان تصبح نسيا ..

ولما بلغ سمو الامير زيد خبر وجوده فى المستشفى زاره فيها . وكان خليل ابرهيم(١) أكثر الاصدقاء ملازمة له ، وأشدهم عناية به . وكثيرا ما صحبه فى جولات شيقة الى متنزهات المدينة وحدائقها ، بعد استئذان أطبائه .

وما زالت صحته آخذة فى التحسن ، حتى صرح له الاطباء بمغادرة المستشفى ، والاقامة فى الريف لقضاء دور النقاهة فيه . فانتقل الى «ميدن هيد» ، وهى قرية فى غاية الجمال ، تقع على بعد أربعين ميلا من العاصمة . وهناك اقام فى دار للتمريض توفرت فيها وسائل الراحة والمتعة .. فهى محاطة بأروع المناظر الخلابة .. وكانت هناك شجرة « الليلاق » العملاقة ، تتزاحم ازهارها أمام نافذته .. ومن خلالها يبدو السهل المنبسط بكسائه السندسى حتى مجرى التيمس ، حيث تقوم القصور البيضاء ذات السطوح القرمزية المائلة ..

---

(١) الملحق بالسفارة العراقية الملكية فى لندن سابقا ووكيل مدير الدعاية العام لاحقا .

وفى هذا الجو الساحر قضى أبي زهاء شهر . فكان يقتل الوقت بالمطالعة ، أو بالتريض فى شوارع القرية ، وكان فى تجواله يردد قول أبي الطيب :

مغاني الشعب طيباً فى المغاني   بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربي فيها   غريب الوجه واليد واللسان

وكنت أصحبه أحياناً فى نزهات نهرية ، حيث يطيب له الجلوس الى جانبى فى الزورق البخارى المعد للاجرة . وما مرت أيام حتى تعرف على أهل القرية .. فكانوا يحيونه من زوارقهم ، فيجيبهم برفع القبعة .. ويوصيني بتخفيف سرعة الزورق لئلا تؤرجح الامواج التى يثيرها زوارقهم الصغيرة ..

لقد عرفت أبي فى أوج عافيته .. وعرفته فى أسوأ أيام مرضه .. وعرفته وهو يسير نحو الصحة بخطى وئيدة .. فلم أجد فيه ـ قيد أنملة ـ تغيرا أو تطورا .. لقد كان معلمى فى الحياة ، ورائدى فى المعرفة ... معلم لا ينضب معين علمه .. ورائد لا يسبر غور فطنته .. فتح قلبه للناس فوسعهم جميعاً ...

مر الشهر سريعا ، فعدنا الى لندن ، حيث أجرى له فحص نهائى أثبت شفاءه التام . وكان هذا ايذانا بالعودة الى العراق . ففى الخامس عشر من حزيران غادرنا لندن بالطائرة ، ونحن أشد ما نكون سرورا بالشفاء ، وشوقاً الى الوطن .

عم الأسرة والاصدقاء موجة من الغبطة والسعادة بعودة أبي معافى مشافى . وقضى الايام الاولى بعد رجوعه فى نشوة وانتعاش .

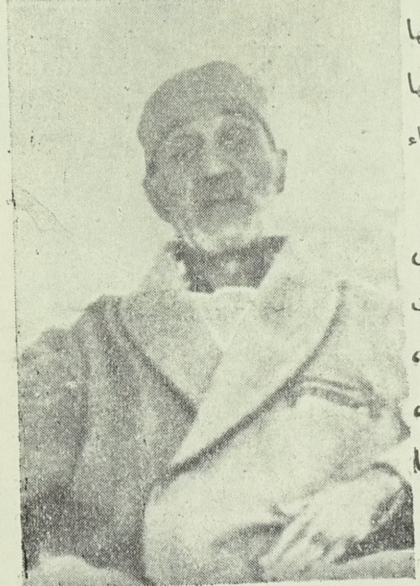
ولكن ها هى ذى الحمى تعود .. لعلها أصابته من شدة الحر .. أو لعلها حمى زائرة لا تطيل المكوث .. وكثرت الاسئلة المحيرة ، وساور النفوس قلقها القديم . واتفق الرأى على سفر أبي الى تركيا تخلصا من الحر . وفى استانبول عاودته الحمى ، ثم أثقلت وطأتها عليه ، وأطالت مكوثها بين أضلعه .. فوهى جسمه ، وخشي أصدقاؤه أن يصيبه الضر فى ديار الغربة ، فنصحوا له بالعودة .

ويوم رأيته على رصيف القطار أيقنت ان العلة قد استحكمت فيه ، وانه لن يبرأ منها .. لقد أصبح أسيرها تتحكم فيه تحكم الطائش المستبد ..

لزم أبي بيته لا يخرج منه ، وكان يقضى معظم الوقت فى فراشه . كان مريضا ولا كالمرضى .. فهو دائم المرح ، شديد التفاؤل ، دائب التفكير .. يكثر من المطالعة ، والكتابة ، والمراسلة .. ويستقبل زائريه كل يوم تقريباً ، فيروي لهم الاحاديث الطلية ـ وهو المحدث اللبق ـ والنكات الشيقة التى يحفظ منها العدد العديد .

وكان يتفقد أفراد أسرته واقرباءه وأصحابه ، ويعينهم على حل مشاكلهم ، ويبذل لهم ما يفتقرون اليه من مساعدة ، ويلاطف صغارهم ، ويداعب أطفالهم . وكان يحرص على ان لا يكون مرضه سبباً لحزن الآخرين ، ومصدراً لأساهم .. فلم يشك ولم يتأفف . حتى انه كان ينكر وجود الحمى اذا سألناه ، فاذا كشف المحرار عنها ، قال : ما فائدة الشكوى ؟ وهل يجدي التذمر نفعاً ؟ . وكان حين تعصف به الاوجاع فى الليل يأن أنيناً خافتاً ، فاذا أحس باقتراب شخص من غرفته قطع الأنين ، لئلا يحزن أهله ويتألموا ..

وفى هذه الفترة القاتمة من حياته كتب أبي مذكراته ، ووجد فى كتابتها بعض السلوى والعزاء . ولم يكف عنها حتى قبيل وفاته ، بالرغم من الاعياء الذى كان ينتابه من فرط الاجهاد .



المؤلف فى أيامه الاخيرة

وتفاقم المرض ، ثم تفاقم .. حتى أصبح أبي شبحا هزيلا .. وخفت صوته .. الا انه احتفظ بذهنه متوقداً ، وبتفكيره سليما ، وبحافظته حادة ، وبابتسامته مرتسمة على شفتيه يشوبها ألم ومرارة .

وفى أيامه الاخيرة كثيرا ما سمعناه يردد الآية الكريمة :

« يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية »

وفى اليوم الثامن عشر من شهر كانون الثانى عام ١٩٥١ أنذرت حالته بدنو أجله . فتجمع حوله جميع أهله واقربائه الذين وفدوا من مختلف الانحاء ، فسر لمرآهم ، وراح يباركهم ، ويدعو لهم .

وفى صباح يوم الجمعة ، التاسع عشر ، سرت فيه نفحة من نشاط ، فطلب احضار المجموعة الفريدة من التصاوير التاريخية التى يحتفظ بها فى مكتبته ، وأهاب بنا أن نريه التصاوير واحدا فواحد ، ليعرفنا على أصحابها ، وتواريخها ، ومواقعها من هذا الكتاب . وهكذا بدأنا بعرضها عليه ، وهو مسجى على فراشه ، حتى فرغنا منها جميعا . وكان صوته يزداد خفوتا وتهدجا ساعة بعد ساعة .. وشاع فى وجهه شحوب .. وأجهد فى تنفسه .. غير ان ابتسامته لم تفارق شفتيه . وكان يتنقل بنظراته الفاحصة بين وجوه ابنائه وذويه .. كأنه يريد أن يستوعب فى ذاكرته أشكالها قبل الفراق الأبدي .. وكان اذا التقت نظراته بنظراتهم انفرجت أساريره عن ابتسامة مطمئنة ، تغني عن الوداع قبل الرحيل الى العالم الآخر . واغمض جفونه .. فتوهم النسوة انه فارق الحياة ، فبكين مولولات .. فتفتحت عيناه وترقرقت منهما دمعتان ، وأشار أن اصمتوا .. فسكتوا كأن على رؤوسهم الطير .. فأوصى وصيته الخالدة وهو يحتضر . قال بالحرف الواحد وهو يجود بأنفاسه :

« لا تبكوا عليّ ، فقد شبعت من الدنيا .. لم يبق لي فيها مطمع .. شبعت منها بعد أن ذقت حلوها ومرها ، وقضيت ما لي وما عليّ .. وانى غير آسف على الحياة ..

اني لم أترك لكم ثروة مادية كبيرة ، ولكني أعتقد اني تركت اسما نظيفاً انا راضٍ عنه .. اسم لا يضيركم ان تنتسبوا اليه ، وان تسموا به .. لقد جهدت قدر امكاني ان احفظ هذا الاسم نظيفا ، فأرجو ان تحرصوا على المحافظة عليه ..

اوصيكم بوالدتكم خيراً ، وأرجو أن لا تذل بعدى .. فقد جهدت أن أبقيها عزيزة ، فأؤمل ان تبقى كذلك بعدي ..

أوصيكم بأخواتكم خيراً .. وبأخيكم الصغير ، وأرجو أن ينال من التعليم ما قدرت له ..

أوصيكم جميعاً بالتكاتف والمحبة .. لا تتفرقوا .. ولا يأخذنكم الطمع بعضكم ببعض .. فالدنيا أبخس من أن تستحق ذلك ..

ادفنوني في تربة الزبير بجوار جدكم ..

بقيت لي أمنية واحدة ، يهمني تحقيقها أكثر من غيرها .. وهي اني ادعوا الله عز وجل ان يغفر لي ذنوبي ويرحمني .. وهنا تلى الآية الكريمة :

« قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله

ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم » .

ولما فرغ من وصيته أسدل جفونه ليصيب راحة .. وجفت شفتاه فتناوب أبناؤه وبناته على بلّهما بالماء ، فكان كلما مس الماء شفتيه فتح عينيه ليقول : أشكرك ..

وبعد دقائق أسلم الروح .. فصعدت الى بارئها الكريم .

وكان ذلك في تمام الساعة السادسة من مساء يوم الجمعة ، التاسع عشر من كانون الثاني عام ١٩٥١ م .

وحمل جثمانه الى البصرة ، ومنها الى الزبير ، حيث ووري التراب . وكتب على قبره :

« المغفور له الحاج سليمان فيضي
عاش شجاعا كريما أبيا وفيا عالما
مؤمنا صادقا شفوقا عفيفا نزيها
نصر الحق على الباطل . وجاهد في سبيل امته وبلاده
فكان في حياته منارا يهتدى بنوره
وكان بعد مماته في عداد الخالدين
ولد في الموصل عام ١٣٠٢ هـ ـ ١٨٨٥ م
وتوفى في بغداد عام ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م »

فارحمه اللهم برحمتك الواسعة ، واكرم مثواه ، انه كان من الصالحين .

الفهرس

صور الكتاب

فصول الكتاب

كتب ورسائل للمؤلف

شرح قانون حكام الصلح ـ جزآن
الحقوق الدستورية
تعريب القانون الاساسى الاميركى
التحفة الايقاظية فى الرحلة الحجازية
الرواية الايقاظية
الف كلمة وكلمة فى الامثال ـ طبعتان
سر النبوغ
المنتخب من أشعار العرب ـ الجزء الاول
أصول التبعات وأحكامها فى البصرة

كتب لم تطبع

المنتخب من أشعار العرب ـ الجزء الثانى
الفرق بين الاجارتين والمقاطعة فى الوقف
البصرة ـ نخيلها وتمورها وأنهارها

